
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books
سناء المصري
تاريخ
هوامش
الفتح العربي لمصر
مختارات الكرمة

هوامش الفتح العربي لمصر
سناء المصري
هوامش الفتح العربي لمصر
حكايات الدخول
رحلة الانصهار



لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر : www.facebook.com/alkarmabooks

المصري، سناء .
هوامش الفتح العربي لمصر / سناء المصري – القاهرة: الكرمة للنشر، 2017 .
تدمك : 9789776467538
1 ـ فتح مصر .
أ ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 9559 / 2016

حكايات الدخول

مقدمة

لم تكن مصر بلدًا غريبًا على العرب قبل الفتح، وكان تجار قريش يأتون إليها حاملين بضائع الشرق من اللبان والبخور والتوابل والفضة والحرير، فيبيعون بضائعهم، ويشترون منها الثياب الغالية، أو ما يعرف بالقباطي، والمشغولات، والزجاج، بالإضافة إلى أنواع الطعام المختلفة وخصوصًا القمح والذرة. ويذكر البغدادي أن هاشم بن عبد مناف، جد النبي الأكبر، قد هلك في غزة ـ على أبواب مصر ـ كما يذكر أن المغيرة بن شعبة قد دخل مصر كثيرًا قبل إسلامه، وكان آخرها تلك الرحلة التي سبقت إسلامه مباشرة، وكانت رحلة دامية قتل فيها المغيرة أصحابه من بني مالك طمعًا فيما يملكون، بعد أن منحهم مقوقس مصر هدايا كثيرة غالية الثمن، وطمع فيها المغيرة واحتال حتى قتلهم، وسلب ما معهم، ثم لجأ إلى النبي معلنًا إسلامه (1)!

كما دخلها عمرو بن العاص ووصل إلى الإسكندرية محملًا بالعطر والآدم (الجلود). ويذكر بعض المؤرخين أن معرفته الكبيرة بطرق مصر وأخبار مدنها ومكامن ثروتها يعود إلى تلك الرحلات التجارية أيام الجاهلية .

وفي العموم، كان تجار قريش يعرفون مصر معرفة كبيرة قبل الإسلام، خصوصًا بعد أن تعاظم دور مكة في التجارة الدولية في القرن السادس الميلادي، واستفادت كثيرًا من النزاع الطاحن الذي كان يدور بين الدولة البيزنطية غربًا، والدولة الفارسية شرقًا (2).

وعبر التجارة بين الشرق والغرب حمل العرب معارف الجانبين، كما حملوا ثرواتهما، وصارت مكة ـ الوادي غير ذي الزرع ـ عاصمة ثراء الجزيرة العربية من كثرة ما يرد عليها من كنوز الشرق والغرب. وكما يذكر البلاذري في كتاب «فتوح البلدان»، «دنانير هرقل كانت ترد على أهل مكة في الجاهلية، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية، فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر»، وصار كل «قرشي إما تاجرًا أو وسيطًا »(3).

ولأهمية التجارة البرية في هذه الفترة، نشأت على طريق القوافل، من مصر إلى الجزيرة والعكس، عدة محطات وأسواق تجارية ازدهر بعضها وأصبح له شهرة تجارية واسعة، مثل مدينة نصتان الواقعة بين غزة وأيلة شرق العريش، على الحدود بين الدولة البيزنطية المهيمنة على المنطقة وشبه الجزيرة العربية. ويبدو أن سوق نصتان التجارية الضخمة كانت تخضع لسيطرة أو احتكار تاجر مصري، كما يقول مصطفى العبادي في دراسته عن مدينة نصتان .

وفي العموم، كان «البيزنطيون يلزمون التجار الوافدين أن تمر بضاعتهم عبر مراكز مخصوصة يشرف عليها موظفون ماليون »(4) لضمان أداء الرسوم الجمركية، وكانت تلك الأسواق مواطن تماس بين التجار العرب وغيرهم من الشعوب، فتُنزل القوافل رحالها، وتبرك الجمال في الظل، ويعرضون بضاعتهم، ويتبادل الناس الأخبار، ويدفعون ضرائب المرور للدولة البيزنطية، ويلبثون الليل في فندق أو خان بسيط البناء، ثم يعاودون الخوض في آفاق الصحراء المجدبة، وأحيانًا كان الطريق البري الذي تسلكه قريش يمتد من عدن جنوبًا حتى غزة شمالًا فيما يعرف بـ«الطريق التهامية»، أما الطريق البري من مكة إلى فلسطين ومنها إلى مصر فكان يعرف بـ«الطريق التبوكية» ويمر قريبًا من المدينة المنورة، أو يثرب في ذلك الحين، ويستغرق قطعه حوالي شهر في الذهاب وآخر في الإياب .

وحينما تعود القوافل إلى مكة كان الجميع يحتشدون فيما يشبه الاحتفال: «فتتقدم الجمال متهادية، وعلى ظهر كل منها نحو مائتي كيلوجرام من البضاعة، وكانت تلك هي الحمولة المعتادة في الرحلات البعيدة، ونادرًا ما كان الرجال يصلون أصحاء، بل متعبين ومنهكين وقد لوحت وجوههم الشمس وشقق العطش شفاههم »(5) من آثار السير في الصحراء والقفار المهلكة، فيتلقف الناس بضاعة الشام ومصر، وتزدهر الحياة التجارية، وتنعقد مجالس السمر والأخبار في منتديات مكة وأسواقها الثقافية، وتدور الحكايات عن حضارة مصر وروعة مدنها وخصوصًا مدينة الإسكندرية التي أفاض خيالهم في وصف عظمتها .
وبخلاف الطرق البرية من وإلى جنوب الشام، كان هناك طريق بحري يربط الجزيرة بمصر مباشرةً حيث ترسو المراكب بسيطة الصنع في ميناء القلزم (السويس اليوم) على شاطئ البحر الأحمر. وكان التجار يصدرون منه الذرة المصرية ومختلف أنواع الحبوب إلى الحجاز واليمن .
وكان التجار يتخذون من مدينة قفط الصعيدية مركزًا لهم منذ أزمان بعيدة، حتى إن المؤرخ الجغرافي «سترابون» الذي زار مصر في أوائل العصر الروماني في القرن الأول قبل الميلاد، يقول عنها إنها مدينة نصف عربية لكثرة ما رأى فيها من الأعراب والتجار الذين كانوا يأتون إليها عبر وديان الصحراء الشرقية والبحر الأحمر، كما كانت الإسكندرية مركزًا لكثير من التجار العرب الذين يتبادلون البضائع مع التجار اليهود والرومان وغيرهم .
*

وخلال هذا التبادل التجاري، عرف العرب ظاهر مصر، ولمسوا بعضًا من حضارتها، وظلت في خيالهم رمز الوفرة والازدهار، وظل مجيئهم إليها لا ينقطع في رحلات أحادية الجانب من شبه الجزيرة العربية إلى الشام، ثم إلى مصر، والعودة، دون أن يشاركهم أبناء هذه البلاد في رحلات مماثلة إلى بلاد الجزيرة، وإن صادفنا بين الحين والآخر وجود بعض التجار الرومان هناك .
ونادرًا ما كان المؤرخون يذكرون إقامة مصري في مكة، وإذا وجد فهي استثناءات قليلة جدًّا، كما حدث مع النجار القبطي، الذي ذكر الأزرقي عنه أنه شارك في بناء الكعبة حينما غمرها طوفان السيول، فأخذت قريش الأخشاب اللازمة للبناء من حطام سفينة رومانية كانت قد غرقت في ميناء الشعيبة قرب جدة (6).
ويؤكد الكندي ذات الواقعة بقوله إن «البيت هدم في الجاهلية فولت قريش بناءه رجلًا من القبط يقال له «بقوم» فأدركه الإسلام وهو على ذلك البناء »(7).
ولم يذكر لنا المؤرخون أية تفصيلات عما إذا كان هذا النجار دائم الإقامة في مكة، أم أن أهل مكة قد استدعوه للقيام بتلك المهمة .
والأغلب أنه قد تم استدعاؤه لِما عرف عن المصريين من مهارات في البناء والنجارة والتشييد.
وفي إشارة عابرة نجد ذكرًا لقبطي آخر يدعى «أبو رافع»، وكان عبدًا للعباس عم النبي، ثم أهداه العباس إلى النبي الذي أوقفه على زراعة أرض العالية في يثرب، ويقال إن أرض يثرب كانت الزراعة تقوم فيها عمومًا بأيدي العبيد المشترين من الشام والعراق، ثم نجد هذا القبطي يقوم بذات المهمة (8).
ولا يمكننا بناءً على هذه الاستثناءات النادرة أن نرصد رحلات مصرية إلى شبه الجزيرة العربية، والحالتان السابقتان من الأمثلة النادرة في إطار المصادر المتاحة أمامنا حاليًّا .

حتى ظهرت في هوامش السيرة النبوية قبطية مصرية، بل قبطيتان ورجل، قدر لهم أن يدخلوا بيت النبي صدفة، ومن ثم حصلوا على تصريح دخول التاريخ العربي من زاوية أوسع قليلًا، ولكن دون الإفاضة في ذكر تفاصيل حياتهم وتتبع نشأتهم، بسبب اندراجهم تحت طائفة العبيد والجواري غير المستحقين لمكان الصدارة، أو غير المستحقين للاهتمام الكافي من المؤرخين العرب .

وتأثير تجربة القبطيتين والرجل في بلاد العرب كان مقصورًا على الدوائر المحيطة ببيت النبي فقط، ولكنه كان تأثيرًا أعمق من تماس التجارة السريع والمبالغات الناتجة عنه، بالإضافة إلى أنه يعتبر مقدمة التماس الأكبر، القادم مع سنابك الخيل ووقع أقدام الجنود أثناء الفتح العربي لمصر .

وإذا قارنَّا تفاصيل التلاقي المصري-العربي، والعربي-المصري، سنلاحظ الاختلاف الجذري بين اللقاءين، حيث ذهب الطرف القبطي في المرة الأولى إلى بلاد العرب رغمًا عنه، وأُجبر على الدخول في نسق قيم ومعتقدات الوسط الجديد، وضرورة التخلي عن معتقداته الأولى. وفي المرة الثانية حشد العرب حشودهم مع الجيش الإسلامي، ودخلوا مصر، ثم لم يخرجوا منها ثانية مع احتفاظهم بجسور الصلة المفتوحة مع بلاد العرب، فلم تتوقف الهجرات الجماعية لقبائلهم طوال القرون الأولى من التاريخ الهجري .

ووطد العرب سيطرتهم على البلاد التي صارت فيما بعد عربية. ومع الفتح وبدايات الاستيطان نجد أنفسنا أمام درجة أعلى من التماس بين العرب الوافدين على صهوات الخيول شاهرين السيوف والرماح، وبين المصريين العزل .

فكيف كانت المواجهات الأولى؟ وكيف كان تصور كل طرف عن الآخر؟ وما الذي حدث حقيقةً في اللحظات الأولى للفتح قبل أن تستقر الأمور للعرب؟

أمور شائكة مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرنًا، وأهال التاريخ على تفاصيلها رماده الصعب، وآثارها القليلة لا زالت تُروى وتُتداول من خلال صوت رسمي ووحيد للمنتصر الغالب الذي استقرت له الأمور وانكمش أمامه الطرف الآخر رويدًا رويدًا، وانكمشت معه ذكرياته، حتى كادت أن تُمحى من كثرة التجاهل والنسيان .

والآن، هل نكتفي بمجرد ترديد ما سبق قوله ملايين المرات، ونسعد بالدوران في نفس الفلك المعتم؟ أم نحاول أن ننبش معًا ذكريات الطرف المنسي، ونُخرج بقايا أوراقه قبل الفتح وبعده؟

ونظرًا لاتساع المدى الزمني السابق على حدوث الانصهار بين العرب والمصريين، وكثرة أحداث هذا الزمن، سنكتفي بدراسة أحداث القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني حتى سقوط الدولة الأموية عام 132هـ، لأنها الفترة التي شكلت مقدمة الانصهار الإجباري، وجسدت طرق القضاء على مقاومة الطرف المغلوب .

وسوف نحاول تتبع تفاصيل تلك الأحداث، ليس من خلال المصادر العربية فقط؛ ولكن مما تيسر من بقايا الصوت القبطي المعاصر للأحداث، أو الوارث لها بعد ذلك .

وبمضاهاة الصوتين العربي والقبطي ببعضهما، ربما نصل إلى صورة تقريبية لحقيقة تلك الفترة المزدحمة بالتفاصيل والصراعات .

سنمشي على رمال متحركة إذن، ونجمع شذرات متفرقة على الجانبين، ونبحث عن إشارات تلمع بين سطور السياق العام الذي يتواطأ عليها ليخرسها ويطفئها .

وما ينتج عن ذلك سيكون مجرد محاولة لاستنطاق الصوت المكتوم تحت الركام الرسمي منذ مئات السنين .

الفصل الأول

مارية القبطية: غربة حتى الموت

مارية القبطية: جارية النبي المصرية المنتزعة من بيئتها الطبيعية بقرية صغيرة من قرى مصر، والمهداة إليه في صحراء العرب البعيدة قبل الفتح العربي لمصر بأكثر من عشرة أعوام، تلك المرأة المشهورة المجهولة، هل كانت تعي أنها تحولت إلى جارية لرجل لم تره من قبل حتى ولو قالوا لها في الطريق إنه نبي؟ كيف انتُزعت من بين القرينات والأهل لتصبح جارية في بلاط المقوقس يفعل بها ما يشاء؟ كيف تحولت من حرة إلى عبدة؟ ومتى حدث ذلك؟ هل سمعَت من قبل عن مكة والمدينة والعرب والصحراء؟ وكيف تصورتهم وهي الآتية من بلد المزارع الخضراء مترامية الأطراف، والنيل، ووفرة المحاصيل والقرى الراسخة منذ آلاف السنين، تجاورها المدن وعواصم الأقاليم ذات الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة والحمامات والمسارح والجيمانيزيزيم؟

وإذا عرفنا أن مارية لم تكن وحدها في هذه الرحلة إلى المجهول، وأنه كانت تشاركها ذات الظروف والمخاوف والمخاطر والمصير أختها سيرين، لتمنينا أن نعرف نوع الحوار الذي دار بينهما في تلك اللحظات الحاسمة، وأن نرقب نظرات عيونهما وخفقات قلبيهما، بالإضافة إلى رصد انفعالات هذا القبطي المرافق لهما، والذي تقول عنه بعض الكتب إنه أخوهما، وبعضها الآخر يرى أنه كان نسيبًا أو قريبًا لهما، وأنه كان خصيًّا ويدعى «مابور»، والمصادر التاريخية جميعًا لا تكاد تشفي نهمنا لمعرفة حقيقة ما حدث لتلك القافلة الصغيرة ـ مارية، سيرين، مابور ـ يقودهم عربي غريب عنهم في دروب الصحراء القاحلة إلى مصير يجهلونه، تاركين خلفهم قريتهم الصغيرة حَفْن من كورة أنصنا .

لا، ليست حفن، وإنما هبنو «Hebnou» القبطية، ويسميها الرومان «Hyponaa» ، أما الاسم المصري القديم الذي اندثر مع الفراعنة تاركًا آثاره فهو «Hatbmou» ، ونلاحظ الجذر المشترك بين الاسم في اللغات الثلاث الهيروغليفية واللاتينية والقبطية، وحينما جاءت العربية بعد ذلك أخذت أيضًا ذات الأصل وغيرت بعض الصوتيات بقلب الهاء حاء والباء فاء فصارت «حفن» وهي قرية قديمة كاسمها، ويقال إنها كانت قاعدة القسم السادس عشر من أقسام مصر الفرعونية؛ وهو القسم المعروف باسم «Oryx» الواقع شرقي النيل، وبها الكثير من الآثار الفرعونية .

وحينما ازدهرت الحضارة القبطية بسماتها الخاصة منذ القرن الثالث الميلادي، كانت قرية حفن ـ هبنو القبطية ـ إحدى خلايا تلك الحضارة النابضة بالمقاومة والحياة، فانتشرت بها، وأحاطتها أديرة الرهبان وقلاياتهم وكنائسهم، وغلب عليها طابع وروح الفن القبطي؛ حيث البيوت ذات الأبواب الخشبية والواجهات المنمقة بحجارة منقوشة بألوان العنب وشتى الرسوم الزخرفية، وللأبواب مزاليج من الخشب معروفة إلى اليوم باسم «السقاطات»، أما الحوائط فعالية وبها طاقات للتهوية . ويقسم البيت إلى فناء واسع وحجرة استقبال واسعة، وغرف للتخزين وحظائر خلفية وفرن، وفي الفناء تقف الزيور الفخارية في الأركان ممتلئة بمياه النيل العذبة، كما تمتلئ غرف التخزين بشتى أنواع الجرار الفخارية وأواني المنزل وأدوات الطبخ دقيقة الصنع .

وفي الكثير من البيوت يحتل النول الخشبي والمغزل وخيوط الكتان ركنًا هامًّا تصنع فيه المرأة القبطية ثياب عائلتها ومفارش بيتها وستائره وأغطية الوسائد، وفي بعض الأحيان يذهب إنتاجها إلى السوق لتوفير بعض المال اللازم للحياة، بالإضافة إلى مشاركتها في أعمال الحقل والزراعة.

وكانت بعض الفتيات يعملن في معاصر النبيذ وفي مصانع القرية الصغيرة وصوامع الغلال، كما كن يشاركن في مواسم جمع الكروم التي تغطي القرية ببهجتها أثناء عمليات جمعه وتحميله على الجمال، ونقله إلى معاصر النبيذ .

ولكنه لم يكن فرحًا خالصًا تمتزج فيه مشاعر فلاحي القرية من الرجال والنساء بنتاج جهدهم وعملهم طوال الموسم، بل كانت تقطعه قسوة جامعي الضرائب من حكام المقاطعات «الباجارك» ونوابهم المنتشرين في كل الأرجاء، وأحيانًا كان حراس الحقول وشيوخ البلد يمنعون الفلاحين من رفع المحصول من المزارع إلا بعد حضور المسؤولين عن الأراضي . وقد تنوعت الملكية بين أراضٍ يملكها التاج الإمبراطوري ويؤجرها للفلاحين، وأراضٍ يملكها مالك كبير يستخدم الفلاحين للعمل عنده، وقد شهد إقليم المنيا ـ الواقع فيه قرية حفن ـ وجود عدة أسر كبيرة امتلكت آلاف الفدادين مثل أسرة «الكونت أبيون» و«الكونت أمونيوس ». ورغم الثراء الفاحش لهؤلاء الملاك وامتلاكهم لمخازن وبنوك ووحدات حراسة خاصة، وتغلغلهم في جهاز الحكم الإداري، فإن الشواهد التاريخية تؤكد عدم تمتعهم بحقوق الإقطاعي الأوروبي المالك لمصير العاملين في أرضه .

والفلاحون العاملون لدى «الكونت أبيون» أو «الكونت أمونيوس» أو غيرهما، كانت لهم حرية الحركة والانتقال بشرط سداد المستحقات الواجبة عليهم، أو التعهد بسدادها. وقد تمتعت بعض قرى تلك الناحية بنظام الجباية الذاتية، فصار اتصالها بمكتب الوالي مباشرة، أما القرى الخاضعة لكبار الملاك فكانت تتبع موظفي المالك. وسواء أكان النظام الخاضع له فلاحو القرية يتبع الإمبراطور مباشرة أم الكونت، فقد كان ثقل حجم الضرائب وطرق جبايتها وجيش الموظفين القائم عليها يخلق فئة واسعة من هؤلاء المستفيدين من المخازن والشرطة ومسؤولي الضرائب والكتبة والمديرين وموظفي البريد، وغيرهم .

وكان الفلاح المصري يستأجر مساحة صغيرة من الأرض ويعمل على زراعتها لقاء قدر معلوم من الضرائب مثل: ضرائب القمح، «الأنونا الأهلية»، التي تُجمع ليأخذ بعضها حكام الأقاليم، ويُرسل بعضها إلى الإسكندرية، ومنها إلى عاصمة الدولة البيزنطية فيما يسمى بـ«الشحنة السعيدة»، وكان الفلاح يدفع عن المحاصيل الأخرى ضرائب نقدية، بالإضافة إلى الضرائب العامة التي تشترك القرية كلها في دفعها لصالح نفقات الإصلاح وتمويل خزائن المقاطعات وإعداد الفرق العسكرية وسد نفقات زيارة الأباطرة، وغيرها من المهام ثقيلة الوطأة. ولتأمين جباية كل أنواع الضرائب (العينية والمالية) «كان لكل قرية مجلس محلي يعينه مجلس شيوخ المقاطعة ويكون مسؤولًا عن تنفيذ أوامر الوالي »(9). ويتكون من عمدة وشيخ بلد وشرطة، بالإضافة إلى مسؤول مياه فيضان النيل، ومسؤول الخزانة، وحراس الحقول، ثم طائفة الجباة والكُتَّاب وعمال البريد، وغيرهم ممن يربطون بين القرى ومراكز الأقاليم .

وتحت وطأة وتعسف حكام الأقاليم، لجأ الإمبراطور إلى عمل منصب جديد هو منصب «الحامي». وغالبًا ما كان اختيار القائم بأعمال هذا المنصب يأتي من نفس طبقة الإداريين أو أتباعهم، وكان الفلاحون كثيرًا ما يشكون من هؤلاء الحماة، وربما يعود المثل العامي القائل: «حاميها حراميها» إلى ذكرى هؤلاء الحماة الأليمة .

وفي العموم، ثقلت الأعباء الضريبية على مجلس القرية حتى كان المصريون يتهربون من القيام بها، ولجأت الإدارة البيزنطية إلى فرض التزامات الوظائف على أعيان القرى فيما يشبه السخرة .

وكثرت شكاوى الفلاحين من حكام المقاطعات (الباجارك) الذين يغيرون على القرى بجنودهم، فيعتدون على النساء والراهبات، ويسدون القنوات ويسلبون كل ما يقع في أيديهم بعد فرض الضرائب الاستثنائية على الفلاحين .

وفي كثير من الأحيان كانوا يقبضون على زوجات وأولاد الفلاحين الذين يتأخرون في دفع الضرائب، وهناك برديات تعود للقرن السادس، يلتمس فيها الناس من الحكام الإفراج عن الزوجات والبنات في مقابل تعهدهم بإحضار الأزواج الفارين .

وفي ظل هذا النظام المركب، عانى الفلاح الحر ـ شكليًّا أو قانونيًّا ـ من كثرة المظالم والتعديات وإرهاق الضرائب الزائدة عن قدرته إلى الحد الذي أدى به إلى الهروب الفردي والجماعي من القرى إلى الأديرة والأماكن البعيدة، وترك كل شيء للجباة المتعسفين يفعلون به ما يشاءون، فكانت المقاومة بالهرب أخطر ما يواجه جهاز الدولة البيزنطية .

*

وللتعذيب والفرار قصة أخرى في هذه الفترة من تاريخ مصر تتجسد في الاضطهاد الشديد الذي أوقعه «قيرس» البطريرك حاكم مصر الروماني ـ أو «المقوقس» كما تسميه الكتب العربية ـ بالأقباط المصريين دون هوادة، حتى فر الأنبا بنيامين بابا الكنيسة المصرية ومعه سائر الأساقفة إلى أديرة الصحراء هربًا من الاضطهاد. وقبض جنود «قيرس» على أخي الأنبا بنيامين وعذبوه بالحرق «حتى سقط لحم كلاه »(10) ومات في أيديهم، وقد وضع «قيرس» بدلًا من أساقفة القبط الهاربين أساقفة آخرين يتبعونه ويدينون بمذهبه الخلقيدوني في مصر كلها، من الإسكندرية حتى أنصنا، أو أنطونيوبوليس، عاصمة الإقليم الذي تقطن فيه مارية وعائلتها. وقد اشتد اضطهاد «قيرس» الخلقيدوني لمركز أنصنا للقضاء على مركز ومكانة الكنيسة القبطية به، التي كانت تمتلك أراضي زراعية كبيرة في تلك المقاطعة، كما كان يتركز بها أكثر من عشرين ديرًا وكنيسة قبطية تعتبر مراكز للمقاومة الشديدة، وخصوصًا دير الراهب «بوهور» الذي استشهد تحت التعذيب الروماني وظل ديره مركزًا للمقاومة فيما بعد .

ويعود إنشاء مدينة أنطونيوبوليس ـ أنصنا فيما بعد ـ إلى القرن الثاني الميلادي، وبالتحديد عام 130 ميلادية، حينما زار مصر الإمبراطور الروماني «هادريان » ، وقام برحلة نيلية في صعيد مصر، واختار ذلك المكان الذي غرق فيه غلامه المحبوب «أنطونيوس» وبنى عليه مدينة أنطونيوبوليس على طراز العمارة الإغريقي، فضمت المدينة مسارح وحمامات وجيمانيزيم وشوارع يونانية الطراز، وقصورًا ضخمة لا زالت بعض آثارها موجودة حتى الآن «وقد بلغ من حرص الإمبراطور على النقاء الإغريقي لسكان هذه المدينة أن اختار العناصر الأولى لسكانها ـ عن طريق القرعة ـ من مدينة «بطلمية»، أكثر المدن الإغريقية في مصر تحفظًا وغيرة على التراث الإغريقي، كما اختار عددًا آخر من إقليم الفيوم؛ حيث كان لا يزال هناك طبقة إغريقية مغلقة على نفسها ولم تختلط بالمصريين لا ثقافة ولا عنصرًا، وعرفت بطبقة الـ6475 مواطنًا، وأعطى الإمبراطور سكان مدينته الجديدة حق تكوين مجلس شورى وحقوقًا أخرى »(11).

وبمرور الزمن فقدت المدينة نزمتها الإغريقي العنصري، وسرى فيها تيار التمصير جارفًا، بعد السماح بالزواج من المصريات، ومما ساعد على سرعة التمصير موقع المدينة كمحطة تجارية هامة، ومركز لصناعة النسيج والفخار وعصر النبيذ، بالإضافة إلى تلك الكوكبة من القرى المصرية الغنية بمزارع الكروم والقمح والنخيل التي كانت تحيط بها مثل قرية حفن، موطن مارية

وسيرين وعائلتهما. وظلت أنصنا والقرى المحيطة بها حسنة البساتين والمنتزهات، كثيرة التمر والفواكه، كما يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان ».
وثمة روابط محسوسة تربط تلك المنطقة وقراها بماضٍ بعيد للحضارة الفرعونية وتترك آثارها في بعض العادات وطرق الزراعة وأنواع الأدوات المستخدمة في الحياة .
وفي هذا المناخ المشبع بعناصر الثقافة القبطية في اللغة والدين والسلوك، عاشت الفتاتان مارية وسيرين وحملتا كل عناصر الثقافة المحيطة ـ على الأقل في وعيهما الداخلي ـ مع ملاحظة أنهما شبتا في ربوع القرية العتيقة، وعاشتا تفاصيل الاضطهاد فيها، أما رفاهية أنطونيوبوليس التي كانت تبعد عن موطنها بمسافة قصيرة، فكانت حكرًا يخص السادة الرومان من الحكام والفرسان والنبلاء وكبار الموظفين، أو هؤلاء المتمصرين الأغنياء الساكنين في بطانتهم، دون غيرهم من فئات الشعب المصري القاطن في القرى المحيطة بها .
ولنا أن نتخيل كثيرًا من مفارقات الترف والرفاهية بين سكان أنطونيوبوليس ـ عاصمة الإقليم وعروس الصعيد ـ المستمتعين بالحمامات والمسارح، والقارئين للشعر والمسرح والفلسفة اليونانية، والحفلات ذات الطابع المتأغرق، وبين حياة القرى الغارقة في العمل الزراعي، وما يترتب عليه من أعمال عصر النبيذ، وطحن الحبوب، وعصر الزيوت، وغيرها من الأعمال الشاقة، بالإضافة إلى عبء القيام بالأعمال الإجبارية العامة من حفر الطرق والقنوات والمصارف ومد الجسور، وأداء الضرائب العينية والنقدية، وهوان الفرار المذعور أمام خيول الفرسان الرومان ورجال الحاميات العسكرية، وظلمة السجون الكائنة في انتظار من لا يدفع، وغيرها من صور البؤس التي كان يعاني منها سكان القرى القبطية المحيطة بعاصمة الأقاليم الثرية المرفهة الأنيقة، وقد حفظت لنا أوراق البردي نماذج لبعض دعوات حفلات العشاء المقامة في الجيمانيزيم، أو نصوص المسرحيات، وغيرها من أنماط الثقافة اليونانية لطبقة الرومان والمتمصرين المحيطين بهم .
وبعيدًا عن مظاهر الرفاهية، عاشت الفتاتان مارية وسيرين في قرية حفن الغارقة في الأعباء، ضمن آلاف العائلات القبطية المضطهدة، تألفان الجو المحيط بهما، وتشقيان وتفرحان مع أقرانهما من القبط، حتى امتدت أيدٍ شرسة واقتلعتهما من جذورهما، وقذفت بهما مع مابور إلى قصر المقوقس بالإسكندرية، في رحلة إجبارية يغلب عليها طابع القسر والاستعباد .
وحادثة انتزاع مارية وسيرين ومابور غابت تفاصيلها تمامًا عن كتب التاريخ العربية منها والقبطية، ولكنها تشبه الكثير من حكايات انتزاع زوجات وبنات الفلاحين المصريين من أراضيهم وبيوتهم بسبب عجز الرجال عن أداء الضرائب وتراكم الديون، أو بسبب الاضطهاد الديني لهم بصفتهم أقباطًا مؤمنين بمذهب كنيسة الإسكندرية، أو غيرها من أسباب المظالم الكثيرة المحيطة بالفلاحين المصريين تحت قيود الحكم البيزنطي .
وفي تلك الأثناء على بعد آلاف الأمتار من حدود مصر الشرقية، في بلاد العرب البعيدة، كان النبي محمد يبث دعوته الإسلامية في محيطه العربي، ويتخذ من المدينة يثرب مركزًا لدولته.
وقرر النبي بعد صلح الحديبية (عام 6هـ) أن يبلغ دعوته لملوك وأمراء العالم المحيط بالجزيرة العربية بعد أن «اتضح أنه السيد الفعلي في شمال الحجاز وتهامة »(12) ، وأنه قادر على عزل قريش سياسيًّا واقتصاديًّا .

فاختار نفرًا من أصحابه وأرسلهم إلى إمبراطور الروم، وكسرى فارس، وملك الحبشة، وملك البحرين، وعمان، وحاكم مصر، وكتب لكل منهم رسالة ـ كلٌّ بلغته ـ ويقال إن كاتبه كان من بني النجار، ويدعى «الخزرجي» «يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وأنه تعلم هذه اللغات بالمدينة من أهل هذه الألسن »(13).

وحمل خطاب النبي إلى المقوقس عظيم مصر (أو «قيرس» الروماني) شخص يدعى حاطب بن أبي بلتعة، وهو تاجر طعام حليف قبيلة أسد حليفة قريش، وكان يملك عددًا من العبيد ـ وكان هذا يعتبر أحد مقاييس الثراء لدى العرب ـ كما كان «من الرماة الموصوفين، ذكره الحاكم في مستدركه، فقال: «كان حسن الجسم، خفيف اللحية، أجنى، إلى القصر ما هو، شثن الأصابع »»(14) ، أي ليس غليظ الأصابع (15).

وقد سلك حاطب طريق التجارة المعروف من المدينة حتى دخل مصر، ثم وصل إلى الإسكندرية قاصدًا بلاط المقوقس حاكم مصر الروماني، وكان المقوقس «قيرس» في مجلسه المشرف على البحر، كما يقول ابن عبد الحكم (16) ، فركب حاطب البحر حتى حاذى مجلس المقوقس، وأشار إليه بكتاب النبي بين إصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمر به فأوصل إليه. ولكننا نفهم من رواية ابن سعد أن حاطب قد مكث بباب المقوقس مدة من الزمن حتى سمح له بلقائه. ورواية ابن سعد أقرب إلى الصحة المنطقية جريًا على عادة الملوك في اتخاذ القصور والحراس والأبواب المغلقة، فيأتي تاجر من الجزيرة العربية ويطلب مقابلة الملك ويظل ببابه حتى يؤذن له بالدخول .

أما رواية ابن عبد الحكم عن المقوقس الذي كان مجلسه يشرف على البحر فيلوح له رجل غريب برسالة من جهة البحر فيؤمر بها، فقول يناسب المبالغات الأخرى التي سيفرط ابن عبد الحكم في ذكرها بعد ذلك. وكان نص الرسالة :

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد :

فإنني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط. يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (17).

ويفيض ابن عبد الحكم في سرد تفاصيل الحوار الذي دار بين حاطب والمقوقس حتى إنه يذكر حوارًا شبه سري دار بينهما ليلًا وليس معهما سوى الترجمان، سأل فيه المقوقس عن حقيقة أفكار محمد وصفاته، وبمجرد سماع المقوقس لصفات النبي تحول موقفه من الشك إلى التصديق، وأخذ يكمل بنفسه ما نسيه حاطب ـ وكأنه رآه رأي العين ـ فقال: «قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها، في عينيه حمرة قل ما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار ويلبس الشملة ويجتزئ بالتمرات والكسر، لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم »(18).

ولا نجد ذكرًا لهذا الحوار المغرق في التفاصيل لدى محمد بن سعد، كاتب الواقدي، في «كتاب الطبقات الكبير». وفي الأغلب أن هذه الحكايات وأمثالها هي من موضوعات الرواة والمؤرخين الذين ينسبون إلى المقوقس «قيرس» قوله: «القبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ههنا »(19).

وحسب تلك الرواية يكون المقوقس قد آمن بالنبي وتنبأ بانتصار العرب على أشلاء دولته البيزنطية .

وفي الحقيقة، إن كل هذه الاعترافات النافية للذات والمؤمنة بالآخر إلى حد ذكر صفات النبي الخاصة جدًّا ـ والمقوقس «قيرس» لم يرَ النبي قَطُّ ـ والتنبؤ له بمستقبل واسع النفوذ على حساب دولة الروم ـ أي على حساب النفس ـ هي غريبة كل الغرابة، ولا تتفق مع مجمل مواقف الحاكم الروماني وتاريخه السياسي، وهو المعروف بمدى تعصبه ضد كل من يخالفه في مذهبه الديني، خصوصًا أن نفوذ المقوقس «قيرس» السياسي كان مستمدًّا من نفوذه الديني بصفته بطريركًا للمذهب الخلقيدوني المعادي لكل المذاهب الأخرى، واضطهاد كل من يخالفه الرأي من المصريين الواقعين تحت سطوته وحكمه .

وفي كثير من الأحيان يغلب على روايات ابن عبد الحكم طابع القص الكاريكاتيري، كما في قوله: «إن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمه إلى صدره، وقال هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نعته وصفته في كتاب الله تعالى وإنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح، وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، وأن جلساءه المساكين، وأن خاتم النبوة بين كتفيه، ثم دعا رجلًا عاقلًا ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها وهما من أهل حَفْن من كورة أنصنا فبعث بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم »(20).

والمقوقس «قيرس» في تلك الرواية كملوك الحكايات الأسطورية الذين يعرضون مملكتهم على أول عابر سبيل يمر عليهم، أو كعرَّاف يقرأ الطالع، ويهذي ببواطن المستقبل المعاكس لوجوده، فيصبح بذلك رجلًا ضد نفسه .

ويبدو النصف الآخر من الحكاية متأثرًا بالقصص الشعبية التي تجعل الملوك يبعثون برجالهم ليفرزوا نساء المملكة ويختاروا أجمل الفتيات لتصبح محظية الأمير أو زوجته «ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية»، وكأن مصر كانت قرية صغيرة يمكن فرز نسائها بسهولة، مع ملاحظة أن محمد بن سعد قد ذكر أن حاطب أقام خمسة أيام فقط لدى المقوقس .

وعذر ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين العرب في ذكر مثل هذه القصص أن مدوناتهم التاريخية جاءت بعد مرور أكثر من قرنين، بعد أن استقرت الأمور للعرب وسقطت دولة الروم واتضحت مصائر البلاد. وكان من السهل أن يحدث نوع من تلبيس المستقبل للماضي، وكأن التاريخ يعيد تشكيل نفسه مع كل رواية جديدة .

وعلى أية حال، تبدو رواية محمد بن سعد، كاتب الواقدي، أقرب إلى الصحة المنطقية، حيث تختفي منها كل هذه المبالغات وتأتي الوقائع بسيطة سلسة حيث يقول :

أوصل إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه وقال خيرًا، وأخذ الكتاب فجعله في حُقٍّ من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «قد علمت أن نبيًّا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها» ولم يزد على هذا ولم يسلم، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها سيرين وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دلدل، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»، قال حاطب: «كان لي مكرمًا في الضيافة وقلة اللبث ببابه ما أقمت عنده إلا خمسة أيام »(21).

فكاتب الواقدي على عكس ابن عبد الحكم يذكر المقابلة باقتضاب، حتى إن النبي بعد عودة حاطب حاملًا رد المقوقس قال: «ضن الخبيث بملكه»، وتنبأ له بالزوال .

فالنبوءة هنا على لسان النبي وليست على لسان المقوقس «قيرس»، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم. كما أن ابن عبد الحكم يوسع مكونات الهدية حتى تشمل ثيابًا من قباطي مصر، وعسلًا من عسل بنها، ومال صدقة، بالإضافة إلى الجاريتين والبغلة والحمار والخصي. وجميعها مكونات غريبة بالنسبة لهدية مرسلة إلى نبي يتحدث باسم رسالة جديدة، ويطلب من الملوك الإيمان بها ! ولذلك تبدو رواية ابن سعد، على قصرها، أكثر الروايات مناسبة مع وضع المقوقس «قيرس»، وتعصبه لمذهبه الخلقيدوني، حتى إنه يذكر «قد علمت أن نبيًّا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام»، في صيغة تنفي تصديق المقوقس لخروج النبي المنتظر من أرض العرب، وإجابته قد دفعت النبي إلى الدعاء على ملكه بالزوال. وبعد تسليم حاطب الرد المقتضب ومكونات الهدية الصغيرة خرج الجمع من مصر مكونًا من مارية وسيرين ومابور والبغلة، يقودهم حاطب بن أبي بلتعة، تاجر الطعام، إلى المدينة مركز النبي .

وسارت القافلة الصغيرة في ذات طريق التجارة المعروف إلى المدينة (22) ، وكلما كانوا يتوغلون في اتجاه صحراء الجزيرة العربية ويبتعدون عن حدود مصر، كان القلق يزداد، والوحشة تدب في النفوس، وصور البيت والقرية والمدن التي مروا عليها قبل الخروج تمتثل في الذهن وتضطرب في اهتزازات سريعة مع اضطراب الروح من أثر المخاوف المحيطة: حفن، المزارع، الكروم، المياه الجارية، أنصنا، أنطونيوبوليس، القصور، الحاميات العسكرية، الأسر، قصر الحاكم الروماني، الرجال الغرباء ذوو اللغة المختلفة، والوجوه والملابس المختلفة، والجمال والصحراء .

اللون الأصفر يحل محل الأخضر الآن .

الجفاف بدلًا من المياه الجارية .

جدب الصحراء والمخاطر المحيطة مكان استقرار القرية وثبات بيوتها .

كل شيء غريب ومختلف، حتى هذا العربي الذي يقود قافلتهم الصغيرة .

وتنفرد رواية الطبري بإضافة ملمح الاتصال اللغوي بين حاطب ـ تاجر الطعام العربي ـ ومارية وسيرين، حيث يذكر أن حاطب عرض على مارية الإسلام ورغبها فيه فأسلمت هي وأختها... أي أنهما دخلتا المدينة مسلمتين بينما تأخر إسلام مابور عنهما. فبأي لغة عرض عليهما حاطب الإسلام (23) ؟

ونحن نعلم أن الثلاثي المصري (مارية، سيرين، مابور) يتحدث اللغة القبطية ذات اللهجة الصعيدية، وحاطب لا يعرف اللغة القبطية، كما تذكر المصادر التاريخية .

والمؤكد أنهم دخلوا المدينة وقد نال منهم التعب حدًّا كبيرًا، بعد أكثر من شهر من الخوض في قيظ الصحراء، وقد كان تجار مكة يصلون إليها وقد نال منهم التعب، وتشققت شفاههم، فما بالنا بفتاتين تخوضان مثل هذه الرحلة للمرة الأولى؟

ودخلت القافلة أسوار المدينة: نخل بين حرتين، أو أرض سبخة بين جبلين شاهقين. فمن أين يُسقى النخيل وليس هناك أثر لأية مياه جارية؟ إنها مياه الآبار إذن . وكان يقوم بالعمل فيها عبيد من الحبش. وكلما كانت القافلة تقترب من مواطن المسلمين، كانت الصورة تتضح شيئًا فشيئًا. البيوت متواضعة وفقيرة مبنية من جريد النخل، وعليه مسوح شعر سوداء. سقوفها غير مرتفعة تكاد تمسها الأيدي. ولكن أين النساء؟ ربما هن اللواتي يسرن تحت هذه الأغطية السوداء. ينطبق عليهن وصف الكاتب المعاصر سعيد حوى في ذكر حادثة فرض الحجاب على النساء، بأن المدينة

صارت مثل مواطن الغربان. وأشد ما كان مشهد المدينة يختلف عن قريتهم الصغيرة القديمة، حفن، الواقعة في حضن النيل بصعيد مصر !
فأخذت القافلة تتقدم أكثر نحو بناء مركزي (المسجد) وبجواره تسع حجرات مبنية بنفس النمط السابق. وقادهم حاطب بن أبي بلتعة إلى مجلس الرجال يتوسطهم رجل ذو مهابة «مشرب بحمرة، طويل المسربة، عظيم الرأس واللحية، عظيم الكراديس، شثن الكفين والقدمين، لا طويل ولا قصير». وهي صفات النبي كما وردت في «تاريخ المدينة المنورة »(24) ، وكان النبي أبيض وبياضه مشرب بحمرة، ضخم الهامة، أغر أبلج، ضخم القدمين والكتفين، سبط الشعر ينسدل إلى كتفيه... أكحل العينين، وسيمًا في عباءته الحمراء. ويبدو مهيبًا بين أصدقائه :
فلما نظر إلى مارية وأختها أعجبتاه وكره أن يجمع بينهما، وكانت إحداهما تشبه الأخرى، فقال: «اللهم اختر لنبيك»، فاختار الله له مارية، وذلك بأن قال لهما: «قولا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله»، فبدرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت (25).
وسرعة إيجاب مارية بالمقارنة مع أختها ـ باستخدام لغة الإشارة أو حروف صوتية مكسرة ـ يفصح عن حاجتها السريعة للأمان وسط هؤلاء الأغراب، كما يفصح عن بروز ملكات شخصية كالذكاء وسرعة التعلم والشجاعة، فاختارها النبي لنفسه، ثم أهدى الأخت بطيئة المبادرة ـ والبطء هنا يمكن أن يعود إلى زيادة الخوف، ويمكن أن يعود إلى الطبيعة الشخصية ـ أهداها إلى حسان بن ثابت، أو لمحمد بن مسلمة الأنصاري، أو لدحية بن خليفة الكلبي، أو لزكريا بن جهم؛ على خلاف في الرأي. والأقرب إلى الإجماع أنه أهداها إلى حسان بن ثابت، شاعر النبي، كتعويض له عن ضربة سيف تلقاها من صفوان بن المعطل، كما أعطاه أيضًا بيتًا من بني حديلة .
وبهذا المصير انتحت سيرين مكانًا مظلمًا في خلفية الصورة، ولن نصادف سيرتها في كتب السيرة إلا في مواقف نادرة كـ«فلاشات» ضوئية سرعان ما تختفي دون أن توضح أية ملامح من ظروف حياة هذه المصرية الوافدة إلى بلاد العرب قسرًا وإجبارًا. أما مارية فقد أنزلها النبي في بيت لحارثة بن النعمان عند أم سليم بنت ملحان، ويبدو أن هذا البيت كان قريبًا من بيوت زوجات النبي، المبنية بجوار المسجد من جريد النخل المغطى بمسوح الشعر السوداء على عادة الأعراب، فيما عدا بيت أم سلمة التي بنت غرفتها باللَّبِن أثناء خروج النبي في إحدى الغزوات. ويقول ابن سعد إن عدد هذه الغرف كان تسعًا، وإنها كانت ضيقة لمجرد الوفاء بالحاجة، وغير مرتفعة، حتى إن الحسن بن علي بن أبي طالب، حفيد النبي، يقول: «كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي». وكان عدد زوجات النبي المقيمات في هذه الغرف تسعًا، هن (26):
ـ عائشة بنت أبي بكر، عقد عليها النبي قبل الهجرة بثلاث سنوات ودخل بها في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع .
ـ حفصة بنت عمر، تزوجها النبي سنة ثلاث هجرية، وسنها يومئذ عشرون سنة بعد أن اشتكى أبوها للنبي أنه عرضها على أبي بكر وعثمان فلم يقبل أحدهما الزواج منها، فقبلها النبي .
ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان، تزوجها النبي سنة سبع هجرية بعد عودتها من بلاد الحبشة .
ـ أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، تزوجها النبي سنة أربع من الهجرة بعد وفاة زوجها في غزوة أحد .

ـ سودة بنت زمعة بن قيس، تزوجها النبي قبل الهجرة بثلاث سنوات في ذات العام الذي عقد فيه على عائشة .
ـ زينب بنت جحش بن رئاب، تزوجها النبي سنة خمس هجرية بعد أن كانت زوجة مولاه زيد بن حارثة، فوقع نظر النبي عليها وأعجبته، فطلقها زيد وتزوجها النبي .
ـ ميمونة بنت الحارث بن حزن، تزوجها النبي سنة ثمانٍ من الهجرة أثناء عمرة القضاء .
ـ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، تزوجها النبي سنة خمس من الهجرة بعد أن كاتبته عن نفسها في غزوة بني المصطلق. وفي ذات العام اتخذ من ريحانة جارية له .
ـ صفية بنت حيي بن أخطب، تزوجها النبي سنة سبع من الهجرة بعد أن ألقى رداءه عليها أثناء تقسيم سبي غزوة خيبر. وفي ذات العام جاءت مارية من مصر فاتخذها جارية له. وفي ذات العام أيضًا، ولكن بعد مرور عدة شهور على مجيء مارية، كانت سرية زيد بن حارثة إلى بني فزارة في شهر رمضان. وأهمية تلك السرية بمكانة قائدها زيد بن حارثة من النبي فهو مولاه المقرب منه، وزوج زينب بنت جحش السابق الذي دفعه حسن خلقه إلى تطليقها لإعجاب النبي بها .
ويحكي الطبري في تاريخه أن زيد قتل أم قرفة في هذه الغزوة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وأن قتلها كان عنيفًا بأن ربط برجليها حبلًا بين بعيرين حتى شقها شقًا، وكانت عجوزًا كبيرة وأسر ابنتها (27). فهل سمعت مارية عن هذا الحادث؟ وماذا كان تأثيره عليها؟
ولأن مارية كانت الجديدة الوافدة من بلاد أخرى، محملة بثقافة أخرى وحضارة أخرى، ولأن النبي كان معجبًا بها يكاد يتفرغ لها، فقد تفرغت لمراقبتها وحصارها كل نساء النبي رغم أنهن زوجات حرائر وهي جارية ملك يمين .
والجميلة مارية جاءت بدون حجاب، وكانت تتزين بطريقة المصريات المتوارثة عن أمهاتهن الفرعونيات، حيث تستعمل المرأة المصرية الكحل للرموش واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه. وتضع القرط الدائري الواسع المعروف الآن باسم «الحلق المخرطة» في أذنيها، أو أقراطًا على شكل عنقود العنب، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهي برأس حية من كل ناحية، ويزين الجيد والعنق عقد من الخرز الدقيق الملون، وأحيانًا تلبس «الخلخال» الفضي في قدميها. أما الشعر فكانت المرأة المصرية تصففه بطرق مختلفة أبرزها تسريحة الشعر المنقوشة في جداريات الفن القبطي، ويكون بتجعيد خصلات الشعر على هيئة بلح مع رفعه إلى أعلى وتزيينه بشرائط ملونة. وأحيانًا يكون الشعر قصيرًا مرخيًّا على جانبي الوجه، أو طويلًا ينساب على الكتفين في جدائل ملفوفة .
والملابس من الكتان الأبيض المشغول بالصوف الملون، وخصوصًا باللون الأرجواني الذي كان أعجوبة هذا الزمان. ويطرز الثوب حول الرقبة والأكمام بزخارف مصرية مأخوذة من مفردات الطبيعة المصرية مثل الأعناب وزهور اللوتس، أو بزخارف هندسية دقيقة من خطوط ومربعات ودوائر متداخلة ومتكررة. وتصف زبيدة عطا ملابس النساء في دراستها عن إقليم المنيا موطن مارية، فتقول :
كانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة القباطي، وهي أقدم المنسوجات المزخرفة، وهي أول زخرفة نسيجية مكونة من لونين أو أكثر، وغالبية الثوب كانت من اللون الأبيض أو الكحلي أو الأرجواني، أما الزخارف فبألوان متعددة (28).

وعن موديلات الملابس، تقول: «كان منها الثياب القصيرة كثياب الإسبرطيات ومنها الطويلة ذات الطيات »(29).

وعلى غير عادة عائشة وحفصة في تزيين النساء للنبي قبل دخوله عليهن، لم تشتركا في تزيين مارية غير المحجبة واضحة الجمال الوضيئة، كما يقول الطبري، واشتدت غيرة زوجات النبي منها، حتى إن عائشة تقول في حديثها عن مارية :

ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية وذلك أنها كانت جميلة من النساء جعدة، وأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت حارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عامة النهار والليل عندها... حتى فرغنا لها؛ فجزعت فحولت إلى العالية فكان يختلف إليها هناك وكان ذلك أشد علينا (30).

ويبدو أن نار الغيرة كانت دائمة الاتقاد في بيت النبي، وقد روى شمس الدين الذهبي أن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم كن حزبين: فحزب فيه حفصة وعائشة وصفية وسودة، والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر أزواجه. وصورة مشاجرات الضرائر وكيدهن لبعضهن في الظاهر وفي الباطن، بل وكيدهن للنبي نفسه كثيرًا ما كانت تحدث بزعامة عائشة وحزبها الذي كتلته من الزوجات القويات أمثال: حفصة بنت عمر وغيرها. وأحيانًا كان يصل الشجار إلى حد التشابك بالأيدي كما حدث حينما جذبت عائشة وحفصة أم سلمة من رأسها، بخلاف المعارك الكلامية الكثيرة بين الحزبين .

وكثيرًا ما اشتعلت نار الغيرة بين عضوات حزب عائشة نفسه فكانت عائشة تدس لحفصة إذا ما تأخر النبي عندها (31).

كان ذلك قديمًا ومستمرًّا بينهن، حتى جاءت مارية فجذبت الأنظار، وغارت منها عائشة أكثر من غيرتها من الأخريات، خصوصًا أن النبي يقضي معها معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها، ووضْعها كجارية لا يعطيها حق قسمة الأيام مثل سائر الزوجات (32). فإذا بها تأخذ معظم الليل والنهار ومن شدة ولع النبي بها كان يدخلها بيوت زوجاته الأخريات، ويعطيها أيامهن أحيانًا، فوقفت له حفصة بنت عمر بن الخطاب ذات يوم، وهي الوارثة قوة اللسان عن أبيها، فعاتبته حتى استرضاها بوعد مقاطعة مارية. والحكاية كما يرويها القاسم بن محمد :

خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بجاريته مارية في بيت حفصة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهي قاعدة على بابه ـ يقصد حفصة ـ فقالت: «يا رسول الله أفي بيتي وفي يومي؟»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هي عليَّ حرام فأمسكي عني»، قالت: «لا أقبل دون أن تحلف لي»، فقال: «والله لا أمسها أبدًا »(33).

ونزلت في تلك الحادثة آية الإيلاء : «ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ »وآية : «ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ ».

وهكذا وجدت مارية ـ قبطية اللسان والعادات ـ نفسها محاطة بعدد من الزوجات، بينما يختلف الوضع في بيئتها الطبيعية في مصر عن ذلك كليًّا، حيث لا يتزوج الرجل إلا من امرأة واحدة تشاركه حياته، ويتلازم الزوجان حتى موت أحدهما .

وتمسك الفكر القبطي بمبدأ الزوجة الواحدة للأبد، واعتبر الجمع بين زوجتين زنًى ظاهرًا مستمرًّا، كما حرم التسري، وكما جاء في قوانين «المجموع الصفوي»: «من له امرأة ويجامع مملوكته يعاقب »(34).

ومبدأ الواحدية الراسخ في البيئة المصرية منذ عصور التاريخ الفرعوني القديم يختلف عن أساس المعاملة في الفكر العربي الذي يمنح الرجل حق الاستمتاع غير المحدود بالنساء باعتبارهن مجرد وسائل للذة الحسية .

وفوجئت مارية القبطية التي تحرم شريعة دينها ارتباط الرجل بأكثر من امرأة، وتحرم التسري وتضعه في مرتبة الزنى الفاحش، بأنها أصبحت واحدة من حريم واسع لرجل واحد، وأن حلقة الحصار تضيق حولها، حتى إن النبي نفسه قد ضاق بهذا الحصار، وقرر فصلها بعيدًا عنهن فحولها إلى العالية بعيدًا عن عيون زوجاته التسع .

والعالية، التي تقع جنوب شرقي المدينة، هي نصيب النبي من مغانم غزوة بني النضير عام سبعة هجرية، وتشتهر «بنخيلها وآبارها العذبة وهي كثيرة المياه وتزرع أراضيها القرع واللفت والجزر »(35) ، وكانت الزراعة تقوم على أكتاف العبيد المشترين من الشام في أغلب الأحيان .

وأخذ النبي العالية له خالصة «فأعطى من أعطى وحبس ما حبس وكان يزرع تحت النخل زرعًا كثيرًا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل له منها قوت أهله سنة من الشعير والتمر لأزواجه وبني عبد المطلب »(36). وما يتبقى من عائدها كان يشتري به السلاح والعتاد، والعالية كانت مساحة كبيرة من الأرض الخضراء «وهي سبعة حوائط: المثيب والصافية والدلال وحسني وبرقة والأعواف ومشربة أم إبراهيم ـ نسبة إلى مارية ـ وكانت أم إبراهيم تكون هناك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيها هناك »(37).

وبصعود مارية إلى العالية ابتعدت خطوة عن جو المكائد والمؤامرات الدائرة بين زوجات النبي في غرفهن المحيطة بالمسجد، واقتربت خطوة من بيئتها الطبيعية بعد أن توفرت عناصر الخضرة والزراعة في المكان الجديد الذي يسميه محمد بن سعد بـ«خرافة النخل»، من كثرة زرعه بالنسبة إلى الصحراء المحيطة .

ويذكر محمد بن سعد فرض الحجاب على مارية بعد صعودها إلى العالية، ورغم أنها كانت لا تزال في وضع الجارية، فإن النبي قد فرض عليها الحجاب وهو شارة وعلامة المرأة الحرة بسبب شدة جمالها وشدة غيرة الأخريات منها. وفي حديث عن محمد بن عمر قال: «حدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله عن أبي جعفر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حجب مارية وكانت قد ثقلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وغرن عليها ولا مثل عائشة »(38).

ودخولها تحت ستر الحريم كان علامة فارقة أخرى في حياتها، وهي التي تعودت مثل سائر نساء محيطها على مخالطة رجال مجتمعها دون حجاب، فالفلاحة المصرية تعمل في الحقل كتفًا بكتف مع الرجل، كما تعمل في معاصر النبيذ وأعمال النسيج وشتى الحرف، وفجأة تغير كل ذلك حينما انتقلت إلى البيئة العربية، وفرض عليها العزلة، وأصبحت مقيدة الحركة مثل الأخريات اللاتي ينتظرن هبوط الظلام حتى تخرج الواحدة منهن «من مساكن حيها إلى مكان قصي لتقضي حاجتها ثم تعود »(39).

وبعدما كانت «تروح وتغدو كما تريد، تحدِّث من تشاء وتختلط بالرجال دون الحجاب» مثل سائر النساء المصريات، أصبحت الآن قعيدة بيت العالية لا تستطيع حتى أن تجلب الماء لنفسها. فكان مابور يأتيها بالماء والحطب، لكن كثرة تردده عليها وضيق الأفق المحيط، أثار اللغط العربي كثير الشكوك، ويلاحظ ابن كثير في كتاب «البداية والنهاية» أن تردد مابور على مارية كان عاديًّا؛ لأنه «كان من عاداتهم ببلاد مصر »(40).

ولم ينتهِ هذا اللغط إلا بعد إثبات أن مابور خصي .
وربما حاولت مارية إضافة لمسات مصرية إلى بيتها في العالية، ولكن أنى له أن يصبح كبيوت مصر ذات الستائر المنسوجة بخيوط الصوف والكتان على طريقة القباطي، والمزخرفة برسوم الفواكه أو رسوم الراقصات، والمناشف أو الفوط المزخرفة برسوم الحيوانات، ومسارج البرونز المصنوعة على شكل أسد أو حمامة أو ثور أو طاووس، وقنينات العطر، وأدوات زينة المرأة من الأقراط والخواتم والمكاحل والمراود وعقود الخرز الدقيق الملون وأمشاط العاج وشباك الشعر المزينة بالورد والضفائر المجدولة من اللونين الأبيض والأزرق؟ وحتى لعب الأطفال من الشخاليل والتماثيل صغيرة الحجم ـ وكان القبط يحبون التماثيل الصغيرة جدًّا ـ المصنوعة من الطين في أشكال كاريكاتيرية وتعرف باسم «أنطيو» أو «هادريان» أو المساخيط. أدوات حضارية كثيرة، وإن كانت صغيرة، تركتها مارية خلفها في قريتها الصغيرة حفن، وكان من الصعب تعويضها في البيئة الجديدة .
ويقال إن النبي كان لديه مشط ومرآة ومدهنة وسواك وكحل. وإن المقوقس أهدى له فيما أهدى قدح زجاج كان يشرب فيه، «وقال عاصم هو قدح جيد عريض من نضار »(41) ، كما أهدى له «ربعة» يضع فيها «المرآة ومشطًا من العاج والمكحل والمقص والسواك »(42). وعلى الرغم من صغر هذه الأدوات فإنها كانت مثار إعجاب البيئة المحيطة بالنبي ودليلًا على تميزه، حيث يبعث وجودها على راحة الإنسان ورقي نمط معيشته عمومًا، ويدفع غيابها إلى خشونة الحياة وجهامتها .
وغياب كل تفاصيل الحياة اليومية وأدواتها التي تعودت عليها مارية في موطنها الأول، كان يعني غياب وفقدان الألفة مع المكان الجديد وغربتها الكاملة عن كل ما يحيط بها. مع ملاحظة جمال مارية وإعجاب النبي بها وغيرة النساء منها بسبب اختلافها الحضاري، والذي كان لا يزال يترك آثاره في ملابسها وزينتها وطريقتها في التعامل مع كل ما يحيط بها. فكان النبي كثير التردد عليها ما دام مقيمًا في المدينة، وفي أثناء الغزوات كان يتركها وحيدة في العالية حتى يعود .
ويرى جاك تاجر أن تأثير مارية على النبي كان تأثيرًا حسنًا جدًّا؛ فأحب الأقباط من خلالها وأوصى بهم خيرًا، وأنه اطلع على جزء كبير من تفاصيل وضعهم الاجتماعي، ومدى الغبن الواقع عليهم من خلال معاشرته لمارية. وقد زادت مكانتها لديه حينما رزقت بالولد في ذي الحجة من سنة ثمانٍ هجرية بعد حرمانه من الإنجاب لسنوات طويلة تعدت العشرين عامًا، وفقده لابنيه القاسم وعبد الله من السيدة خديجة في طفولتهما الأولى .
وكان ميلاد إبراهيم بعد فتح مكة، فاستخلف النبي صديقه أبا بكر على المدينة المفتوحة، وعاد إلى المدينة. كما بدأت وفود القبائل تهل عليه وتبايعه في المدينة معلنة خضوع الجزيرة العربية كلها لحكم النبي وتوطيد دعائم الدولة الإسلامية .
وحينما جاء أبو رافع، أحد موالي النبي الذين أوقفهم على زراعة العالية، يبشره بالولد فرح فرحًا شديدًا وأعتقه من أسر العبودية، بل أعتق مارية نفسها قائلًا: «أعتقها ولدها ».
وكانت سيرين أخت مارية قد أنجبت هي الأخرى ولدًا لحسان بن ثابت يدعى عبد الرحمن. ويبدو أن طول سنوات حرمان النبي من الأبناء الذكور، رغم كثرة زواجه، وبلوغه سن الستين، قد جعل الفرحة بالمولود تتضاعف، فاحتفل يوم سبوعه احتفالًا كبيرًا بأن «عق عنه بشاة، وحلق رأسه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض »(43).

وكانت زوجة أبي رافع قابلة مارية في الولادة، وقد سميت العالية أو الموضع الذي سكنته مارية في العالية بـ«مشربة أم إبراهيم » ، لأن مارية «تعلقت حين ضربها المخاض بخشبة من خشب تلك المشربة». ويقول ابن شبة في كتاب «تاريخ المدينة المنورة » إن تلك الخشبة معروفة «حتى اليوم»، ويقصد حتى أيام زمانه في القرن الثالث الهجري، ما يبين مدى حفاوة الجميع بميلاد إبراهيم، خصوصًا أن ميلاده جاء بعد اتساع سطوة الدولة الإسلامية وزيادة نفوذ النبي وخضوع القبائل له واتساع الثروة الآتية من غنائم الحرب. وقد «تنافست نساء الأنصار أيتهن ترضعه، وأحببن أن يفرغن مارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمن من هواه فيها »(44).

فاختار النبي مرضعة لابنه ـ على عادة أثرياء العرب ـ وأعطاه لها يعيش معها بعيدًا عن أمه مارية :

فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أم بردة المنذر بن زيد لبيد بن خداس بن عامر وزوجها البراء بن أوس، فكانت ترضعه وكان يكون عند أبويه في بني النجار، ويأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بردة فيقيل عندها (45).

والمرأة العربية التي تدفع وليدها إلى مرضعة تعتبر ذلك من علامات قدرتها وعلو شأنها وثراء أسرتها، أما الفلاحة المصرية فقد تعودت أن تنشئ رضيعها بين أحضانها، وتوفر له كل عوامل الاستقرار والحب. ومارية الفلاحة القبطية الغريبة عن جميع من حولها، حينما تنجب طفلًا فهي تتمنى أن يعوض غربتها ووحدتها. ومع ذلك فقد انتزعوه من أحضانها وأعطوه لغريبة تحل محل أمه. تُرى كيف كانت مشاعر مارية في ذلك الحين؟ وكيف تعاملت مع هذا الوضع؟ هذا ما لا تجيبنا عنه المصادر التاريخية التي لم تلتفت إلى مشاعر الجارية الغريبة كشأن العرب المحيطين بها .

أما النبي فكان يرى ذلك عاديًّا وطبيعيًّا، وكان فرحًا بابنه الذكر، ويكثر الذهاب إلى بيت المرضعة ويقيل ـ أي يقضي فترة القيلولة ـ عندها ويضع إبراهيم في حجره ويلاطفه، وأحيانًا يحمله على يديه ويخرج به، ويروي الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت :

دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ابنه إبراهيم يحمله، قال: «انظري إلى شبهه بي»، قالت عائشة: «أرى شبهها» ـ تقصد مارية ـ قال: «أما ترين بياضه ولحمه؟»، قالت: «من قصر عليه اللقاح ابيضَّ وسمُن »(46).

وكان النبي قد أوقف قطعة من الغنم لمارية وإبراهيم يستفيدان من لبنها «فكان جسمه وجسم أمه مارية حسنين»، كما يقول ابن سعد (47).

ومن المعروف أن النبي كان يملك عددًا من اللقاح وعددها عشرون ترعى في مكان كثير الزرع يسمى بالغابة. وقد خصص النبي لكل زوجة من زوجاته لقحة (ناقة حلوب)، وكانت لقحة عائشة تدعى «السمراء»، ولقحة أم سلمة تدعى «العريس ».

فلم تكن لقحة مارية وابنها بشيء فريد إذن حتى يثير غضب الزوجات اللاتي يثرن ضد غريمتهن بلا سبب واضح أو منطقي، فما بالنا إذا كانت هذه الغريمة هي أم الولد في بيئة تقدس الأبناء الذكور؟

لكن فرح النبي بإبراهيم لم يدم، حيث مرض الطفل في عامه الثاني، وحضرته الوفاة وهو لم يكمل رضاعه بعد. فهل أصابه مرض حمى الملاريا، خصوصًا أن مياه السيول كانت تتراكم في المدينة

في هذا الوقت «وتكوِّن مستنقعات تؤدي إلى انتشار البعوض الناقل لحمى الملاريا »(48) ، أم كانت وفاته بسبب مرض آخر؟
ويقال إن النبي حينما بلغه نبأ مرض إبراهيم أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف وانطلق إلى النخل الذي فيه ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه، فأخذه فوضعه في حجره ثم بكى. وقد هرعت سيرين هي الأخرى إلى أختها مارية حينما سمعت بنبأ مرضه، فتروي عن ذلك وتقول: «حضرت موت إبراهيم فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما صحت أنا وأختي ما ينهانا، فلما مات نهانا عن الصياح »(49).
فهل كانت مارية وسيرين تصيحان على إبراهيم بالقبطية أم بالعربية؟
أم اختلطت الأصوات لدى الأم الثكلى الآتية من أعماق الصعيد المصري، وفيه تعبر الثكلى عن حزنها بالعديد الحار، وتلطم الخدين، وتحل الشعر، وتتمايل مع اهتزازات إيقاع العديد؟
وسرعان ما انتهت مراسم دفن إبراهيم بالبقيع، وعادت مارية ذاوية إلى العالية... وحيدة وحدة مركبة، وحزينة إلى ما لا نهاية بعد فقد وحيدها .
بينما عادت سيرين إلى حياتها السابقة في بيت حسان بن ثابت مع ابنها عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. وقد امتدت حياة عبد الرحمن بن سيرين بعض الوقت في بلاد العرب، وأنجب ابنيه سعيد وإسماعيل، اللذين قتلا بأيدٍ عربية في وقعة الحرة عام 63هـ أثناء النزاع العربي-العربي على الثروة والنفوذ، وفيها هاجمت جيوش يزيد بن معاوية المدينة لإجبار أهلها على إعطاء البيعة ليزيد. فقتل في هذا اليوم ألف وسبعمائة من العرب، ومن ضمنهم سعيد وإسماعيل، ابنا عبد الرحمن بن ثابت، وانقطع بذلك نسل سيرين القبطية من العرب (50).
وبعد وفاة إبراهيم طلق النبي الشنباء بنت عمرو الغفارية، وكان قد تزوجها قبلها بعدة أيام ولم يدخل بها لأنها حاضت «حين دخلت عليه، ومات إبراهيم قبل أن تطهر، فقالت لو كان نبيًّا ما مات أحب الناس إليه... فسرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم »(51).
وفارَق النبي الحياة في الثالثة والستين من عمره، وترك مارية شابة صغيرة السن، ولم يذكر لنا المؤرخون عمرها على وجه التحديد، ولكن بالحساب المنطقي لحياة جارية صغيرة جميلة أهديت إليه في ريعان صباها، بينما كان النبي في الثامنة والخمسين أو نحوها، وعاشت في يثرب منذ أواخر العام السابع للهجرة، ثم فارقها النبي في العام الحادي عشر بعد مرور حوالي خمسة أعوام أو أقل على الحياة معه، وتركها للوحدة المطلقة والغربة الشاملة، حيث يطبق عليها قانون عدم الزواج مرة أخرى كشأن سائر زوجات النبي، وإن لم ترقَ إلى مرتبة الزوجة، وأمرها القيمون على الأمر بأن تعتد بعد وفاة النبي، فاستبرأت ثلاث حيضات متتالية، ثم عاشت وحيدة فحضرت زمن خلافة أبي بكر الذي ينفق عليها من بيت المال، دون أن نعرف مقدار عطائها على وجه التحديد، ثم أدركتها الوفاة زمن الخليفة عمر بن الخطاب في المحرم عام ستة عشر من الهجرة، ويقال إن عمر «كان يحشر الناس بنفسه لشهود جنازتها »(52) ، فماتت في ريعان شبابها وهي لم تتجاوز العقد الثالث من عمرها على أكثر تقدير، والأرجح أنها كانت تقترب من عائشة في العمر .
بينما عمرت بقية نساء النبي، وعشن حتى بلغن الشيخوخة، وشهدن أحداث تطور الدولة العربية واتساعها شرقًا وغربًا، فتوفيت أم حبيبة عام أربعة وأربعين هجرية، أي بعد وفاة مارية بحوالي

ثمانية وعشرين عامًا وبعد وفاة النبي بحوالي ثلاثة وثلاثين عامًا. وتوفيت حفصة بنت عمر عام واحد وأربعين، بعد وفاة النبي بحوالي خمسة وعشرين عامًا .
وتوفيت عائشة عام سبعة وخمسين هجرية، وكانت سنها حين حضرتها الوفاة خمسًا وستين سنة، وشاركت في أحداث كثيرة، وشهدت الفتوحات ونالت العطاء لأكثر من ستة وأربعين عامًا .
وكانت هي أقرب الزوجات إلى عمر مارية على وجه التقريب، فعاشت أكثر منها بحوالي واحد وأربعين عامًا، بينما كانت أم سلمة آخر زوجات النبي اللاتي أدركتهن الوفاة، حيث توفيت عام واحد وستين هجرية (53).
وموت مارية المبكر جدًّا يرجع لأسباب كثيرة: ربما المرض، ربما الوحدة، ولكن السبب الأكثر تأكيدًا هو الإحساس بالغربة الشاملة. وقد دفنت بالبقيع بعيدة عن بلادها مئات الكيلومترات، دون أن تسمع عن فتح المسلمين لمصر، وطنها الأول .
وإن قدمت هي وأختها شرارة الروح المصرية التي حلت ببلاد العرب بعض الوقت، فبينت مدى الاختلاف بين الحضارتين في السلوك والعادات والتكوين الثقافي .
ولو اهتم المؤرخون قليلًا بمتابعة تفاصيل هاتين المصريتين نصف اهتمامهم بمتابعة سير الزوجات العربيات الحرائر، لكانت الصورة أكثر وضوحًا، وتفاصيل الغربة والوحدة أكثر اتساعًا ودقة. مما يجعل الموت المبكر نتيجة طبيعية وحتمية في ظل تلك المفارقات العميقة .

الفصل الثاني

وقائع الفتح وسير الفاتحين

«ذكر أهل العلم والمعرفة والرواية أنه دخل مصر في فتحها ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة رجل ونيف »(54). كانوا يمثلون قمة الصفوة العربية، ومن خلفهم آلاف الجند الممثلين للقبائل المختلفة: العدنانية منها؛ أو ما يسمى بـ«عرب الشمال»، والقحطانية الأصول؛ أو ما يسمى بـ«عرب الجنوب ».

وتتباين هذه القبائل من حيث الثراء والمكانة، فعرب الشمال كانوا يتيهون على عرب الجنوب بالمبالغة في الأحساب والأنساب وحيازة شرف الإحاطة بالكعبة، واحتكار تجارة شبه الجزيرة العربية والثراء، ثم ظهور الدين الجديد بينهم. وكما يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: «إن أهل مكة كانوا آمنين يَغزُون الناسَ ولا يُغزَون، ويَسبُون ولا يُسبَون، ولم تُسبَ قرشيةٌ قَطُّ فتوطأ قهرًا». وظلت قريش تتيه على ما عداها من القبائل، وتحتل موضع السيادة بينهم قبل وبعد الإسلام .

وكان الجيش العربي القادم لفتح مصر يتكون من وحدات قبلية تسمى ألوية. ويرفع كل منهم رايته مختلفة اللون والشكل عن رايات القبائل الأخرى، ومن القبائل ما يكون على ميمنة الجيش، ومنها ما يكون على ميسرته، ثم يتوحد الجميع تحت راية القلب حول القائد العام للجيش .

وجاء من عرب الشمال في هذا الجيش ما يمثل حوالي ثلاثين قبيلة، تضم ثلاثين بطنًا، من أبرزها: قريش، وفهر، وعامر، وغفار، وثقيف، الذين احتل كبارهم مواقع أمراء الجيش وقواده، وخرج منهم بعد ذلك أصحاب الشرط والقضاة ورؤساء الدواوين والقادة الذين حكموا مصر في العقود التالية للفتح .

ولم تبعث بعض القبائل الشمالية صاحبة السيادة والنفوذ سوى بأعداد قليلة من الرجال لا يكاد عددهم يكفي لتشكيل لواء مستقل للقبيلة كما هي العادة. ومن هذه القبائل قليلة التمثيل: قريش نفسها، والأنصار، وخزاعة، ومزينة، وأشجع، وثقيف، ودوس، وعبس، وجرش من كنانة.

ورفض كل وفد من هؤلاء الشماليين الأثرياء الانضمام تحت راية قبيلة أخرى، حتى لا تنقص مكانتهم ويصبحوا تابعين لغيرهم، فرأى عمرو بن العاص القائد العام ـ بذكائه السياسي ـ للتغلب على هذه العقبة الداخلية في بناء الجيش أن يبادر إلى «جمعهم معًا وجعل لهم رايته هو بصفته القائد العام »(55).

وكان عمرو يفضل استخدام راية سوداء اللون على غرار أول راية أعطاها له النبي في غزوة ذات السلاسل، ومن يومها ظلت راية عمرو سوداء، فرفعها في وقعة قيسارية وفي اليرموك وحروب الشام وفي معركة صفين .

أما ملابس عمرو ـ القائد العام ـ فيصفها الواقدي في «فتوح الشام» يوم وقعة قيسارية بقوله: «عليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء، وقد أدارها على رأسه كورًا وأرخى لها عذبة، وفي وسطه منطقة وقد تقلد سيفه واعتقل رمحه»، وأنه ظل على تلك الهيئة حتى وهو متوجه إلى أمير الروم في مباحثات ثنائية، وحينما رآه الترجمان ضحك، فقال له عمرو : «مِمَّ تضحك يا أخا النصرانية؟». قال: «من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح، ما الذي تصنع به ولمَ تحمله معك وما تريد حربًا؟»، قال عمرو: «إن العرب حمل

السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم، وإنما حملت السلاح معي استظهارًا ولعلي أن ألقى عدوًّا فيكون ذلك حصنًا من عدوي وأحامي به عن نفسي »(56).
وكانت صفة عمرو بن العاص: «قصيرًا عظيم الهامة ناتئ الجبهة واسع الفم عظيم اللحية، عريض ما بين المنكبين عظيم الكفين والقدمين »(57).
أما عن بقية الجيش، فسنجد الجنود ذوي الأصول القحطانية، والذين شكلوا قاعدة الجيش من الجنود المقاتلة، وبلغوا حوالي ثلاثة أضعاف عرب الشمال ذوي الأصول العدنانية، فجاء منهم ما يمثل حوالي إحدى وستين قبيلة يتفرع منها إحدى عشرة ومائة بطن من أبرزها: الأزد، وتجيب، ولخم، وجذام، والمعافر .
والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الجنوبيين كانوا من العرب المرتدة، الذين انشقوا على الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي، رافضين دفع الزكاة، وحاربهم عليها أبو بكر وأحرق من زعمائهم حتى أخضعهم مرة أخرى. وكان أبو بكر يرفض انضمام أهل الردة إلى جيوش الفتح، ثم رأى بعد ذلك أن يسمح لهم بالانضمام إلى جيوش الفتح ووضعهم في أتون المعارك الخارجية. فتح عمر بن الخطاب هذا الباب واسعًا حتى يشغلهم عن الفتن والقلاقل الداخلية، ويعطيهم فرصة الحصول على بعض المنافع وتغيير وضعية الفقر المدقع التي كانت تحاصرهم، وخصوصًا قبيلتي عك وغافق، أصحاب الكثرة العددية في جيش عمرو بن العاص. كما انضم إلى جيش الفتح عدد من الصعاليك ـ قطاع الطرق ـ الذين أسلموا، وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري، أحد صحابة النبي .
وقد انضم إلى الجيش العربي في طريقه من الشام وفلسطين إلى مصر عدد من البدو، وبعض الفرس، وبعض الروم المهزومين، وعرب الأنباط الذين قاموا بدور الأدلاء والتراجمة والمراسلين .
وهناك في أقصى الطرف المنسي من الصورة، في مؤخرة الجيش، كانت الجمال تتهادى، وفوقها هوادج النساء من زوجات القادة والأمراء ورؤوس القوم، ومن خشي أن يترك امرأته هناك مع القبيلة، أو في مدن الصحراء الناشفة .
جاءت العرب بالظعن ـ كما يقولون ـ كعلامة من علامات عزمهم على القتال حتى الموت دفاعًا عن الزوجات والحريم، أو الانتصار على العدو .
وكانت عادة اصطحاب النساء في الحرب عادة عربية قديمة لتحميس الرجال وقضاء حاجاتهم العاجلة، وظلت تلك العادة سارية في غزوات النبي وبعد الإسلام (58).
وفي جيش فتح مصر جاءت رايطة بنت منبه بن حجاج القرشية (59) زوجة عمرو بن العاص، التي لا نجد ذكرها سوى أثناء حصار الإسكندرية، حينما اشتد القتال، وقال بعض المسلمين يحذرون عمرو: «إن العدو قد غشوك ونحن نخاف على رايطة»، فقال: «إذن يجدون رياطًا كثيرة »(60).
فعمرو يقرر أنه في حالة انتصار الرومان على العرب فإنهم سيجدون رايطات كثيرات مثل زوجته، مما يدل على وجود عدد من زوجات القادة العرب اللاتي جئن بصحبة الجيش، مثل بسيسة بنت أبي يشرح زوجة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وزوجة معاوية بن حديج، بالإضافة إلى خولة بنت الأزور الكندية، ومزروعة بنت عملوق الحميرية، اللتين يقول عنهما الواقدي إنهما قد «أبلتا بلاء حسنًا في فتوح الشام ومصر »(61).

وسار الجيش في طريق غزة-رفح-العريش-الفرما، ومنها إلى الصالحية-بلبيس وبها حامية رومانية بقيادة «Arteon» الذي سماه العرب «الأرطبون»، وبعد قتال شهر استولى عمرو على المدينة، ومنها انطلق إلى رأس الدلتا فوصل إلى قرية تسمى «تندونباس» ويسميها العرب «أم دنين» واستولى عليها، وحاصر العرب حصن بابليون، ولما طال أمر الحصار أحس عمرو أنه في حاجة إلى مدد فأرسل إلى عمر بن الخطاب، وجاء المدد بقيادة أربعة من كبار القادة هم الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد الأنصاري، والمقداد بن الأسود .

وكانت صفة الزبير بن العوام «فيما يزعمون، أبيض حسن القامة، ليس بالطويل، قليل شعر اللحية، أهلب كثير شعر الجسد »(62).

أما عبادة بن الصامت، فكان طويلًا، وقيل إن طوله عشرة أشبار، شديد السواد .

وكانت صفة مسلمة بن مخلد، سمينًا كثير اللحم ثقيل البدن، وقد قال عنه عمرو بن العاص في إحدى المعارك: «ما بال السته الرجل الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال؟ »(63).

واشتد ساعد عمرو بهذا المدد، فشدد الحصار وخرج الروم للقائه عند هليوبوليس، وانتصر العرب عليهم، ثم استطاعوا الاستيلاء على حصن بابليون، ومن ثم انطلقوا إلى الإسكندرية ـ عاصمة الدولة الرومانية ـ عبر قرى ومدن مصر السفلى، وفتح عمرو في طريقه طرنوط، ثم نقيوس، ثم سلطيس، ثم الكريون، وجاء دور الإسكندرية .

واستمرت أعمال الفتح حوالي ثلاثة أعوام من 18هـ/639م وحتى تسليم الإسكندرية في 16 شوال 21هـ/17 سبتمبر 642م .

وبدت صور اللقاء للوهلة الأولى مختلة التوازن، متنافرة الأطراف بين الجيش العربي المغطى بغبار الصحراء وآثار القتال المتواصل، والفرسان النحيفين شعث المظهر والجياد النافرة، ويقال إن صفة الجنود اليمنيين المشكلين لقاعدة الجيش العربي أنهم كانوا نحيفين، ناتئي العظام، وتغلب عليهم سمات تواضع المظهر وفقر الثياب .

بينما كان الجانب الآخر من الرومان يسرف في الزينة والتأنق والترهل. أيضًا يأكل الخلاف قادتهم، ويقاتل بعضهم بعضًا، ويختفون خلف الحصون، وقد فضل بعضهم الفرار ليلًا تاركين جنودهم للموت .

وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم إدارية، تستقل كل منها بحاميتها العسكرية وقائدها المستقل، مما يفسر روح التطاحن الشديد بين القادة، وصمود بعضهم للقتال، وفرار البعض الآخر .

وفي طريق الجيش العربي المنطلق من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى التي تليها كانت جموع الشعب المصري العزل من السلاح ترقب بحذر وهلع أخبار المعارك الدائرة بين العرب والروم، ويكاد الخوف من الجانبين أن يعتصرهم وذكرى حروب الروم والفرس لم تجف دماؤها بعد، وقد فضلت بعض قرى أسفل مصر الانضمام إلى جيش الروم، تقاتل معهم جيوش الغزو العربي .

*

هكذا بدت الصورة الخارجية لعناصر الصراع لحظة الفتح العربي لمصر، وتحتها آلاف التفاصيل والتشابكات والتنافرات التي سنحاول الاهتمام بتجميعها وترتيبها، علها تلقي الضوء على بعض المسكوت عنه في كتب التاريخ، وما تفرع عنها من دراسات ونتائج أخذت صفة القداسة والإطلاق على مرور الزمن . وتحكي بعض المصادر التاريخية أن حديثًا جرى بين عمرو بن العاص وأحد الرومان في الإسكندرية، حينما دعا هذا الروماني قادة العرب إلى ما يشبه المناظرة :

قال عظيم منهم: «أخرجوا إليَّ رجلًا أكلمه ويكلمني»، فقلت: «لا يخرج إليه غيري»، فخرجت معي ترجماني، ومعه ترجمانه حتى وضع لنا منبران فقال: «ما أنتم؟»، قلت: «نحن العرب ومن أهل الشوك والقرظ ونحن أهل بيت الله، كنا أضيق الناس أرضًا وشره عيشًا، نأكل الميتة والدم ويغير بعضنا على بعض، كنا بشر عيش عاش به الناس، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ شرفًا ولا أكثرنا مالًا، قال: «أنا رسول الله إليكم»، يأمرنا بما لا نعرف وينهانا عما كنا عليه، فشنعنا له وكذبناه ورددنا عليه حتى خرج إليه قوم من غيرنا فقالوا: «نحن نصدقك ونقاتل من قاتلك»، فخرج إليهم وخرجنا إليه وقاتلناه فظهر علينا، وقاتل من يليه من العرب فظهر عليهم، فلو تعلم ما ورائي من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبقَ أحد إلا جاءكم »(64).
وتكمن المفارقة في هذا الحديث الطويل في إبراز حال أناس يعانون ضيق الموارد أمام أناس يتيهون ببذخ العيش، فلو علم هؤلاء العرب بما تتمتع به مصر من الخيرات لما بقي أحد منهم إلا وجاء يعب من خيراتها. وليس معنى ذلك الإقرار بأن كل العرب كانوا فقراء مدقعين قبل الفتوحات العربية؛ بل على العكس فقد كان منهم التجار الأغنياء؛ وجهاء قريش وأعيانها مسرفو الثروة، مالكو العبيد والقطعان والإبل والعطر والجلود والحرير، أصحاب قوافل التجارة إلى الشمال والجنوب، وهمزة الوصل بين بضائع الشرق من التوابل والبخور وبضائع الغرب من النسيج، أصحاب الروح المرنة، والثقافة المطلعة على تطورات عصرهم. وقد أسلم هؤلاء الوجهاء متأخرًا قبل فتح مكة بقليل أو بعدها، وهم من عفا عنهم النبي وسماهم بالطلقاء، وبعد عداوتهم المفرطة للإسلام ـ دين المستضعفين ـ في البداية، أصبحوا هم سادة الدولة الجديدة، كما كانوا سادة القبائل القديمة، وراكموا في الوضع الجديد أضعاف ما راكموا قديمًا .
وعمرو نفسه، قائد الجيش العربي لفتح مصر، والذي أسلم متأخرًا بعد صلح الحديبية، كان ابنًا لرجل من أهم أثرياء قريش، ويحكى أنه اشترى قبل إسلامه حلة بمائة بعير، «وأقبل يخطر فيها حتى أتى بني مخزوم، فناداه عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي وقال: أتبيع الحلة يا عمرو؟»، وقد كان بين الرجلين منافسات عديدة على السيادة والفتوة، فغضب عمرو وأنشد شعرًا يهجو فيه عمارة، فغضب عمارة وقال: «يا عمرو ما هذا التهور؟ إنك لست بعتبة بن ربيعة، ولا بأبي سفيان بن حرب، ولا الوليد بن المغيرة، ولا سهيل بن عمرو، ولا أبي بن خلف»، وكان كل هؤلاء من أغنياء قريش وسادتها (65) ، فرد عليه عمرو بفصاحته المعهودة بأنه إن لم يكن أحد هؤلاء فقد جمع خير ما فيهم (66).
وثراء قريش كان يقابله فقر شديد تعاني منه القبائل العربية الأخرى، وخصوصًا القبائل ذات الأصول الجنوبية، والتي نزح بعضها إلى بادية الشمال بحثًا عن الرزق، وهي من يسميها عمرو بـ«أهل الشوك والقرظ»، وإليها تعود غالبية جيشه .
وقد أدرك عمرو منذ بداية فتح مصر فداحة الفرق بين ملابس رجاله وملابس جيش الرومان، فحاول تغيير الصورة وإخراجها من جديد بأن فرض على المصريين إلى جانب ما يؤدونه من الجزية والخراج وواجب الضيافة والمحاصيل العينية، أن يقدموا «لكل رجل من أصحابه دينارًا وجبة وبرنسًا وعمامة وخفين »(67) ، ويؤيد البلاذري الرواية ذاتها بقوله: «وأحصى المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل منهم جبة صوف وبرنسًا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام. أو عدل الجبة الصوف ثوبًا قبطيًّا »(68).

بعد أن تهندم العرب بثياب أهل مصر غالية الثمن، جاء نفر من القبط ـ وغالبًا هم من الزعماء ـ يستأذنون عمرو في الرجوع إلى قراهم وأهليهم فسألهم عمرو: «كيف رأيتم أمرنا؟»، وبحكمة المغلوب على أمره قالوا: «لم نرَ إلا حسنًا»، فقال لهم: «إذن لا حاجة لنا الآن بصنيعكم أعطونا عشرين ألف دينار »(69).
وأضيف عبء هندمة الفارس العربي إلى عبء تأمين طعامه الذي يقضي به قانون ضيافة الفارس مدة ثلاثة أيام في أي مكان ينزل به، وتوفير كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب وإقامة، وهو الحق ذاته الذي كان الرومان يفرضونه لأنفسهم من قبل، وكان الفلاح القبطي يشكو منه مر الشكوى .
*
وتنبئنا تلك الفوارق الكبيرة بين القادة والجنود في الأصل القبلي وفي نوع الملابس، وفي غيرهما، أن صورة المساواة الكاملة التي وردت عدة مرات في كتب التاريخ العربي على لسان بعض الرومان ـ كما في قولهم: «أميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد »(70) ، أو فيما وضعوه على لسان المقوقس، أن العرب «ليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا قدر بلعة العيش من الطعام واللباس »(71) ـ هي صورة تحتاج إلى إعادة نظر، لأنها تتناقض مع كثير من حوادث النزاع داخل الجيش العربي الناتجة عن صراع العنجهيات القبلية، ورغبة كل قبيلة في الاستئثار لنفسها بدرجة أعلى من الأخرى، وخصوصًا بالنسبة لقبيلة قريش وقادتها الأقل عددًا والأكثر استحواذًا على المغانم، وقد أدى هذا الوضع إلى ثورة الجنود عدة مرات عليهم .
ويذكر المؤرخون أنه قد حدث سوء تفاهم في أثناء الهجوم على حصن بابليون بين الزبير بن العوام القرشي، ابن عمة النبي وقائد جيش المدد الذي جاء لإنقاذ جيش عمرو بعد فترة طويلة من الحصار، وبين شرحبيل بن حجية المرادي، من قبيلة مراد التي كانت تحتفظ بطابع «بدوي نموذجي على الرغم من أنها كانت تجاور حضارة جنوبي الجزيرة، ويبدو أن بلادهم الجرداء المجدبة كانت مسؤولة عن سمعتهم السيئة وكونهم قطاع طرق »(72).
وكانوا من أهل الردة المهزومين الذين انضموا إلى جيوش الفتوحات مؤخرًا، وحينما حدث النزاع بين الزبير وشرحبيل بن حجية المرادي، الذي كان قد نصب سلمًا آخر على حصن بابليون بخلاف سلم الزبير بن العوام، وكان من السباقين إلى اقتحام الحصن، تنازعا على شرف بداية الاقتحام ومن يكون صاحبه .
ورأى الزبير أنه القائد وأنه أول المقتحمين ـ وظل يفاخر بذلك حتى إنه كان يعلق في قصره بالمدينة بعد ذلك ـ وأنه ليس من حق هذا اليماني أن ينازعه شرف جسارة الاقتحام. وتصاعد الخلاف بينهما حتى «عرض عمرو على الزبير أن يستفيد من شرحبيل الذي أهانه، ولكن الزبير استكبر قائلًا: «أمن نغفة من نغف اليمن أستفيد يا ابن النابغة؟ »»(73).
والنغفة هي الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم، مما يعكس نظرة شديدة التعالي والعنصرية تغلف نظرة القائد القرشي إلى جندي من الجنود يمنية الأصل، حتى إنه رأى أن فكرة القصاص تضعه في مرتبة قريبة منه، وهو ابن الشرفاء، فرفض فكرة القصاص مكتفيًا بوضعه مع أشباهه من دود اليمن المكوِّن لغالبية جيش الفتح لمصر .
وحدث نزاع آخر بين عمرو بن العاص وبين أحد الجنود البلويين فأظهر الجندي سخطه في وجه عمرو بن العاص، وصاح فيه عمرو: «اخرس فإنما أنت كلب»، ورد الرجل قائلًا: «إذن أنت

أمير الكلاب »(74).
وبين التشبيه بالدود والتشبيه بالكلاب مارس القادة من عرب الشمال وخصوصًا من قريش نفوذهم على جنود الجنوب الفقراء النحيلين ناتئي العظام، والحالمين بتأمين القوت النادر الشحيح في بلادهم البعيدة . وظلت قريش تتمتع بمركز قوي ممتاز في السياسة والحكم، حتى إنها احتلت منصب الوالي بنسبة أعلى من كل القبائل الأخرى .
وأثناء تقسيم مدينة الفسطاط وتخصيص خطة لكل قبيلة «تنافس الناس في المواضع، فولى عمرو بن العاص على الخطط معاوية بن حديج وشريك بن سُمِّي وعمرو بن قحزم وجبريل بن ناشرة المعافري، فكانوا هم الذين نزَّلوا القبائل وفصلوا بينهم »(75).
وربما كان استخدام عمرو بن العاص لرجال جنوبيين مثل معاوية بن حديج وجبريل المعافري هو نوع من الذكاء السياسي لضمان سرعة امتصاص الغضب العام وتهدئة الموقف، ومع ذلك فقد راعت تلك القيادات الجنوبية منزلة القائد العام ورجاله، فاختطت لبني سهم وقريش قريبًا من نقطة الارتكاز بجوار الجامع .
وفي مناطق الارتباع اختار عمرو المناطق وافرة الخيرات القريبة من الفسطاط لنزول القبائل الشمالية، والمناطق الأقل وفرة والأكثر بعدًا للقبائل ذات الأصول الجنوبية .
وقريش التي اختطت حول خطة عمرو ومسجده بالفسطاط أخذت مرتبعها في «كورة منف ووسيم القريبة من الفسطاط حيث كان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يرتبعون »(76).
أما بالنسبة لديوان العطاء فقد تم ترتيبه في العموم وفق القرابة من النبي، الأمر الذي وضع قريشًا على رأس المنتفعين بهذا الوضع، وتلتها العدنانية، ثم جاءت القبائل ذات الأصول القحطانية في مؤخرة ترتيب الديوان والعطايا . وقد حدثت عدة خلافات أثناء توزيع الغنائم، حينما تمسك رجل من قبيلة مهرة اليمنية بأن ينال نصيبه بعد فتح الإسكندرية تمسكًا أوشك أن يفتح باب النزاع واسعًا مع قريش، لولا أن عمرو بن العاص تدارك هذا الموقف أيضًا بدهائه السياسي، وفكر أن يلجأ إلى طريقة لتقسيم الثروة تختلف في ظاهرها عن المتعارف عليه بين العرب، فأقر نظام الروم المعمول به قبل الفتح في جمع الضرائب والخراج. ورفض مبدأ تقسيم الأرض بين الفاتحين، وتمسك برأيه أمام تعنت الزبير بن العوام الذي كان يريد تقسيم كل الغنائم فيئًا، كما قسم رسول الله غنائم غزوة خيبر، الأمر الذي يحفظ لقادة قريش خُمس أرض مصر وخُمس مالها وخُمس سبيها .
ورفض عمرو تلك الفكرة لأنها ستفتح باب الشقاق واسعًا، وتمسك بقانون الرومان الذي يعتبر الأرض كلها وحدة واحدة يدفع عنها المزارعون الخراج، ومختلف أنواع الضرائب الأخرى، وكان هناك ديوان كامل ينظم أمر الأرض وضرائبها .
وحينما عرضوا الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب جاء قراره موافقًا لرأي ابن العاص، واشترطوا رضا الزبير حينما «صولح على شيء رضي به »(77).
وأراد بعض القادة تقسيم سلطيس ومصيل وبلهيت، وهي ثلاث قرى انضمت إلى جانب الروم، وقاتلت العرب قتالًا شديدًا، لكن الخليفة والوالي رفضا تلك النظرة الضيقة، ونظرا للفائدة الأبعد في إقرار القبط على جباية الروم، وفي ترك الأرض حتى «يغزو منها حبل الحبلة »(78).
وفي بيوت الإسكندرية وقصورها رأى عمرو أن تكون «أخائذ»، بمعنى أن كل من أخذ منزلًا صار له ولعائلته، فازداد تنازع الجنود على هذه المساكن التي بلغت حوالي أربعة آلاف دار

مُحكمة البناء مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها كان يوجد حمام تختص به، «فكان الرجل يأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك فيبتدره فيسكنه »(79).
وأراد عمرو أن تكون هناك علامة لمنع الخلافات بأن يركز الرجل رمحه في الدار وبذلك تصير له دون غيره. لكن هذا الاقتراح لم يضع حدًّا للنزاعات الشديدة، «فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه في منزل منها، ثم يأتي الآخر فيركز رمحه في بعض بيوت الدار فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث »(80).
*
انتهى الزهد العربي إذن مع أولى خطوات الفتح ـ هذا إذا سلمنا بوجوده من الأصل ـ ولم تعد الأقوال الموضوعة على لسان المقوقس وغيره من الرومان، عن زهد العربي في الدنيا واكتفائه ببلعة العيش من الطعام واللباس، ذات معنى، في ظل الأحاديث التي سترِوى بعد ذلك عن غرق القادة في مظاهر الأبهة والعظمة .
ويحكى أن عمرو بن العاص كان يحتفظ لنفسه بمظاهر أبهة الإمارة بأن «يلبس الغالي من الثياب والحرير والموشى بالذهب ويتخذ من الحرس والحجاب عددًا »(81).
ويقول بجير بن ذاخر المعافري :
جئت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة بهجير، وذلك آخر الشتاء بعدة أيام يسيرة، فأطلنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فرعبت ـ تملكني الخوف ـ وقلت: «يا أبت من هؤلاء؟»، فقال: «يا بني هؤلاء أصحاب الشرط»، فأقام المؤذنون للصلاة وصعد المنبر عمرو (82).
ويصف ذاخر المعافري هيئة عمرو التي رآه عليها في ذلك اليوم، فيقول: «رأيت رجلًا ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها العقيان (83). تتألق عليه حلة حمراء وعمامة وجبة »(84).
والوالي الذي يحيط نفسه بموكب من الحجاب والحرس ورجال الشرطة ـ حدًّا يفزع الناس حتى داخل المسجد ـ ويرتدي الحرير المشغول بالعقيان، لا يمكن الحديث عن زهده أو مساواته بجنوده أو غير ذلك من صور المساواة الزائفة .
وتدل الرواية السابقة على المفارقة الشاسعة بين أبهة القائد العربي القرشي ومن يحيط به من القادة ورجال الحاشية، وبين تواضع مكانة بقية جند الجيش العربي ذوي الأصول اليمنية الفقيرة .

العرب يتناحرون على الثروة

«تلك الأمة تحب الذهب والفضة والنساء والخيل ولذات الحياة »

من مخطوطة قبطية قديمة لخصت طبيعة الحكم العربي لمصر

وثار كثير من الفتن والقلاقل فيما بين العرب، ونظر أصحاب العطايا الأقل إلى من يستحوذون على منابع الثروة، ويذكر البلاذري نبذة عن مدى التفاوت في تقسيم العطاء، فيقول: «لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحدًا عن ثلاثمائة »(85).

وبالطبع يكون التفاوت كبيرًا جدًّا بين مقدار الألفين ومقدار الثلاثمائة، هذا بالإضافة إلى مصادر الثروة الأخرى التي أتيحت للقادة والحاشية المحيطة دون غيرهم من الرجال .

وقد استخدم عمرو بن العاص هذا النفوذ في جمع ثروة طائلة؛ حتى بعث الخليفة ابن الخطاب سأله عن مصدرها بقوله: «بلغني أنك فشت فاشية من خيل وإبل، فاكتب إليَّ من أين لك هذا المال »(86).

ورد عليه عمرو بن العاص: «أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لي وأنه يعرفني قبل ذلك، ولا مال لي، وإني أعلم أمير المؤمنين أني ببلد السعر فيه رخيص وأني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس، وفي رزق أمير المؤمنين سعة »(87).

وعمرو يعترف في الخطاب السابق بالثروة التي حلت عليه بعد حكم مصر، فمن أين جاءت؟ هل كان يزرع قطعة أرض، أم كان الأقباط يزرعون له أرض مصر كلها؟

ولم يصدق ابن الخطاب حجج عمرو، وبعث إليه محمد بن مسلمة يقاسمه أمواله، ومعه رسالة عنيفة، يقول له فيها: «إنكم معاشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم الحرام وأكلتم الحرام وأورثتم الحرام »(88). وقاسمه ابن مسلمة كل ممتلكاته، فقال عمرو ساخطًا: «قبح الله يومًا صرت فيه لعمر بن الخطاب واليًا، فلقد رأيت العاص بن وائل السهمي ـ أبا عمرو ـ يلبس الديباج المزركش بالذهب، والخطاب بن نفيل ـ أبا الخليفة ـ ليحمل الحطب على حمار بمكة»، فرد عليه محمد: «أبوك وأبوه في النار، ولولا اليوم الذي أصبحت تذم ـ يعني لولا اليوم الذي عينك فيه ابن الخطاب واليًا على مصر ـ لألفيت نفسك معتقلًا عنزًا يسوؤك غرزها ويسوؤك بكؤها »(89).

ولم يكن ابن الخطاب يطالب عمرو بتقليل حجم الضرائب وعدم جمع الأموال من قبط مصر؛ بل كان يطالبه بزيادة الخراج، والحرص على تحصيل الجزية، وجمع كل ما يستطيع من خيرات مصر، وهو صاحب الكلمة الشهيرة: «أخرب الله مصر في عمران المدينة»، على ألا يحتكر الوالي لنفسه هذه الثروات، بل يبعث بها إلى المدينة موطن الصفوة القرشية الإسلامية، والتي كان ابن الخطاب يحول بينها وبين نزول الأمصار، حتى لا تفسد وتفسد معها الدولة الإسلامية. وكان ابن الخطاب يحرص على جمع ثروات الأمصار في بيت المال الرئيسي، وتوزيعها عليهم حسب منزلة كل منهم .

فسياسة الخليفة كانت تهتم بالصفوة الإسلامية، وسياسة الولاة تنحو إلى الاهتمام بالنفس وبالحاشية المحيطة. ومن هنا كان خلاف ابن الخطاب مع جميع عماله، ومنهم عمرو بن العاص . وقد استمرت ملاحظة عمر للتغيرات التي تطرأ على ابن العاص من جراء إقامته في مصر، وحينما استدعاه إلى المدينة وجده «وقد صبغ رأسه ولحيته بسواد، فقال عمر: من أنت؟ فقال : أنا عمرو

بن العاص، قال عمر: عهدي بك شيخًا وأنت اليوم شاب، قد عزمت عليك إلا ما خرجت فغسلت هذا »(90).
وقد جمع عمرو ثروة طائلة من فترتي ولايته على مصر، ويقال إنه «خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهبًا »(91) ، و«سبعين بهارًا دنانير، والبهار جلد ثور، ومبلغه أردبان بالمصري »(92).
ويقال: «خلف عمرو من العين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر، وضيعته المعروفة بالوهط قيمتها عشرة آلاف ألف درهم (حوالي عشرة ملايين درهم)»(93).
ونجد في كتاب «سير أعلام النبلاء» أن عمرو بن العاص امتلك بستانًا بالطائف يسمى «تعريش الوهط»، أدخل فيه «ألف ألف عود كل عود بدرهم »(94).
ورغم اقتطاع الخلفاء من مال عمرو ـ جريًا على سنة ابن الخطاب ـ فقد ورث ابنه عبد الله ـ وهو أحد ابنيه ـ قناطير مقنطرة من الذهب المصري، فكان عبد الله من ملوك الصحابة، ونجد في كتاب «المُغرب في حلى المَغرب» أن عبد الله امتلك قرية عسقلان بكل ما فيها وما عليها، وهي من حبس عمرو لولده .
والمشهور عن عبد الله بن عمرو أنه زاهد، لم يمنعه زهده من ملكية القرى والديار والأموال، وفي رواية عن سليمان بن الربيع قال: «انطلقت في رهط من نساك أهل البصرة إلى مكة فقلنا لو نظرنا رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحدثنا إليه، فدللنا على عبد الله بن عمرو بن العاص فأتينا منزله فإذا قريب منه ثلاثمائة راحلة». وسأل النساك بدهشة: «على كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو؟ قالوا: نعم هو ومواليه وأحباؤه »(95). ولم يكن آل العاص فقط من ظهرت عليهم علامات الثراء الفاحش، بل شاركهم هذا الوضع الزبير بن العوام ابن عمة الرسول، الذي أصبح يمتلك خطة في الفسطاط، وخطة في الإسكندرية، ودارًا بالكوفة، ودارًا بالبصرة، وإحدى عشرة دارًا بالمدينة، وأرضين فيهما الغابة التي يبلغ ثمنها في ذلك الحين سبعين ومائة ألف دينار، ومن كثرة اتساع ثروته أنه حينما مات وقسمت ثروته على زوجاته الأربع أخذت كل واحدة منهن ألف ألف ومائة ألف (أي مليون ومائة ألف)، وحسب رواية ابن سعد أن ثروة الزبير كانت تقدر بخمسة وثلاثين مليونًا ومائتي ألف دينار. وكان يحلم بأن يكون خليفة للمسلمين، لكنه قتل يوم الجمل دون هذا الحلم .
أما خارجة بن حذافة الذي كان قاضيًا لعمرو، أو كان على شرطته ـ وقتل فيما بعد بدلًا منه ـ فقد ترك أموالًا لا تحصى وموالي وعبيدًا .
ويعلق ابن ظهيرة على هذا الوضع بقوله: «ولم تزل ملوك مصر من عمرو بن العاص وإلى وقتنا هذا يجمع كل واحد منهم أموالًا عظيمة لا تدخل تحت الحصر. وكذا الأمراء والوزراء والمباشرون على اختلاف طبقاتهم كل منهم يأخذ أموالًا لا تحصى في حياته »(96).
ويبدو أن سياسة عمرو بن العاص لم تعجب كل العرب النازحين إلى مصر، خصوصًا بعد أن ركز عمرو عصبيته البشرية والمادية في بني سهم ـ أقاربه من جهة أبيه وممن تحالف معهم .
وكان عمرو كثير الفخر بأبيه العاص بن وائل السهمي القرشي، الذي يقول عنه الألوسي في كتاب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» إن العاص كان من حكام قريش المعدودين .

وبقدر ما كان عمرو يفخر بأبيه، كان المنتقدون له يعيرونه بأمه التي كانت سبية من بني جلان من قبيلة بلي اليمنية وتدعى «النابغة »(97) ، وكانت قد أسرت في إحدى المعارك القبلية (98) ، وكثيرًا ما قال الناس: «لولا أمه لكان عمرو من سادة العرب المعدودين ».
ورغم أن ثلثي جيش الفتح من أصول يمنية، وكانوا أخوال عمرو بن العاص، فإنه كان يفضل آل أبيه ذوي العصبية القرشية في توزيع الثروة، فأنزلهم بأجود الأراضي. وبعد وفاة عمر بن الخطاب، وتولي الخليفة عثمان بن عفان، كثرت شكوى العرب الآخرين ـ من غير أقاربه ـ من ذلك، وجعلوا يعملون عليه، وانتظروا من عثمان أن يقيد صلاحياته، وكما يقول ابن كثير القرشي في كتاب «البداية والنهاية» إن كثيرًا منهم «كانوا محصورين من عمرو بن العاص... حتى عزل ـ أي الخليفة عثمان بن عفان ـ عمرًا عن الحرب وتركه على الصلاة وولى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن أبي سرح »(99).
وفي قول آخر: كان عمرو على الحرب، وابن أبي سرح على الخراج، وأن عمرًا قال ساخطًا: «أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها »(100). ووقع خلاف كبير بينه وبين ابن أبي سرح «حتى كان بينهما كلام قبيح فأرسل عثمان فجمع لابن أبي سرح جميع عمالة مصر، خراجها وحربها وصلاتها، وبعث إلى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك، فاقدم إليَّ، فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشر كبير »(101).
وانفتح باب الفتنة الكبرى، وكان أحد أسسها الهامة: الفوارق الصارخة بين ثراء الصفوة واحتكارها لمواطن المال والنفوذ، في مقابل الانخفاض النسبي لشأن العرب ذوي الأصول اليمنية، وسياسة عثمان بن عفان وابن أبي سرح، وزادت النار اشتعالًا لأن أخا الخليفة من الرضاعة بالغ في التضييق على أتباع عمرو من جانب، والعرب اليمنية من جانب آخر. وقد ذكر المؤرخون قتل «عائذ بن ثعلبة البلوي» اليمني في البرلس عام 35هـ بأيدٍ عربية دون ذكر أسباب وتفاصيل الحادث. كما غالى في جمع الضرائب من القبط وإغراق حاشيته وحاشية الخليفة في مجتمع المدينة بالأموال، «وكثر الخراج على عثمان وأتاه المال من كل وجه حتى اتخذ له الخزائن وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة وفي كل بدرة أربعة آلاف أوقية »(102).
واشتدت حدة رياح التذمر في المركز، كما في الأمصار، وخصوصًا في مصر، ونجد في كتاب «نهج البلاغة»، نقلًا عن الواقدي والمدائني والكلبي، أن «عبد الله بن أبي سرح أمر بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق ـ وهما من قبيلة بلي اليمنية ـ وحلق رؤوسهما ولحاهما وحبسهما وصلب قومًا آخرين من أهل مصر، وهي نفس عقوبة المتأخر عن القتال والمخالف للأمير الذي يوقع عليه عقابًا فوريًّا يبدأ بإلحاق الأذى بالجسد ويترك علامة فيه تظل تلحق العار بصاحبها أينما حل »(103).
وأمام زيادة الثروة، كانت صلاحيات الأمير في إنزال العقاب على مخالفيه، واستخدام مبدأ التعزير بترك علامات وحشية على الجسد، والحرمان من مواطن الارتفاع، تنزل على المعارضين وتوسع قاعدتهم. وقد وجد بعض ثائري البيوت القرشية الأخرى ـ من غير آل عثمان وآل الحكم من أقاربه ـ في غضب القاعدة العريضة من الجند ذوي الأصول اليمنية ضالتهم لتفجير الموقف؛ وحتى في تلك الحالة نجد أبناء البيوت القرشية الغاضبة يلعبون دور الزعماء، بينما ظل اليمانيون هم المنفذون والمقاتلون .

وكان محمد بن أبي حذيفة ـ القرشي الأصل ـ من أشد المحرضين ضد ابن أبي سرح في مصر، وبعث ابن أبي السرح يشكو محمدًا إلى الخليفة، فحاول عثمان أن يسترضيه بأن بعث إليه «ثلاثين ألف درهم، ومحملًا عليه كسوة، فوضعهما محمد في المسجد وقال يا معشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه، فازداد أهل مصر تعظيمًا له وطعنًا على عثمان وبايعوه على رئاستهم »(104). وانضم محمد بن أبي بكر ـ ابن الخليفة الأول؛ أبو بكر الصديق ـ إلى صفوف المحرضين على عثمان وابن أبي سرح في مصر، حتى إن ابن أبي سرح اضطر إلى عزل ابن حذيفة وابن أبي بكر في مركب ليس به إلا القبط في غزوة ذات الصواري، بعد أن تحدثا كثيرًا في أمر توزيع الغنائم، وأفاضا في انتقاد الخليفة والوالي، ففرض عليهما ابن أبي سرح أن يركبا سفينة معزولة عن الجند العربي، وليس فيها سوى القبط؛ وبينهما عازل اللغة والتفاهم «فكانا أقل المسلمين نكاية وقتالًا، فقيل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد، استعمله عثمان، وعثمان فعل كذا وكذا؟ »(105).

ولم يفلح هذا العزل في إخماد النار، وازداد التذمر بعد عودة الجيش إلى مصر من غزوة ذات الصواري؛ حتى «خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء، المقلل يقول ستمائة والمكثر يقول ألف، على الرفاق عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وعروة بن شييم الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وسواد بن رومان الأصبحي، وزرع بن يشكر اليافعي، وسودان بن حمران السكوني وقتيرة بن فلان السكوني وعلى القوم جميعًا الغافقي بن حرب العكي، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب، وإنما خرجوا كالحجاج »(106).

وجميعهم من الجند اليمانية كما يتضح من أسمائهم المنسوبة إلى: بلي، تجيب، ليث، خزاعة، أصبح، يافع، وأخيرًا غافق من عك. وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن عديس الذي سبق ومثل به الوالي وحلق رأسه وسجنه مع آخرين. وعين ابن حذيفة نفسه واليًا. وما لبثت وفود مصر أن دخلت المدينة، وحاصرت عثمان بعد مفاوضات عديدة، وبعد أن انضمت إليهم وفود البصرة والكوفة .

ويقال إن الحصار قد حدث بعد أن قابل أهل مصر في طريق عودتهم من المدينة رسول الخليفة على راحلته ومعه خطاب إلى ابن أبي سرح يطلب منه فيه القبض على هؤلاء الثائرين وقتل زعمائهم، مما أشعل غضبهم، وعادوا ليسألوا الخليفة عن ذلك، فنفى صلته بالخطاب، وحاصروه في بيته ثم كان مقتله على يد ثوار مصر. ونلاحظ أن المؤرخين العرب يطلقون على العرب الذين اتخذوا من مصر محلًّا للإقامة «أهل مصر»؛ دون أن يقصدوا بذلك أهلها الحقيقيين من القبط (107).

وانضم هؤلاء الثوار بعد ذلك إلى علي بن أبي طالب في معاركه التالية ضد شيعة عثمان، وكما يقول المؤرخون: إن مصر كانت «علوية الهوى ».

وكان لحزب معاوية بن أبي سفيان ـ الرافع لقميص عثمان ـ رجال ذوو بأس وقوة وحيلة ودهاء، وعلى رأسهم عمرو بن العاص المقيم مؤقتًا بقصره في فلسطين، والذي خرج من المدينة بعد أن احتدم الخلاف بينه وبين الخليفة عثمان بن عفان، وقال له ابن عفان: «قملت والله جبتك منذ نزعتك عن العمل »(108) ، كناية عن تواضع حاله بعد قرار عزله عن ولاية مصر، وكانت صلات ابن العاص برجال حزبه في مصر لا زالت قوية، وعلى رأسهم معاوية بن حديج الذي أقام

في الصعيد أثناء تلك الفتنة، ومنها حارب حزب ابن أبي طالب في مصر، ويقال إنه غزاهم من المغرب بعد أن لجأ إلى عقبة بن نافع ـ قريب عمرو بن العاص ـ الذي كان يحكم ولاية برقة، ثم انقض على أعدائه في مصر من جهة الغرب، ومن يقرأ تاريخ تلك الفترة يدرك حقيقة أن كل الفصائل المتناحرة كانت لا تريد استمرار خلافة عثمان بن عفان الذي تزايدت في عهده الثروة بما لا يعقل، وكان بمثابة مرحلة انتقالية بكل ما تحمل من تناقضات السياسة والحكم والثروة والتكتلات القبلية. وحزب عثمان الذي يتخذ من مقتله تكئة للتخلص من الخصوم السياسيين، يريد الآن ما هو أكثر من مجرد الاستمتاع بالثروة؛ إنهم يريدون مباشرة الحكم بأنفسهم، كما سيحدث مع آل سفيان وآل الحكم، ولمعرفة عمرو بن العاص بمصر كان يرى أن «مصر تعدل الخلافة كلها»، وأنه لا يرضى بغير حكمها بديلًا .

أما علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير بن العوام، فكان لكل منهم مآربه الخاصة في السياسة والحكم (109).

وفي خلافة علي بن أبي طالب ـ قصيرة العمر ـ عين قيس بن سعد على ولاية مصر، وكان في مواجهته حزب عثمان «معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطأة وغيرهم، قد اعتزلوا في رقية ولهم رباع وأولاد وعيال وعبيد »(110).

وكانت سياسة قيس بن سعد هي ملاينة رجال حزب معاوية تجنبًا لشرورهم، فشك علي بن أبي طالب في واليه، وعين مكانه محمد بن أبي بكر الذي نشب بينه وبين أهل خريتا ـ مقر ابن حديج ـ نزاع، ثم خرج معاوية بن حديج ودعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه ناس وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر بعد أن هدم دور شيعة عثمان ونهب أموالهم وسجن ذويهم (111).

وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ الخليفة ذلك، فاستدعى الأشتر وقال له: «ليس لها غيرك فاخرج إليها »(112) لكن عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان دبرا للأشتر قتلًا يليق به، حينما اتفقا مع أحد الرجال لدس السم في العسل، وشرب الأشتر شربة ومات على أبواب مصر قبل أن يدخلها، وكان معاوية وعمرو كثيري التندر على تلك الحادثة بقولهما: «إن لله جنودًا من عسل »(113).

وبقي أمامهما محمد بن أبي بكر فأعدا له جيشًا، وهزماه في معركة كنانة، ثم لم يكتفيا بذلك؛ بل تبعه ابن حديج حتى قبض عليه وقتله، ثم وضعه في جيفة حمار وأحرقها حتى أكلت النار جثة محمد، مما يبين وحشية الوسائل التي اتبعها العرب في قتال بعضهم البعض من أجل الفوز بالسلطان والنفوذ والمال .

وكان عمرو بن العاص من أوائل المتآمرين ضد عثمان بن عفان، ومن أوائل المستفيدين من قتله، ومن أشد المطالبين بالثأر له، وكما يقول هو عن نفسه: «أنا أبو عبد الله، إذا حككت قرحة نكأتها »(114).

مما يتفق مع رواية شمس الدين الذهبي حينما ذكر أن عمرو هتك ما كان معاوية يتستر به من النفاق والادعاء أيام وقعة صفين، فقال له: «يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك، أترى أنا خالفنا عليًّا لفضلٍ منا عليه، لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها. وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك، أو لأنابذنك »(115).

وفاز عمرو بمصر طعمة له كما أراد، كما عين الخليفة الجديد عبد الله بن عمرو على الكوفة مكافأة لبيت ابن العاص على ما قدموه لإقامة دعائم الخلافة الأموية، لكن المغيرة بن شعبة أوحى

إلى معاوية بن أبي سفيان ببوادر الخطر على الخلافة الأموية، حينما قال له: «عمرو بمصر وابنه بالكوفة فأنت بين نابي أسد »(116) ، فعزل عبد الله عن الكوفة، واكتفى بترك مصر طعمة لعمرو حتى وفاته .

أما بقية الرافعين لقميص عثمان ـ الذين أوغلوا في سفك دماء أعدائهم أو إخوانهم من العرب المسلمين ـ فقد استفادوا أيضًا، مثل بسر بن أرطأة الذي أوفده معاوية لأخذ البيعة له من المدينة ومكة بحد السيف، «فسار حتى أتى المدينة وقتل ابني عبد الله بن عباس، وفر أهل المدينة ودخلوا حرة بني سليم، وفي هذه الخرجة أغار بسر على همدان وسبى نساءهم فكن أول مسلمات سبين في الإسلام »(117). وأطلق معاوية يد بسر في الأموال والأملاك .

أما معاوية بن حديج فقد تولى قضاء مصر، وكان كثير الأملاك والأموال، ومن كثرة ممتلكاته قيل عنه إنه «سيد الناس كلهم من الفرما إلى الأندلس »(118). ويبدو أن ولاء ابن حديج المطلق لحزب معاوية قد تزعزع فيما بعد، حينما قُتل حجر بن الأدبر وأصحابه، وهم من رجال معاوية ابن حديج ومن قبيلته اليمنية فغضب، وقال :

يا أشقائي في الرحم وأصحابي وجيرتي، أنقاتل لقريش في الملك حتى إذا استقام لهم دفعوا يقتلوننا، أما والله لئن أدركتها ثانية لأقولن لمن أطاعني من أهل اليمن اعتزلوا بنا، ودعوا قريشًا يقتل بعضها بعضًا فأيهم غلب اتبعناه (119).

وندم ابن حديج السابق على معاونته لحزب معاوية ضد حزب علي ـ القريشيين ـ مبني على أساس عنصري يمتزج بالطموح إلى الثروة وإن غلفته الحنكة السياسية. فهو يساعد حزب ابن أبي سفيان حتى يتمكن من السلطة بشرط أن يصبح له مكان بارز هو وشيعته في الدولة الجديدة، أما أن يقتل رجاله على مرأى منه، فذلك ما يهدد ولاءه لحزب معاوية، وربما لاحظ ابن حديج أن الرجال الآخرين ذوي الأصول القرشية قد نالوا من السلطة الجديدة حظًّا أوفر، خصوصًا أن الخليفة قد عين مسلمة بن مخلد واليًا على مصر سنة سبع وأربعين، وجمع له الصلاة والخراج وبلاد المغرب دون ابن حديج الذي مات بمصر سنة اثنتين وخمسين هجرية .

*

ولم يتوقف الصراع العربي ـ العربي في مصر بانتصار الأرستقراطية الأموية وحلفائها، بل احتدم مرة أخرى أثناء أزمة عبد الله بن الزبير، وظهور بعض الأنصار له في مصر ينتمون إلى المعافر «قالوا لا نخلع بيعة عبد الله بن الزبير. فضرب مروان أعناقهم وكانوا ثمانين رجلًا »(120).

وتصادف يوم إعدامهم مع يوم موت عبد الله بن عمرو بن العاص، ومن شدة خوف الناس لم يستطع أحد الخروج بجنازته، فدفن في داره لشغب الجند على مروان، ثم ضرب مروان عنق الأكدر بن حمام اللخمي ـ وقبيلة لخم من أصول يمنية ـ مما زاد ثورة الجنود ضد مروان.

«وتنادى الجند: قتل الأكدر فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفًا وخشي مروان وأغلق بابه »(121).

وتجددت الفتنة مرة أخرى في عهد حوثرة بن سهيل الباهلي ـ من قبيلة قيس العدنانية الشمالية ـ فقبض على زعماء الثورة ذوي الأصول اليمنية، وقتلهم جميعًا، وقال له حسان بن عتاهية، رئيس شرطته: «لم يبقَ لحضرموت إلا هذا القرن فإن قطعته قطعتها ـ يعني خير بن نعيم ـ كان على القضاء، فعزله حوثرة »(122).

وهكذا لم تخمد النار المشتعلة بين الجند اليمنية من جهة، والأرستقراطية القرشية من جهة أخرى حتى خمدت الدولة الأموية، وانتهت على يد العباسيين، وهم آخر بيت من بيوت قريش، ستشهد معه الدولة الإسلامية في مصر تطورات أخرى .
*
وقد سجل أدب تلك الفترة الأولى لفتح مصر تعالي الصفوة القرشية على جنود الجيش العربي، ومارسوا عليهم العنجهية والصلف في كل المناسبات .
ولعل أول قصيدة رويت في مصر هي قصيدة أبي المصعب البلوي، التي هجا فيها العرب القاطنين أرض مصر، لأنهم من أصول يمنية، وكانت تجد هوى كبيرًا في نفوس ذوي الأصول القرشية. لأن في نفس معاوية من الثوار الكثير، فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة (123) التي يعيب فيها الشاعر على عرب مصر بأنهم حضرميون ليس لهم شرف ولا جد، وأنهم متكبرون .
كما نجد في خطبة عتبة بن أبي سفيان هجاءً حادًّا لعرب مصر، وكان من دهاة السياسيين وخطيبًا مفوهًا، عده الأصمعي أحد أهم اثنين من خطباء بني أمية، وذكر القلقشندي خطبته التالية في صناعة الإنشا :
يا حاملي ألأم أنوف ركبت بين أعين؛ إنما قلمت أظفاري عنكم لِيلِين مَسِّي إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعًا عليكم، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء والعتب على السلف والخلفاء، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت مستشري دائكم وإلا فالسيف وراءكم. فكم من عظة لنا قد صمت عنها آذانكم، وزجرة منا قد مجتها قلوبكم ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية، ولا مؤايسًا لكم من المراجعة إلى الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى (124).
وتصوير عتبة السابق «يا حاملي ألأم أنوف ركبت بين أعين» يوحي برغبة عرب مصر الدائمة في الخوض في مسائل السياسة والحكم، وكشف أفعال الولاة وانتقاد سياساتهم الجائرة، فهم لا يملون المراقبة، وإظهار المعارضة، والسلطة الأموية تخص كل من لا يلزم الصمت بتقطيع السياط على ظهره، وإعمال السيف في رأسه. الصمت أو الموت، كما يقولون .
لكن الجنود يستفزهم نهر الثروات النازح إلى الحكام وحاشيتهم، ويقارنون ما يحصلون عليه وما عبه الآخرون فلا يستطيعون الصمت .
ويحكي ابن لهيعة أنه في زمن ولاية مسلمة بن مخلد، وبعد أن قسم العطاء وأعطى كل جهة ما كان مقررًا لها: «فأعطى أهل الديوان عطياتهم وعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل... فلما نهضت الإبل لقيهم برح بن كسحل المهري ـ من قبيلة يمنية ـ فقال: ما هذا؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا. ردوه، فردوه، حتى وقف على باب المسجد، فقال : «أخذتم عطياتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم»، قالوا: «نعم»، قال: «لا بارك الله لهم فيه خذوه. فساروا به »»(125).
والعربي اليمني لا ينظر بارتياح إلى المال المشحون إلى مكة والمدينة وعواصم القبائل العدنانية المفتخرة بأصولها عليه، فيقف على باب الجامع ـ نقطة ارتكاز العرب جميعًا ومكان تجمهرهم؛ حيث كان لكل قبيلة فيه عمود ومكان يرتب حسب مكانة القبيلة ونفوذها أيضًا ـ محاولًا تحريض

العرب أصحاب العطايا الأقل، وينهي محاولته بالدعاء على العرب المستفيدين من وضع الاستنزاف. وصيغة الملكية الطاغية على الحديث «ما بال مالنا يخرج من بلادنا» لافتة للنظر؛ حيث كان العرب جميعًا في ذلك الحين ـ سواء من الشمال أو من الجنوب ـ حديثي الوفود على مصر، ولم يكن قد مضى ثلاثون عامًا أو أكثر قليلًا على تلك الواقعة، وقد اعتبروها بلدهم ـ لهم وحدهم بكل ما فيها من أرض وزرع وماء وهواء وكنوز طبيعية وثروات ومبانٍ ـ كل شيء لهم بمجرد إشهار السيف وخضوع الآخرين لهم. وحتى البشر القاطنين أرض مصر منذ فجر التاريخ هم أيضًا جزء من ملكية العرب العامة، وقد خلقت لضمان استمرار سيلان الثروة عليهم،
وانعكست تلك الرؤية العامة واليقين الراسخ على الخطاب العربي الموجه إلى الأقباط بعد الفتح ابتداءً من تدفق أسرى القبط على مدن الجزيرة العربية، وإشارة الخليفة عمر بن الخطاب بتفضيله بقاء المصريين في بلادهم، واستخدامهم في زراعة الأرض لتعميم الانتفاع بهم .
وقد مارس الحكام العرب صفات السيادة وتسخير المصريين في شتى الأعمال الصعبة، ومن هذا المنطلق سخر عمرو بن العاص آلاف الفلاحين في إعادة حفر خليج تراجان أو قناة أمير المؤمنين، كما سخر عبد الله بن سعد بن أبي سرح صناع مصر لبناء الأسطول العربي، وفي العموم: كان المصريون يقومون بحفر القنوات وبناء الخطط والبيوت للسادة العرب، بينما يكتفي هؤلاء السادة بصفتهم الفرسان أصحاب السيوف والخيول والجيوش باستهلاك الخيرات وإنفاق الثروات .
وكثيرًا ما عبر ملوك بني أمية عن العبودية الصريحة في رسائلهم إلى أمراء مصر بقولهم: «إن مصر إنما دخلت عنوة، وإنما هم عبيدنا ـ المصريين ـ نزيد عليهم كيف شئنا ونضع ما شئنا »(126).
وكثيرًا ما كانت العنجهية تذهب بهم إلى حد الرغبة في الاستخدام المباشر لثنائية السيادة والعبودية، وعدم الاكتفاء بالوضع العام لقوانين عدم الاختلاط، كما حدث مع هذا العربي الذي سخر ملاحًا قبطيًّا لنقله عبر النهر بمركبه، وحينما طلب القبطي أجره، رفض العربي متذرعًا بحق السيادة الذي يخول له استخدام المصريين دونما مقابل (127).
وطقوس التبعية تتفاوت حدتها من زمان إلى آخر حسب ذكاء الحاكم وقدرته على إدارة الأمور. فنجد المغالاة والتشدد أثناء ولاية حاكم، والانفراج النسبي في ولاية آخر. على أن الميراث العام يتضح في أدبيات القرون التالية للفتح بشكل مبالغ فيه، كما نجد في كتاب: «معالم القربة في أحكام الحسبة»، الذي يقدم شروط دفع الجزية بأن «يقف الذمي بين يدي عامل الجزية ذليلًا، فيلطمه المحتسب بيده على صفحة عنقه، أدِّ الجزية يا كافر، ويخرج الذمي يده من جيبه مطبوقة على الجزية فيعطيها له بذلة وانكسار »(128). ومسرحية أداء الجزية هذه تعكس الصورة في أشد عصور الظلام قتامة، وإن لم تنفذ بهذه الجهامة في أوقات أخرى كثيرة. حيث لم يكن الحكام العرب الأوائل يهتمون بمثل هذه الطقوس الشكلية بقدر ما يهتمون بمبادئ ترسيخ السيادة العامة وما يترتب عليها من أحكام مالية وعينية .
ووسط هذا الجو، كان طبيعيًّا بروز سلسلة من التناقضات العنصرية بين العرب والمصريين من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى، طالما أنهم من فئات غير متجانسة، وطالما أن نشأتهم الأولى زرعت فيهم الولاء القبلي الصرف، ولولا حنكة ودهاء القادة الأوائل، واستخدامهم كل وسائل الترغيب والترهيب لسارت الأمور في اتجاهات أخرى .

جدول ولاة مصر حتى سقوط الدولة الأموية

اسم الوالي	تاريخ ولايته	مدة الولاية	الموطن القبلي
عمرو بن العاص	21هـ-25هـ	أربع سنين وأشهر	قريش
عبد الله بن سعد بن أبي سرح	25هـ-35هـ	عشر سنوات	قريش
محمد بن أبي حذيفة	35هـ	فترة قصيرة	قريش
قيس بن سعد بن عبادة	35هـ-37هـ	سنتان	من الخزرج/ جنوبية
الأشتر النخعي	37هـ	لم يدخل مصر وتوفي على أبوابها	من مذحج/ جنوبية الأصل
محمد بن أبي بكر	النصف من رمضان 37هـ	خمسة أشهر	قريش
عمرو بن العاص/ الثانية	38هـ-43هـ	ست سنوات	قريش
عتبة بن أبي سفيان	ذي القعدة 43هـ-ذي الحجة 44هـ	سنة وشهر	قريش
عقبة بن عامر الجهني	44هـ-ربيع أول 47هـ	سنتان وثلاثة أشهر	من جهينة من الجنوب
مسلمة بن مخلد الأنصاري	47هـ-62هـ	خمس عشرة سنة وأربعة أشهر	من الخزرج/ جنوبية
سعيد بن يزيد الأزدي	62هـ-64هـ	سنتان إلا شهرًا	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن جحدم	64هـ	تسعة أشهر	قريش
عبد العزيز بن مروان	65هـ-86هـ	عشرون سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يومًا	قريش
عبد الله بن عبد الملك	86هـ-90هـ	ثلاث سنين وعشرة أشهر	قريش
قرة بن شريك	90هـ -96هـ	ست سنوات إلا أيامًا	من قيس/ عدنانية/ شمالية
عبد الملك بن رفاعة	96هـ-99هـ	ثلاث سنوات	من بني ظاعن الفهمي/ شمالية
أيوب بن شرحبيل	99 هـ-101هـ	سنتان ونصفًا	من أصبح/ جنوبية الأصول

بشر بن صفوان	101هـ-102هـ	سنة واحدة	من قبيلة كلب/ جنوبية الأصول
حنظلة بن صفوان	102هـ-105هـ	ثلاث سنوات	من قبيلة كلب/ جنوبية الأصول
محمد بن عبد الملك	11 شوال 105هـ	شهر واحد	قريش
الحر بن يوسف	105هـ-108هـ	ثلاث سنين	قريش
حفص بن الوليد	108هـ	أسبوعان	من حضرموت/ جنوبي
عبد الملك بن رفاعة / الثانية	109هـ	خمس عشرة ليلة	من بني ظاعن الفهمي/ شمالية
الوليد بن رفاعة	109هـ-117هـ	تسع سنين وخمسة أشهر	من بني ظاعن الفهمي/ شمالية
عبد الرحمن بن خالد	117هـ	سبعة أشهر وخمسة أيام	من بني ظاعن الفهمي/ شمالية
حنظلة بن صفوان/ الثانية	119هـ-124هـ	خمس سنوات وثلاثة أشهر	من قبيلة كلب/ جنوبية الأصول
حفص بن الوليد/ الثانية	124هـ-127هـ	ثلاث سنوات إلا أشهرًا	من حضرموت/ جنوبي
حسان بن عتاهية	127هـ	16 يومًا	من تجيب/ جنوبية
حفص بن الوليد/ الثالثة	127هـ-128هـ	سنة واحدة	من حضرموت/ جنوبي
الحوثرة بن سهيل	128هـ-131هـ	ثلاث سنوات وستة أشهر	من قيس/ عدنانية/ شمالية
المغيرة بن عبيد الله	131هـ-132هـ	عشرة أشهر	من فزارة/ قيسية/ شمالية
عبد الملك بن مروان بن موسى	132هـ	شهور قليلة	من لخم/ جنوبية الأصل

وهكذا نرى أنه منذ فتح مصر عام 20 هـ إلى سنة 132هـ، عام انتقال الخلافة من بني أمية إلى العباسيين، تولى عليها سبعة وعشرون عاملًا، تناوبوها اثنتين وثلاثين مرة، لأن بعضهم كان يعزل ويعود مرة أخرى كعمرو بن العاص، وحنظلة بن صفوان، وحفص بن الوليد فإنه تولى حكم مصر ثلاث مرات .

وكان من بين السبعة والعشرين عاملًا عشرة من قريش فقط، وستة ولاة من قبائل ذات أصول شمالية، وأربعة من أصول جنوبية؛ ولكنها قبائل تقطن الشام وفلسطين، وسبعة من أصول جنوبية

صرفة؛ وهو عدد لا يتناسب مع انتماء القاعدة العريضة (الجيش) إلى هذه الأصول الجنوبية .
جدول أسماء القضاة

اسم القاضي	في عهد الوالي / الخليفة	الموطن القبلي
قيس بن أبي العاص	من قبل عمر بن الخطاب، في ولاية عمرو بن العاص	قريش
كعب بن يسار بن ضنه (رفض أن يقبل القضاء، ولكنه قضى بين الناس حتى أعفاه عمر بن الخطاب)	من قبل عمر بن الخطاب، في ولاية عمرو بن العاص	من قيس / شمالية
عثمان بن قيس بن أبي العاص	من قبل عمر بن الخطاب، ثم أقره عثمان بن عفان، في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح	قريش
سليم بن عتر التجيبي	من قبل معاوية بن أبي سفيان	من أصول جنوبية
عابس بن سعيد المرادي	من قبل مسلمة بن مخلد، ثم أقره من جاء بعده من الولاة حتى عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
بشير بن النضر	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول شمالية
عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
مالك بن شراحيل	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
يونس بن عطية	كان على القضاء والشرط في عهد عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
أوس بن عبد الله بن عطية	ولاه عبد العزيز بن مروان، وهو (أي أوس) ابن أخي القاضي السابق	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	ولاه عبد العزيز بن مروان على القضاء	من

	والشرط وخلافة الفسطاط	أصول جنوبية
عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة	ولاه عبد الله بن عبد الملك على القضاء والشرط	من أصول جنوبية
عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	من قبل عبد الله بن عبد الملك	من أصول جنوبية
عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني	من قبل قرة بن شريك	من أصول جنوبية
عياض بن عبيد الله الأزدي	من قبل قرة بن شريك	من أصول جنوبية
عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني / الثانية	جمع له عبد الملك بن رفاعة القضاء وبيت المال	من أصول جنوبية
عياض بن عبيد الله الأزدي / الثانية	من قبل سليمان بن عبد الملك	من أصول جنوبية
عبد الله بن يزيد بن خذامر	من قبل عمر بن عبد العزيز	-
يحيى بن ميمون الحضرمي	من قبل هشام بن عبد الملك	من أصول جنوبية
توبة بن نمر الحضرمي	من قبل الوليد بن رفاعة	من أصول جنوبية
خير بن نعيم	من قبل حنظلة بن صفوان	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن سالم الجيشاني	من قبل الحوثرة بن سهيل	-

جدول رؤساء الشرط

اسم رئيس الشرط	في عهد الوالي	الموطن القبلي

خارجة بن حذافة بن غانم	عمرو بن العاص	قريش
السري بن هشام بن عمرو بن ربيعة	عبد الله بن سعد بن أبي سرح	قريش
السائب بن هشام بن كنانة العامري	قيس بن سعد	من قبائل مضر الشمالية
عبد الله بن أبي حرملة البلوي	محمد بن أبي بكر	من أصول جنوبية
خارجة بن حذافة بن غانم / الثانية	عمرو بن العاص / الثانية	قريش
زكريا بن جهنم بن قيس العبدري	في عهد عمرو، واستمر في عهد عتبة بن أبي سفيان	قريش
السائب بن هشام بن كنانة العامري / الثانية	مسلمة بن مخلد	من قبائل مضر الشمالية
عابس بن سعيد المرادي	في عهد مسلمة بن مخلد، ثم أقره كل من سعيد بن يزيد، وعبد الرحمن بن عتبة، وعبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
زياد بن حناطة بن سيف التجيبي	عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية التجيبي	عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
يونس بن عطية بن أوس الحضرمي	عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	ولاه عبد العزيز بن مروان على القضاء والشرط وخلافة الفسطاط	من أصول جنوبية
عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة	ولاه عبد الله بن عبد الملك على القضاء والشرط	من أصول جنوبية
عبد الأعلى بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي	ولاه عبد الله بن عبد الملك، ثم أقره قرة بن شريك	من أصول شمالية
عبد الملك بن رفاعة	ولاه قرة بن شريك على الشرط، ثم استخلفه على الولاية في غيابه	من بني ظاعن الفهمي/ شمالية
الوليد بن رفاعة	عبد الملك بن رفاعة	من بني ظاعن الفهمي / شمالية
الشيخ ابن جرو	سليمان بن عبد الملك	من أصول

الحضرمي		جنوبية
الحسن بن يزيد	أيوب بن شرحبيل	من أصول جنوبية
الحارث بن ذاخر الأصبحي	أيوب بن شرحبيل	من أصول جنوبية
شعيب بن حميد البلوي	بشر بن صفوان	من أصول جنوبية
حنظلة بن صفوان	من قبل بشر بن صفوان، ثم أصبح على الولاية والشرط	من قبيلة كلب/ جنوبية الأصول
محمد بن مطير البلوي	حنظلة بن صفوان	من أصول جنوبية
القاسم بن أبي القاسم السبئي	حنظلة بن صفوان	من أصول جنوبية
حفص بن الوليد	من قبل حنظلة بن صفوان، ثم أقره الحر بن يوسف	من حضرموت / جنوبي
عبد الله بن أبي سمير الفهمي	الوليد بن رفاعة	قيسية/ مضرية/ شمالية
عبد الرحمن بن خالد بن مسافر	الوليد بن رفاعة	من بطون قيس الشمالية

النساء يشاركن في القتال العربي-العربي

برزت في أحداث الفتنة الكبرى أسماء بعض النساء المقيمات في مركز الحكم بالمدينة مثل نائلة بنت الفرافصة آخر زوجات عثمان بن عفان، الخليفة المقتول، ويحكى أن عثمان تزوجها وهو على مشارف الثمانين من عمره بينما كانت هي في ريعان الصبا والشباب، ويقال إنها كانت نصرانية، أو بالأحرى من قبيلة نصرانية دخلت الإسلام (129).

حينما دخل وفد ثائري مصر المدينة وتصاعدت الأزمة، أشارت نائلة على عثمان بأن يقبل رأي علي بن أبي طالب في إجابة مطالب الثائرين لتسكين الموقف؛ لكن يبدو أن عثمان كان مترددًا، وتسارعت الأحداث، وحاصر الثوار بيت عثمان، ومنعوا عنه الماء، ثم تسلقوا سور البيت المجاور له وانقضوا عليه يضربونه، ودافعت عنه نائلة وقُطعت أصابعها وهي تحاول حمايته من سيوفهم، ولم ينته دور نائلة بموت عثمان؛ بل راحت تؤجج نار الثأر للخليفة المقتول، فخطبت في مسجد المدينة وهي منسلبة في أطمار، معها نساء من قومها، والخطبة طويلة .

وحينما انشغل الناس بأمر الفتنة، وتركوا الخليفة المقتول في داره المحاصرة، أرسلت نائلة إلى قليل من الرجال ليجهزوا عثمان، فقالوا: إنا لا نقدر أن نخرج به نهارًا، وهؤلاء المصريون على الباب، فأمهلوا حتى كان بين المغرب والعشاء فدخل القوم، فحيل بينهم وبينه، فقال أبو جهم: والله لا يحول بيني وبينه أحد إلا مت دونه، احملوه إلى البقيع، فحملوه وتبعتهم نائلة بسراج فدفن الخليفة ليلًا دون أن يتبعه أحد .

وبعثت نائلة بقميص عثمان وإصبعها معلق فيه ـ الخنصر ـ إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام تحرضه على طلب الثأر، ولما أتى التحريض بنتائجه واشتعلت الحرب العربية، وامتدت إلى الأمصار، وقتل شيعة عثمان محمد بن أبي بكر، بعثت شيعة عثمان هي الأخرى في مصر بقميص محمد بن أبي بكر الذي قتل فيه إلى المدينة «فوصل إلى دار عثمان واجتمع رجال عثمان ونساؤه وأظهروا السرور، ولبست نائلة بنت الفرافصة القميص ورقصت به، وأرسلت أم حبيبة أخت معاوية بكبش شواء إلى عائشة وقالت: هكذا شوي أخوك بمصر، فحلفت ألا تأكل شواء حتى تلقى الله، ودخلت على أسماء بنت عميس أم محمد بن أبي بكر فقيل لها قتل محمد بمصر وأحرق بالنار في جوف حمار، وكانت في مصلاها فعضت شفتيها وكظمت غيظها فشخبت ثدياها دمًا »(130).

ولم تكتفِ نائلة بأن تلبس قميص محمد بن أبي بكر وترقص به؛ بل إنها حينما حج معاوية بن حديج عقب قتله لمحمد بن أبي بكر وإحراقه بالنار «لقيته نائلة وقبلت رجليه وقالت شفيت نفسي من ابن الخثعمية »(131).

ومثل هذه القصص تعكس طبيعة الصراع الدائر بين العرب، حينما تمتزج النعرات القبلية بالرغبة في الحفاظ على المكانة والسيادة، ولو كانت النتيجة جريان بحور من الدم .

وردود فعل النساء تجسد الإحساس بالشماتة والمبالغة في إعلان الفرح بمصائب الطرف الآخر من العرب المتناحرين .

وقد دخلت عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي المحبوبة وأم المؤمنين دائرة الصراع، فكان دورها في هذه الأحداث كبيرًا، وظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة، خصوصًا أن ثائري الأمصار كانوا يستخدمون اسمها واسم زوجات النبي الأخريات في تحريض العامة، كما كان يفعل محمد بن أبي حذيفة في مصر .

وبعد مقتل عثمان رأت أن التهاون في القصاص للخليفة المقتول ليس من الإسلام، كما أنه ليس من شيم العرب القاضية بالثأر .
وخرجت عائشة إلى البصرة لتنضم إلى طلحة والزبير، وأطماعهما في الخلافة غير خافية، ضد علي بن أبي طالب الذي كانت تحرض الناس ضده وتتهمه بحماية قتلة عثمان، ورغم أن الناس كانوا يتهمون أخاها محمد بن أبي بكر بالاشتراك في قتله، كانت تصر على التحريض ضد علي بن أبي طالب .
ودارت معركة شرسة بين الأقارب، «وقد كاد أصحاب عائشة أن يهزموا»، ولكن الجمل الذي يحمل هودج عائشة قائم، «وفي الهودج أم المؤمنين تحرض الناس فتردهم إلى الحماسة والجرأة»، حتى صاح علي في أصحابه: «اعقروا الجمل فإن في بقائه فناء العرب »(132).
وقد سميت هذه المعركة باسم «موقعة الجمل» لأهمية دور عائشة فيها، ورغم احتجابها خلف هودج مغلق على ظهر جمل، ورغم أنها لم تحمل سيفًا ولم تقتل أحدًا، إلا أنها قد لعبت دور المحرض الأساسي ـ وهي فصيحة اللسان واضحة البيان ـ وكلما تفرق الرجال خطبت من جديد، حتى لم يجد علي بدًّا من تسديد الضربة نحو الهدف المركزي؛ وهو الجمل الحامل لهودج عائشة، الذي كان شارة وعلامة حزب طلحة والزبير، وبسقوط الشارة تفرق الجمع وانتهت المعركة .
وقد جسد كتاب «الفتنة الكبرى» لطه حسين أزمة الدولة الإسلامية الناشئة وخلافاتها الدائرة حول توزيع الثروة والجاه والنفوذ والسيادة، حتى كادت ستارة الإسلام أن تسقط في نيران العصبية القبلية وأساطير المجد والشرف العنصريين، وعاد بنو عبد مناف يقاتلون بني أمية. وبرزت بعض النسوة يحدثن ويناظرن ويرقصن طربًا لأخذ الثأر، كما في حالة نائلة بنت الفرافصة .
وتنسب بعض المصادر إلى عمرو بن العاص قوله لعائشة: «وددت لو مت يوم الجمل» وحين سألته عن السبب قال: «لنعير بك علي بن أبي طالب وحزبه »(133).
ومن المستبعد أن يصل عدم اللياقة بعمرو إلى هذا الحد، ولكننا نذكر له موقفًا آخر حين عزله عثمان بن عفان عن ولاية مصر، فيقال إنه على إثر ذلك طلق زوجته أم كلثوم بنت عقبة؛ وهي أخت عثمان من الرضاعة، وكان عمرو قد تزوجها فيما يشبه الزواج السياسي بعد وفاة زوجيها السابقين. وعاشت أم كلثوم ما بقي لها من حياة بعيدًا عن الانغماس في الخلافات الدائرة .
وظهر اسم امرأة أخرى في تلك الأحداث، وهي فاختة بنت قريظة؛ زوجة معاوية بن أبي سفيان، ويحكى أنها كانت تصنع طعامًا لمحمد بن أبي حذيفة ـ عدو زوجها اللدود ـ وترسله إليه في السجن الذي حبسه فيه معاوية بالشام. وذات يوم بعثت له مبارد مخبأة في الطعام، «فبرد بها قيوده وهرب فاختفى في غار فأخذ وقتل». ولم تشفع له قرابته من زوجة معاوية بن أبي سفيان، فأسرع بالقبض عليه ثانية وقتله (134).
وهكذا شاركت بعض النساء في الصراع العربي الدامي، وانتصرت للصراعات القبلية الحادة. وخلفهن كانت القاعدة العريضة من النساء تتوارى خلف أستار الحريم، وينتظرن الرجال المتقاتلين العائدين بالغنائم وخيرات البلاد المفتوحة .
*
ولكن ماذا عن وضع المرأة المصرية بعد الفتح العربي لمصر؟ هل شاركت هي الأخرى في الأحداث، أم اكتفت بالعمل مع أقرانها من الرجال في أعمال الزراعة والصناعات المختلفة من أجل توليد الثروة للحاكمين الجدد؟

إن الكتابة عن وضعها تبدو ضربًا من المستحيل وسط هذا الركام الهائل من المصادر التاريخية النافية للنساء، بل والنافية لوجود الشعب المصري نفسه حينذاك .

حال قبط مصر

وإذا كانت هذه هي حياة الصفوة العربية الحاكمة ـ الأشراف كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم ـ بعد أن أزاحوا الرومان عن مقاعد السلطة، واتخذوا أماكنهم، وتركوا قوانينهم في الدواوين ونظام المحاسبة سارية كما هي .

فكيف كانت حياة الشعب المحكوم المنزوي دائمًا في خلفية الصورة، حيث إن مصر لم تكن أرضًا منبسطة بلا شعب، فتحها عمرو بن العاص من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، واستولى على كل مدنها وقراها وسواحلها في نزهة بسيطة تحت راية الإسلام. أم أن شعبها استقبل الجيش العربي بالترحيب والأحضان، كما يحلو للبعض أن يصور الأمر في تبسيط مخل وصور زائفة .

واللافت للنظر أن استقراء أحداث الفتح العربي من خلال مصادر التاريخ العربي ـ «كتب التراث» ـ يغفل وجود الشعب القبطي، أو يأتي به في مواضع عابرة، كدافع للجزية وللخراج أساسًا، أي كممول خفي لحياة الصفوة التي تعيش بسيوفها ورماحها .

فهي مصادر تقدم وجهة نظر الفاتح العربي المشغول بنفسه دائمًا، والحريص على إظهار صورته المعتدلة في الحكم، وتكرار تلك الصورة وإعادة إنتاجها طوال الوقت ورفعها إلى مصاف الحقائق المطلقة، بينما تضمر بفعل الإهمال والاضطهاد وجهة النظر الأخرى، ووجهة نظر الشعب القبطي، فيطويها النسيان وكأنها لم تكن هنالك أبدًا. ونبش الذاكرة لإيجاد ما ضاع ليس سهلًا، وإن كان ممكنًا بالتنقيب بين طيات المراجع بالغة الندرة .

وبين أيدينا مؤرخ قبطي عاش في أواخر القرن السابع الميلادي وبداية القرن الثامن الميلادي، وأشارت المصادر القديمة إلى أنه كان في سنة «698م» شيخًا كبيرًا، فعاصر في شبابه ونضجه أحداث الفتح ورآها رأي العين، وسجلها في مخطوطته الحاملة لاسمه .

وتتكون مخطوطة «يوحنا النقيوسي» من «مائة واثنين وعشرين بابًا، وقد حظيت مصر بأكبر قدر من اهتمام المؤلف، حيث لم يترك فرصة يتحدث فيها عن مصر إلا انتهزها ... وقد حظيت فترة الفتح بالفصل الأخير من المخطوطة »(135) ، التي تعالج أحداث العالم منذ الخليقة حتى الفتح العربي الإسلامي لمصر .

إنه صوت وحيد للشعب القبطي المنزوي في خلفية الصورة، كتب عما رآه ولمسه قبل أن تمتد أيدي الرواة إلى التاريخ وتقطعه حسب الهوى الشخصي والسياسي، وهو يفوق من حيث الأسبقية مصادر التاريخ العربي .

ويوحنا النقيوسي ليس قبطيًّا عاديًّا، بل هو رجل من رجال الكنيسة شغل منصب أسقف مدينة نقيوس. وكان أحد أهم اثنين من الأساقفة في مصر، وعين في عهد البابا يوحنا الثالث رئيسًا لأساقفة مصر السفلى، ثم المسؤول عن تدبير أديرة وادي هبيب «وهو وادي النطرون ويعرف ببرية شيهات، وببرية الأسقط، وبميزان القلوب، فإنه كان بها في القديم مائة دير، ثم صارت سبعة ممتدة غربًا على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم، وهي في رمالٍ منقطعة وسباخٍ مالحة وبرارٍ منقطعة معطشة وقفارٍ مهلكة، وشراب أهلها من حفائر، وتحمل النصارى إليهم النذور والقرابين، وقد تلاشت في هذا الوقت بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن

العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز فسلموا عليه وأنه كتب لهم كتابًا هو عندهم »(136).
وقد ظلت مخطوطة يوحنا النقيوسي مجهولة للدارسين العرب فترة طويلة، بينما كان يجري الاستشهاد به في الدراسات الغربية، خصوصًا أن النقيوسي كان قد كتب كتابه باللغة القبطية، ثم ترجم إلى اليونانية والعربية والإثيوبية، ولظروف مجهولة فقدت النسخ اليونانية والعربية والقبطية، ولم تبقَ إلا النسخة الإثيوبية محفوظة بمكتبة الكنيسة بإثيوبيا حتى قام الدكتور «م . هـ. زوتنبرج» بتقديمها مع ترجمة فرنسية لها. وظلت موضع بحث واستشهاد الغرب، حتى ذكرها المؤرخ المصري المعروف عبد الرحمن الرافعي نقلًا عن «زوتنبرج ».
وتتالت الاستشهادات، إلا أنها تأتي عابرة ومبتسرة، حيث يقطع كل باحث من النص الأصلي ما يوافق هواه، فلا يبقى من المخطوطة في دراساتهم سوى جمل تنتزع من سياقها مع تجاهل روح المخطوطة وجوها العام .
وسيدة إسماعيل الكاشف ـ على سبيل المثال ـ تذكر النقيوسي كمادح لسماحة جيش الفتح العربي لمصر، بعد أن اقتطعت فقرة واحدة تؤكد أن عمرًا لم يمس ممتلكات الكنيسة وأنه ترك لها حرية العبادة على عكس كل ما سبق ذلك، وما تلاه .
أما جاك تاجر فيرى أن يوحنا اهتم بالشكوى من العرب «أكثر من ذكر الأعمال التي تشرف الفاتح فيطلعنا في تاريخه على سيئات الفتح »(137). بينما قراءة الفصل رقم «122» كاملًا من المخطوطة تطلعنا على تفاصيل المعارك الحربية وحال الجيش الروماني أثناء الغزو، وكيفية سيطرة الجيش العربي على المواقع والبلاد. ومقاومة بعض المدن واستسلام البعض الآخر، فيرسم صورة حية يغلفها إطار سميك من الحزن على القرى المقاومة وما لاقته من أهوال على يد الجيش العربي .
ومن القراءة الأولى للمخطوطة نلاحظ عداء النقيوسي للجانب العربي من جهة، ويسميهم بالإسماعيليين مرة وبالمسلمين مرة أخرى، ويظهر عداءه للجانب الروماني من جهة أخرى، ويسمي أولئك وهؤلاء أعداء المسيح، أما الأقباط فهم وحدهم أصحاب العقيدة الحقة من وجهة نظره. ويتمنى النقيوسي أن ينزل الله عقابه الشديد على الجيش العربي وقادته بسبب كل ما فعلوه بالمصريين، مثلما فعل الرب بفرعون موسى حينما «أغرقه في البحر الأحمر هو مع كل جيشه بعد كثير من العقوبات التي عاقبهم بها من الإنسان حتى الحيوان، ولما كان حكم الله على هؤلاء الإسماعيليين فقد يصنع بهم كما صنع بفرعون »(138).
وفي ذات الوقت لا يخفي فرحه لما نزل بالرومان من هزيمة وقتل، ويذكر فرحًا أنه عقاب السماء الذي حل عليهم بسبب كل ما أنزلوه بالقبط من العذاب الشديد، ويسمي الرومان بالنجسين في بعض المواضع، وبأعداء المسيح، أو أعداء العقيدة الحقة في مواضع أخرى .
فالنقيوسي صوت قبطي صرف، يرى ظلم الرومان وقسوتهم من جهة، وضراوة العرب وشدتهم من جهة أخرى، ويتابع سير المعارك بين الجانبين بهذه العين المصرية الخالصة، وسرعان ما ينتابه الأسى لما يحل بشعبه القبطي على أيدي الجانبين .
ويذكر النقيوسي في مخطوطته أحد أهم أسباب هزيمة الرومان، وانتصار العرب عليهم، وهو انتشار عوامل الانحلال داخل المعسكر الروماني، وتناحر قادته ومكائدهم بعضهم لبعض، كأثر من آثار اختلافات المركز في بلاط هرقل، الإمبراطور الروماني المريض والمشرف على الموت،

وصراع زوجته الثانية نيابة عن ابنها ضد الابن الآخر لهرقل من زوجته الأولى، وانقسام رجال البلاط بينهما. وخزانة الدولة خاوية من كثرة نهب كل فريق، وخصوصًا بعد سلسلة الهزائم التي حلت بالإمبراطورية أمام الهجوم الفارسي من الشرق، والهجوم السلافي في الشمال .
وقد انعكست كل هذه الخلافات على وضع الرومان في مصر، حيث «لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر، بل وحدات متفرقة في الأقاليم بمقتضى سياسة «جستنيان» القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر ومنح جميع الحكام سلطة متسقة، روعي فيها التطابق؛ فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط »(139). وخصوصًا بعد ما طرد الرومان الفرس من مصر واكتفوا بوضع حاميات عسكرية في الوجه البحري .
ويذكر النقيوسي أن الرومان كانوا منقسمين على أنفسهم، وأنه «كان هناك نزاع كبير بين الرئيس تيودور والسادة »(140) ، مما يفسر فرار بعض القادة المحليين أمام جيش المسلمين وانضمام آخرين إلى جيش عمرو خوفًا من بطش الحاكم العسكري الروماني «تيودور ».
لقد غزا عمرو بن العاص المعسكر الروماني في لحظة ضعف عاتية، ويبدو أن عمرًا كان ملمًّا بتلك الأحوال عن طريق «أدلاء الشام»، مما يفسر رغبته في الإسراع بغزو مصر بعد ما ألم بالرومان من هزائم في الشام، وقبل أن يفيقوا من آثار الصدمة الأولى .
وإذا حاولنا تجميع مفردات الصورة العامة كما جاءت في مخطوطة يوحنا النقيوسي، سنلاحظ تقهقر الجنود الرومان ووحداتهم العسكرية تباعًا من الشرق إلى الغرب، أو مناطق الحصون عند رأس الدلتا وغربها، فيقول: «سار المسلمون إلى الصحراء، وأخذوا كثيرًا من الخراف والظباء من الجبل، ولم يعرف أهل مصر هذا »(141).
فهو لا يذكر هنا المواقع الحربية التي دارت في الشمال الشرقي مثل معركة الفرما أو معركة بلبيس أو غيرهما من المواقع التي أفاض المؤرخون الآخرون في ذكرها (٢) ، كما نلاحظ إشارته إلى تفكك الجيش الروماني، وبطء وصول المعلومات، أو إشارته لعنصر المفاجأة، حيث يقول: «لم يعرف أهل مصر هذا ».
وسمع «تاودسيوس» الحاكم ـ وهو سماع متأخر في هذا السياق وغريب في ذات الوقت نظرًا لاستمرار اقتحام الجيش العربي مدن الشام وسقوطها تباعًا حتى حدود مصر الشرقية ـ سمع «تاودسيوس» الحاكم بمجيء الإسماعيليين، وكان يسير من مكان إلى مكان ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء. «وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وكل من معه دون رحمة »(١) ، وفي الحال فتحوا المدينة، وعندما شاع الخبر فر بعض القادة إلى حصن بابليون .
ويشير النقيوسي إلى مواطن تركز الجيش الروماني في رأس الدلتا وغربها، حينما يذكر حصن بابليون الذي فر إليه القادة، ومسلحة نقيوس التي تراجع إليها الجند، ثم يذكر معارك أون (عين شمس) وطلب عمرو بن العاص من الخليفة أن يمده بمزيد من القوات، ويذكر تقسيم عمرو للجيش إلى ثلاثة أقسام: قسم عند طندونباس، وقسم عند شمال بابليون، وقسم عند أون. وانتصر العرب في المعركة، واستولوا على طندونباس، وتقهقر الرومان بعضهم إلى بابليون وبعضهم إلى مسلحة نقيوس .
ومع كل هزيمة كانت النزاعات تتسع بين القادة الرومان، وحتى «دمنديانوس» الذي كانت وحدته العسكرية تمثل نقطة مقاومة رومانية ضد العرب في الفيوم وبويط، هرب ليلًا «وسار بالسفينة إلى

نقيوس وعندما عرف المسلمون أن دمنديانوس هرب ساروا في ابتهاج واستولوا على مدينة فيوم وبويط، وأراقوا بها دمًا غزيرًا »(142).
وبدأ عمرو بن العاص يثبت أقدامه ويطلب من بعض حكام المدن مساعدته، فطلب من «أباكيري» في مدينة دلاس (أطفيح ببني سويف) أن يمده بسفن الريف لتنقله إلى شرق النهر، كما طلب من «جيورجيس » والي المقاطعة أن يشيد له قنطرة عند النهر بمدينة قليوب ليستولي على كل مدن مصر ومدينة أتريب (ناحية بنها) ومنوف وجميع ضواحيها، في ذات الوقت الذي كان يعسكر في بابليون، وقبض عمرو على كل من يخالفه من حكام الرومان: «وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب ونهب أموالًا كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمال وكان يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى »(143).
وهنا حدث ذعر عام في مصر، وكان الرومان يفرون من المدن الأخرى ليتحصنوا في الإسكندرية قبل أن يدركهم عمرو «يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية، وهجروا كل أموالهم وخزائنهم وحيواناتهم »(144).
وفي مقاطعة أخرى عند مدينة سمنود رأى الرومان هناك ضرورة قتال الجيش العربي، في ذات الوقت الذي كان القائد العسكري للرومان يحاول رأب صدع الخلافات بين رجاله المتناحرين، وظل عمرو «يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم »(145).
ويذكر النقيوسي المواطن التي قاوم أهلها الجيش العربي مثل سخا (كفر الشيخ)، ونوخود (من أعمال البحيرة)، ومصاي (من أعمال البحيرة أيضًا)، ودمياط، بالإضافة إلى مدن الشمال. وعودة عمرو دون تحقيق النصر عليهم إلى جنوده في بابليون «وأمر أن يمهدوا طريقًا من حصن بابليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين (رشيد) ليحرق هذه المدينة بالنار »(146) ، وحدث ذعر عام نتيجة تلك المحرقة الكبيرة. وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها، وأرسل قليلًا من المسلمين إلى مدينة أنصنا، مدينة مارية القبطية، «وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم في أن يحاربوا المسلمين، فأبى هو ونهض بسرعة مع جنوده. وجمع كل مال الضرائب من المدينة »(147). وهرب إلى الإسكندرية، وخضع أهل المدينة للعرب وقدموا لهم الضرائب، وكره سكان البلاد من القبط الروم الذين تركوهم مكشوفي الظهر وهربوا بعد أن سرقوا الأموال، ولذلك راح الناس يقتلون من يجدون من جنود الروم أمامهم .
ومات هرقل في ظل كل هذه الهزائم. وسلِّم حصن بابليون بعد أن أخذت حامية الحصن «قليلًا من الذهب وساروا»، وبعد أن عذبوا الأقباط الذين كانوا يسجنونهم، وقطعوا أيديهم قبل أن يرحلوا .
وهرب حاكم أباديا إلى الإسكندرية تاركًا جنوده نهبًا للذعر والقتل. ودخل الجيش العربي مدينة نقيوس «مكان الكوم الأثري الجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف »(148) ، ويقول البعض إنها قرية شبشير الآن، أو قرية أبشادي مركز تلا منوفية .
ثم يذكر النقيوسي الخلافات الدائرة بين الحكام الرومان في الوجه البحري، وانقسامهم إلى قسمين: قسم انضم إلى جانب المقاومة بقيادة «تيودور» الحاكم العسكري، وقسم أراد أن ينضم إلى المسلمين .
وبعد استيلاء العرب على كريون الواقعة جنوب الإسكندرية، ظهر كيرس البابا الخلقيدوني ـ أو المقوقس ـ وعقد اتفاقية التسليم وأداء الجزية، «واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالًا وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال »(149).

وهكذا نرى في مخطوطة النقيوسي: فقدان الثقة، والفرار ليلًا، والاحتماء بالحصون دون البروز في المعارك، ثم الفرار من موقع سقط إلى موقع آخر لم يسقط بعد. وكلها من أهم السمات الغالبة على الجيش الروماني. ويمكن تقسيم قادة الجيش الروماني إلى قسمين :
ـ المتعاونون مع العرب مثل: أحد رجال «أرمياس»، وقد دل العرب على مكان اختباء يوحنا الحاكم في الحظائر والمزارع. و«أباكيري» حاكم مدينة دلاس (أطفيح)، وقد أمد عمرو بن العاص بسفن الريف. و«جيورجيس» الوالي، وقد شيد لعمرو قنطرة عند النهر بمدينة قليوب، وكروديس وغيرهم .
ـ القادة المتذبذبون بين التعاون والندم على التعاون، مثل: «كلادجي» و«سبنديس»، وكلاهما كان مضارًا من عنف رؤسائه في الجيش الروماني، فانضم إلى العرب نكاية فيهم من جانب، ورغبة في تأمين النفس من جانب آخر. ثم ندما وعادا إلى صفوف الرومان، وعاد «سبنديس» إلى مدينة الإسكندرية «معترفًا بخطئه لدى السادة مع غزير الدموع ».
وسوف نجد أيضًا في مخطوطة يوحنا النقيوسي صورة ساخرة للقادة الهاربين، مثل «تاودسيوس» و«أنسطاسيوس» اللذين تركا البهنسا (قرب واحة سيوة) بعد سماعهما لقصة قتل يوحنا الحاكم ورميه في البحر، فتوجها في الحال إلى حصن بابليون، وبقيا هناك .
و«لمنديوس» الذي كان بمدينة فيوم، وسمع أن محاربي الإسلام قد استولوا على مدينة طندونياس وأفنوا ما بها من الجنود «ولم يبقَ منهم سوى 300 جندي» فنهض «لمنديوس» «ليلًا دون أن يخبر أهل بويط بأنه سيهرب من الإسلام وسار بالسفينة إلى نقيوس »(150).
و«دمنديوس» حاكم أباديا الذي «هرب بالسفينة وترك الجنود مع سفنهم... ولما رأى الجنود أن حاكمهم فر، تركوا عدة حربهم ونزلوا في البحر أمام أعدائهم فقتلهم جنود المسلمين بالسيف في البحر، ولم ينجُ منهم سوى رجل واحد فقط اسمه زكريا، وهو قوي محارب »(151).
وفي العموم، اتجهت حركة الهرب إلى ثلاثة مواقع ـ في مخطوطة النقيوسي ـ من الشرق إلى حصن بابليون، ومن حصن بابليون إلى حصن نقيوس (مركز منوف أو المنوفية) ، ومنه إلى حصون الإسكندرية. وبعد ذلك كان الهروب الكبير بالأموال والذهب والمنقولات إلى القسطنطينية. وبخلاف هؤلاء كانت هناك أعداد غفيرة لم يسعفهم الفرار، فحصدتهم السيوف العربية، أو أكلتهم نيران المحارق الواسعة .
وفي خلفية الصورة سنجد جموعًا غفيرة من المصريين ـ القبط وغيرهم ـ في القرى والمدن، كانوا ينتظرون في البداية تصدي الجيش الروماني للجيش الإسلامي «ليتلاقوا لقتال الإسماعيليين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكون وقت الزرع فلا يستطيعون الحرب، لئلا يتلف زرعهم فيموتون جوعًا مع صغارهم وحيواناتهم »(152).
ولكن كثرة الهزائم التي حلت بالرومان، وكثرة القتل والنهب التي أحدثها الجيش العربي، خلقت حالة من الفوضى والذعر؛ «خوف عظيم في كل مدن مصر ».
والمدن التي شرعت في المقاومة، كان عمرو بن العاص ينشب النار في أسوارها وبيوتها وطرقها وزروعها، مثلما فعل بمدينة دمياط التي «لم ترضَ عنه» والمدينة ذات النهرين، وغيرهما .
وأحيانًا أخرى، كان قتل من يقف في طريق الجيش العربي من المدنيين وسيلة الجيش الإسلامي في الاستيلاء، كما حدث عندما دخلوا مدينة نقيوس واحتلوها و«لم يجدوا أحدًا من المحاربين

وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس، رجالًا ونساء وأطفالًا ولم يشفقوا على أحد »(153).
«ونهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال وتقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه ـ يقصد مدينة نقيوس ـ فقيرة »(154).
ويبدو أن ما حدث فيها كان أكبر من الوصف، حتى إن النقيوسي يطالبنا بأن «نصمت الآن، فإنه لا يستطاع الحديث عن الإساءات التي عملها المسلمون حين استولوا على جزيرة نقيوس »(155).
وبعد وصوله إلى الإسكندرية «هدم بيوت السكندريين الذين هربوا، وأخذ أخشابها وحديدها، وأمر أن يمهدوا طريقًا من حصن بابليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينة بالنار »(156).
ويشير يوحنا النقيوسي إلى أن الجمهور المصري لم يأخذ وضع المتفرج الساكن السلبي، أو الفأر المذعور دائمًا أمام الاجتياح العربي، رغم أنه أعزل، بل كان نواة المقاومة في هذه المدن التي كان الحرق جزاءً لمقاومتها، وخصوصًا مدن الشمال، حتى إن عمرًا رئيس المسلمين «مكث اثني عشر شهرًا يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم »(157).
وحتى عندما كان عمرو يحرق مدينة كان أهلها يخرجون ليلًا ويطفئون مدينتهم على قدر استطاعتهم .
ونقطة الفصل في فهم موقف عمرو بن العاص من المصريين، ومن كيفية تعامله معهم، هي في النظر إلى مدى تمسك الشعب بالمقاومة أو عدم تمسكه بها، لأنه كان على استعداد لفعل أي شيء في سبيل إتمام الفتح، وكما قال النقيوسي إنه: «كان ذا اهتمام عظيم وكبير ظن في أن يستولي على مدينة مصر »(158). ولذلك فإنه لم يدخر وسعًا لتحقيق هدفه واستخدام كل وسائل الحرب في عصره، كما يقتضي منطق الفتح ـ الغزو ـ لإخضاع البلد المطلوب، وربما كان الحرق أو التهديد بالحرق أكثر وسائل عمرو بن العاص الموجهة ضد مقاومة العزل من سكان المدن، أما تلك التي سلمت سريعًا فقد كان يبادر إلى مضاعفة الضرائب فيها «ثلاثة أمثال» كعلامة من علامات الخضوع والتسليم .
فالأساسي لدى عمرو هو أن تدين له البلاد بالطاعة أو تدمر. إما أن تخضع أو تحرق. وهكذا بعد سلسلة من الحروب الدامية والمحارق الواسعة وهوان الهروب والتشرد، استكان المصريون للعرب، وتعاملوا معهم على أنهم أمر واقع لا يملكون تغييره. وأدرك عمرو من خلال بعض رجال القبط المتعاونين معه مدى الخلاف بين الكنيسة المصرية وبين الكنيسة الرومانية، كما أدرك ما للكنيسة المصرية ورجالها من أهمية وتقديس في قلوب الأقباط المصريين، فعمل على تأمين عودة الأنبا بنيامين ورجال الإكليروس، ومنحهم الأمان الذي افتقدوه في الأعوام العشرة السابقة على الفتح، «ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هربه من الروم وسار إلى كنائسه وزارها كلها »(159).
«وساد المسلمون مصر، وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددوها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام »(160).
وهكذا نصل إلى تلك الجملة التي اقتطعتها الدكتورة سيدة الكاشف لتدلل بها على سماحة الجيش العربي عند فتح مصر من خلال شهادة قبطي، بل من خلال أحد رجال الكنيسة القبطية المهمين

في ذلك الحين .
ولكن كما نرى: فإن إقرار السماحة الذي يذكره النقيوسي عن العرب قد مر عبر أهوال كثيرة ذاقها المصريون حتى خضعوا واستتبت الأمور للفاتحين الجدد، وفهم عمرو بن العاص أن التغاضي عن مال الكنائس هو الحصول على كل الثروة، بل هو مفتاح الخضوع الكامل للشعب القبطي المحب لكنيسته، والذي أخفى رجالها في الحشايا والضلوع لحمايتهم من الاضطهاد الروماني. وفي ذات الوقت الذي يفرح فيه هذا الشعب لعودة البابا بنيامين ورجال الإكليروس وتأمين أموال الكنيسة وممتلكاتها، يسوده الحزن والغم الشديد من جراء تزايد أعباء الضرائب والجزية والخراج.
وميزة النقيوسي الواضحة أن المكتسبات الجديدة لم تلف رأسه، بصفته أحد رجال الكنيسة المهمين، ولم تنسه ذكر ما ألم بالشعب، فيسترسل بعد ذكر المكتسبات مباشرة، ويقول: «ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابسًا، كما تعلم من تيودور العاصي، وزاد الضرائب قدر اثنين وعشرين عصا من الذهب، حتى اختبأ كل الناس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدون »(161).
وقراءة النقيوسي قراءة صحيحة لا تقتضي النظر للجانبين فحسب، جانب استخدام العنف للقضاء على مقاومة أهل البلاد، وجانب التسامح مع رجال الكنيسة القبطية أصحاب السلطة الروحية المهيمنة على الشعب، بل يجب النظر للجوانب العديدة التي تملأ مخطوطته، حتى إننا يمكن أن نرسم من خلال تفاصيلها الثرية صورًا للقادة المتصارعين، علها تكون جزئيات من الصورة الكلية للصراع لحظة الفتح العربي لمصر .

بورتريهات القادة في مخطوطة يوحنا النقيوسي

1 - هرقل

إمبراطور الروم القاطن في القسطنطينية، يضعه النقيوسي على رأس الأعداء الذين أنزلوا العذاب بالأقباط المصريين «أبناء الله العزل» أو «أبناء المسيح الطيبين» وهو الآن طريح الفراش يرى مملكته وسبب جبروته الأول تتكسر أمام ناظريه قطعة قطعة، وتضيع إلى الأبد، ورجاله يتساقطون كالهوام ويتركونه حزينًا يتسلم جثثهم ويودعهم مثواهم الأخير، ويرى نار الخوف والانقسام تأكل من بقي منهم: «كان هرقل حزين القلب لموت يوحنا رئيس القوم ويوحنا الحاكم اللذين قتلهما المسلمون»، وكان أحدهما هو الذي أخرجوا جثته بشبكة من البحر وبعثوها إليه يحمسونه ضد قاتليه العرب. ومن كثرة الهزائم في الشام وفلسطين ومصر، أخذت روح القنوط تسري في أوصاله المتعبة، وتمكن الحزن من قلب هرقل «وأخذ الله قوته» وجاءته الحمى الأخيرة تحصد ما بقي من أشلائه، و «بأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم والقوة التي لدى الملوك، مرض هرقل بمرض الحمى ومات »(162).

إلى جانب تلك الأسباب الإلهية العليا المتمثلة في غضب قبط مصر وكراهيتهم له، وبالتالي غضب الرب في السماء، يشير يوحنا إلى تجليات واقعية لأزمة الرئاسة والحكم: «كان الناس يقولون إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثلاثة ملوك إحداها صورته والاثنتان صورتا ابنيه، واحد من الجهة اليمنى والآخر من اليسرى، ولم يجدوا مكانًا يكتبون فيه اسم مملكة الروم، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاث »(163).

فالفرقة والاختلاف السياسيان وصراع الأبناء والأتباع والزوجة على الحكم تجري جميعًا أمام ناظري الإمبراطور وهو قعيد تأكله الحمى وأخبار الهزائم .

وجميعها أسباب لتنفيذ مشيئة الرب العادل - من وجهة نظر النقيوسي - لإنزال العقاب على الإمبراطور الطاغية (164).

2 - قيرس

ليس له وجود في أحداث المعارك الأولى وحتى سقوط حصن بابليون، إلا في إشارة عابرة تدل على أنه هو نفسه البابا الخلقيدوني الذي كان أداة هرقل لإنزال العذاب على المصريين أصحاب العقيدة الحقة .

ظهر كيرس «قيرس» في المخطوطة بوضوح بعد وفاة هرقل وبعد الهزائم المتتالية التي أصابت الروم، وبعد نجاح العرب في اقتحام حصن بابليون والسير إلى الريف ليستولوا عليه؛ عند ذلك: «نهض كيرس البابا وسار إلى بابليون حيث المسلمون، راغبًا أن يعمل سلامًا وأن يؤدي لهم الضرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقال له: حسنًا فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له: منحكم الرب هذا البلد، من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومة، وحددوا عبء الضرائب التي تؤدى »(165).

وهكذا قام كيرس «قيرس» بوضع لمسات التسليم الأخيرة، وأخذ الأمان للروم؛ فكانت هدنة استمرت أحد عشر شهرًا، هرب خلالها الروم الكثير من الأموال إلى موطنهم الأصلي، وعاد الكثير من رجالهم إلى هناك .

وبعد لمسات الاعتراف والتسليم التي قام بها كيرس «قيرس»، عاد إلى مقر حكمه بالإسكندرية، وأبلغ القادة العسكريين بما حدث لينقلوه إلى الملك هرقل، وغالبًا كان المقصود هنا ابن هرقل حيث كان الأب قد مات قبل ذلك .
وبعد أن بلغت الهزائم ذروتها، خطب كيرس في الجنود، «وقال لهم كلهم، إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل »(166).
وحينما انتشر نبأ المعاهدة حدثت فتنة عظيمة بالإسكندرية وثورة عارمة ضد هؤلاء الرومان المتقاعسين والمستسلمين للعدو العربي، وزحف الناس إلى مقر البابا الخلقيدوني وأرادوا أن يقذفوه بالأحجار، لكن بحكمته السياسية وكهنوته الديني خطب فيهم قائلًا: «إنما صنعت هذا لإنقاذكم مع أبنائكم. واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن، فاستحى منه السكندريون وأعطوه ذهبًا كثيرًا ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب التي حددوها عليهم. وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين، وسألوا البابا وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلادنا ونخضع لهم. فعمل لهم كما قالوا واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالًا وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال »(167).
وواضح أن كيرس «قيرس» كان خطيبًا مؤثرًا استخدم شتى الأساليب البلاغية والتمثيلية، حينما «استعطفهم بكثير من البكاء والحزن» فرقوا له، أو جعلتهم المأساة الشاملة يرقون ويحسون أن ظهورهم للحائط، وأنه لم يعد أمامهم إلا طلب النجاة وشراء الأنفس ببذل المزيد من الأموال والذهب لكيرس ليؤديها عنهم للعرب، هذا في ذات الوقت الذي انشغل فيه القادة الهاربون عن طريق البحر إلى القسطنطينية بنهب موسع جرى تحت غطاء دموع كيرس وأحزانه البادية من جهة، والفوضى الناتجة عن لحظات الاجتياح من جهة أخرى .
وينتهي دور كيرس «قيرس» بنفس الغموض اللازم لملامح رجل التسليم، فتنتابه الحمى، ويموت أيضًا أسيف القلب، «ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات »(168).
3 ـ تيودور
يحتل مساحة كبيرة في مخطوط يوحنا النقيوسي، ويبدو أنه كان بمثابة الحاكم العسكري لمصر، وأنه لم يتحرك للقاء الجيش العربي إلا بعد هزيمة رجاله في البهنسا، وحينما أسرع إلى تلك المنطقة لقتال العرب أخفق في الجولة الأولى .
و«بحث تيودور بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الذي غرق في البحر، وبعد حزن شديد أخرجه بشبكة ووضعه في نعش وأرسله إلى السادة، فأرسله السادة إلى هرقل »(169) فكان نذير شؤم للإمبراطور المحتضر .
ثم كان اللقاء الثاني له مع العرب في أون (عين شمس) فكانت الهزيمة الكبرى الثانية، وفر هو وجنوده إلى حصن بابليون، ودارت بعد ذلك معركته الثالثة مع العرب في كريون، وهزم فيها أيضًا .
وأمام هذه الهزائم المتتالية حاول «تيودور» أن يجمع شمل رجاله فبعث إلى «كلادجي»، الذي يبدو أنه فر من الجيش مع رجاله «ودعاه قائلًا: عد إلينا وعد إلى الروم. ووهب كلادجي تيودور كثيرًا من المال خوفًا منه حتى لا يقتل أمه وزوجته المختبئتين في إسكندرية. وطيب تيودور

الحاكم قلب كلادجي »(170). وتفوح من بين سطور النقيوسي السابقة أصابع الاتهام إلى «تيودور »:
هل كان قائدًا مرتشيًا سفاحًا يقتل زوجات وأمهات رجاله المتمردين؟
هل كان قائدًا سيئ السمعة حتى تفرق عنه رجاله وسط المعارك الطاحنة فكانت الهزائم المتتالية؟
النقيوسي يقول إن «تيودور» حاول أن يسترضي «سبنديس» أيضًا «الذي هرب من أيدي المسلمين وانضم إلى دمنديانوس لحرب الإسلام »(171).
ينضم إلى من؟ إلى «دمنديانوس » عدو «تيودور» وغريمه في الصراع الطاحن! إذن فقد كان «تيودور » يحاول أن يقتطع «سبنديس» من جبهة غريمه «دمنديانوس» ويضمه إلى جبهته هو، ولذلك كان أيضًا يتحالف مع «ميناس» وكلاهما ضد «دمنديانوس». وكل هذه الخلافات هي مجرد صدى لما يحدث في مركز الإمبراطورية هناك، وكلها تدور حول سؤال من يتولى الحكم بعد هرقل؟ ويبدو أن جبهة «دمنديانوس» كانت تخوض غمار مقاومة الجيش العربي، أما جبهة «تيودور» فكان التحلل يضرب فيها إلى الجذور، ولذلك فقد اشترك «تيودور» مع كيرس في مهام تسليم مدينة الإسكندرية للعرب، كما حاول أن يهدئ من ثورة الشعب ضد الرومان المستسلمين .
وفي النهاية تولى القائد المهزوم «تيودور» مهمة الإشراف على ترحيل الجيش إلى بلاده بعد تلك الهزيمة غير المشرفة .
4 ـ شخصيات عابرة وظلالها الغامرة
لونديوس
تكمن في مخطوطة النقيوسي ـ على الرغم من قصر الفصل الخاص بأحداث الفتح ـ شخصيات غير محورية، لكن وجودها والوصف المقترن بها يضفي نوعًا من حيوية الحقيقة، ويغني عن آلاف التعليقات مثل شخصية «لونديوس» حاكم إحدى المدن الذي بعثه «تاودسيوس» و«أنسطاسيوس» القائدان اللذان هربا إلى حصن بابليون بعد واقعة قتل يوحنا ورميه في البحر، ومن هناك «أرسلا لونديوس الحاكم إلى مدينة بويط، وكان هو بدين الجسم ليست به قوة. لا يعرف شأن الحرب، وعندما وصل وجد جنود مصر وتيودور يقاتلون الإسلام... وأخذ نصف الجنود وسار إلى بابليون ليخبر السادة »(172).
وهكذا يختبئ القادة في الحصن ويبعثون برجل بدين مترهل، لا شأن له بالحرب، وحينما يصل متأخرًا إلى ميدان المعركة ينظر إلى القتال الدائر نظرة مراقب خارجي، ويأخذ نصف الجنود إلى الحصن ـ فهل كانوا هاربين ويريدون الاحتماء بالحصن ـ ويترك «تيودور» في المواجهة مع النصف الآخر ويعود في هدوء .
أسقوطاوس
يذكر النقيوسي أن عمرو بن العاص وجيش المسلمين بعد أن فتحوا مدينة نقيوس، ساروا إلى أماكن أخرى حولها ونهبوها وقتلوا كل من فيها حتى وصلوا إلى مدينة قصا فوجدوا «أسقوطاوس» هذا «ومن معه موجودين في ساحة الخمر، فقبض عليهم المسلمون وقتلوهم »(173). كما ذكر أنهم كانوا يمتون بصلة قرابة إلى «تيودور» الحاكم الروماني .
ميناس الروماني

عينه الإمبراطور هرقل، قبل الاجتياح العربي لمصر، حاكمًا على الوجه البحري، ويبدو أنه كان حاكمًا ظالمًا ويفوق غيره في التعسف ضد الشعب المصري، حيث يصفه النقيوسي بأنه: «كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب، يكره المصريين جدًّا»، وما لبث غير زمن قصير في منصبه الروماني حتى استولى العرب على مصر .

واتبع عمرو بن العاص سياسة الإبقاء على بعض الرومان في مناصبهم لضمان استمرار نظام جباية الضرائب وجمع الأموال. واختار عمرو بن العاص «ميناس» قاسي القلب «بما لا تعرفه الكتب» ليستمر في منصبه، رغم ما عرف عنه من ضراوة وشراسة ضد المصريين، وربما كان هذا سبب اختياره. كما عين رجلًا لا يقل عنه شدة، ويدعى «سينودا»، عينه في بلاد الريف. أما «فيليكانوس» فقد عينه في مدينة أرجاديا التي هي الفيوم. «وهؤلاء ثلاثتهم يحبون الوثنيين » ، أي يحبون العرب، بينما «يكرهون المسيحيين ـ أي القبط المصريين ـ ويضطرونهم أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات، وبأعمال أخرى كثيرة وهذا كله كان مضافًا إلى الطعام »(174).

ولم يكتفِ ميناس الروماني بمقدار الضرائب التي يجبيها لعمرو بن العاص وللعرب ـ وكانت ثقيلة بما يكفي، ومقدارها 32750 (اثنان وثلاثون ألفًا وسبعمائة وخمسون) دينارًا ذهبًا على المدينة ـ وكان غليظًا قاسي القلب على الناس حتى لم يستطيعوا أن يسددوا المقدار المفروض عليهم، وكانوا يتنازلون عن أولادهم لقاء تسديد جزء من هذه الضرائب .

وحينما زادت شكوى الناس منه إلى الحد الذي يهدد بحدوث عصيان، وتوقف عن تسديد الضرائب كليًّا، عزله عمرو بن العاص، وعين رومانيًّا آخر ويدعى «يوحنا الدمياطي» الذي كان يظهر الشفقة والحزن على الفقراء «وكان يبكي ألمًا لما أصابهم»، إلا أن دموعه لم تمنعه من التعاون مع «تيودور»، الحاكم العسكري من قبل، وعمرو بن العاص من بعد، وهما رأس حربة الجيوش المستنزفة للشعب، مرة من قبل الدولة الرومانية، ومرة من قبل الدولة الإسلامية .

صوت قبطي آخر

بعد حوالي أربعة قرون من أحداث الفتح العربي لمصر، ومن كتابة يوحنا النقيوسي لمخطوطته سابقة الذكر، كتب ساويروس بن المقفع أسقف الأشمونين كتاب «تاريخ البطاركة» وهو تجميع لسير آباء الكنيسة المصرية من مارمرقس حتى تاريخ عصره في القرن العاشر الميلادي .

وساويروس صوت رسمي للكنيسة المصرية، وفي حياته السابقة على الرهبنة ودخول سلك البطريركية، كان يعيش في الأوساط الرسمية لبلاط الخليفة المسلم، وحياته ـ كما يؤرخها من جاء بعده ـ بدأت في القرن العاشر الميلادي بين سنتي 905-910م، وتربى تربية دينية، والتحق بوظيفة كاتب في بلاط الدولة الإخشيدية، حتى أصبح كاتبًا ماهرًا في ديوان الخليفة، مما يدل على أنه كان متضلعًا في اللغة العربية، ملمًّا بآداب عصره وأسرار الكتابة وفنونها، وعُرف في هذا الوقت باسم أبي البشر بن المقفع الكاتب، وعرف أبوه باسم المقفع، أي المنكس الرأس أبدًا، أو «من كانت يده متشنجة»، فعرف هو باسم ابن المقفع، ولقب أبي البشر الذي حمله لم يكن يعني أن أباه سماه بشرًا، وإنما يدل على أنه كان شخصًا محترمًا ذا مكانة عالية، إذ لم يُكَنَّ «أهل مصر المسيحيين بأبي فلان إلا إذا كانوا ذوي قدر وعلو شأن ».

ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بن المقفع وظيفته وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهب في أحد الأديرة في البرية، «ولما كان ذا علم وفضل ذاع صيته بين المسيحيين فاختاره أراخنة الشعب ـ أي قادته ـ والبطريرك «كليسام» أسقفًا على مدينة الأشمونين، وكانت يومئذ مدينة عظيمة لها شهرة في التاريخ المصري، وهي الآن قرية بمركز ملوي ـ مديرية أسيوط، فغير اسمه وعرف بأنبا ساويروس »(175). وكان ساويروس محبًّا للكتابة، له مؤلفات عديدة يجادل فيها أصحاب المذاهب والأديان الأخرى لإثبات صحة العقيدة القبطية .

وقد جمع ما توافر في الأديرة من سير الآباء المصريين، أو كما يقول هو في مقدمة كتابه:

«استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم »(176).

فجمع تلك السير من الديور المختلفة، وعمل على ترجمتها وصياغتها من جديد، فجاء كتابه في أربعة أجزاء، يعنينا منها الآن الجزء الأول الممتد من مارمرقس وحتى البابا يوساب، الأب رقم 52 للكنيسة .

وحينما يكتب ساويروس عن تلك الفترة، فإنه ينظر إلى أحداث القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي من مسافة بعيدة نسبيًّا، فيرى الصورة الإجمالية لتلك السنوات، وقد سقطت منها تفاصيل الأحداث وبعض صور المذابح ورائحة المحارق، ووقع سياط السخرة أثناء حفر خليج تراجان، أو قناة أمير المؤمنين كما سُميت بعد ذلك، وتلاشت صور جمع العبيد وشحنهم إلى مكة والمدينة، وبقيت لديه صورة عامة مختصرة تتلخص في سطرين :

«بعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون الروم فلما رأى رؤساء المدينة هذه الأمور مضوا إلى عمرو وأخذوا أمانًا على المدينة لئلا تنهب »(177).

ويبدأ ساويروس في الإفاضة، حينما يصل إلى نقطة إدراك عمرو لأهمية رجال الكنيسة الأرثوذكسية ورجال الإكليروس، وندائه الموجه إلى البابا بعودته إلى بيعه آمنًا أينما كان .

وبعد عودة البابا بنيامين أكرمه وقال لأصحابه وخواصه: إن في جميع الكور التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل الله يشبه هذا ـ وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدًّا جيد الكلام بسكون ووقار ـ ثم التفت عمرو إليه وقال له: «جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم، وإذا أنت صليت عليَّ حتى أمضي إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر وأعود إليك سالمًا بسرعة، فعلت لك كل ما تطلبه مني، فدعا له القديس بنيامين وأورد له كلامًا حسنًا أعجبه هو والحاضرين عنده، فيه وعظ وربح كثير لمن يسمعه وأوحى إليه بأشياء وانصرف من عنده مكرمًا مبجلًا، وكل ما قاله الأب الطوباني للأمير عمرو بن العاص وجده صحيحًا لم يسقط منه حرف واحد »(178).

وكان ذلك بداية التعاون المزدوج بين الكنيسة التي أوحى بطريركها إلى القائد العربي بأشياء، وعمرو الذي طلب منه أن يصلي من أجله حتى يفتح المدن الخمس ويعود، تلك المدن التي استخدمت فيها المراكب المصرية، وسخر للعمل فيها البحارة الأقباط، وقد أتى هذا التعاون المرحلي بينهما على أرضية إحراق عمرو بن العاص لبِيَع الأقباط وكنائسهم بعد دخوله الإسكندرية، ومنها حرق كنيسة مار مرقس التي سيسمح لهم بإعادة بنائها بعد ذلك نظير تعاونهم معه .

وساويروس يسند إلى شخص «الدياقون بطرس » ـ الذي أشار إليه النقيوسي في مخطوطته ـ أنه لعب دور المتعاون مع العرب، وقدم لهم المراكب وكل ما يحتاجونه لإتمام عملية الفتح والانطلاق غربًا، لقاء مساهمته في عودة البابا بنيامين إلى منصبه الرسمي .

وفي الوقت نفسه الذي كان البابا يصلي فيه لأجل عمرو ويوحي إليه بأشياء، كان عمرو يسوق المصريين لتجهيز مراكب غزو شمال إفريقيا .

واهتمام ساويروس بن المقفع لا ينصب على ذكر المواقع الحربية بقدر اهتمامه بتسجيل كل ما يخص الكنيسة القبطية ورجالها. ولقد أدرك عمرو بن العاص، بدهائه السياسي، أهمية تحييد الكنيسة القبطية، ومنحها بعض الامتيازات الخاصة، لأنها الجهة الرسمية الطافية على سطح الشعب القبطي، فبدأت تحت تلك المظلة: «عمارة ديارات وادي هبيب والمنى وكانت أعمال الأرثوذكسيين الصالحة تنمو وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على لبان أمهاتهم. فلما عاد عمرو إلى مصر خرج منها إلى معونة كبيرهم ـ يقصد الخليفة عثمان بن عفان في المدينة ـ وأُنفذ إلى مصر عِوَضُه رجلٌ يسمى عبد الله بن سعد »(179).

لكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح يختلف عن عمرو في أنه لم يراعِ الاستثناءات السياسية، ولم يرفق بأحد حتى ولو بهدف تسكين جانب على حساب جانب، فاشتد مع الكنيسة واشتد مع الشعب القبطي، واشتد حتى مع جنوده العرب من ذوي الأصول اليمنية، ولم يكن مهتمًّا سوى بجمع الأموال وشحنها إلى الخليفة، وزاد خراج مصر في عهده زيادة كبيرة، ويعلق ساويروس على هذا الوضع بقوله :

وصل ـ يقصد عبد الله بن سعد ـ ومعه خلق كثيرون، وكان محبًّا للمال، فجمع له بمصر أهرًا وهو أول من بنى الديوان بمصر، وأن يستخرج فيه جميع خراج الكورة وحدث في أيامه غلاء عظيم لم يحدث مثله من زمان «أقلوديس» الملك الكافر وإلى أيامه، وانحدار كل من في الصعيد إلى الريف في طلب الغلة، وكان الموتى مطروحين في الشوارع والأسواق مثل السمك الذي يرميه الماء على البر لا يجدون من يدفنهم، وأكلوا بعضهم بعضًا ولو لم يترأف الرب بكثرة رحمته وصلاة أبينا

بنيامين القديس، ليزول ذلك الغلاء بسرعة، كان قد فني كل من في كورة مصر، لأنه كان يموت كل يوم من الناس ربوات لا يحصين (180).
ولم يدم الحال لابن أبي سرح الذي كان له خُمس الخُمس من الغنائم، بخلاف ما جمعه من أموال مصر، وكانت أحداث الفتنة الكبرى ثم عودة عمرو بن العاص مرة أخرى إلى ولاية مصر، وعادت معه علاقة مراعاة الكنيسة المصرية ورجالها .
وبعد وفاة عمرو بن العاص وتولي مسلمة بن مخلد في مدة ولايته الطويلة التي استمرت خمس عشرة سنة وأربعة أشهر من 47هـ إلى 62هـ، يحكي ساويروس واقعة حدثت في زمنه، وملخصها أنه «جمع سبعة أساقفة وأنفذهم إلى سخا بسبب قوم على أنهم كانوا يحرقون بالنار من القوم المستخدمين ليكشفوا عن جريرتهم، فوصلوا واجتمعوا بإنسان أرخن بسخا اسمه إسحق وسددوا مالهم وأعفوا من الحريق »(181).
ولو حاولنا فك طلاسم حكاية ساويروس فسنجد أن مسلمة بن مخلد قد استعان برجال الكنيسة المصرية لحل الأزمة المتصاعدة في سخا ـ وهي إحدى المدن التي أمر عمرو بن العاص بحرقها أثناء الفتح بسبب مقاومتها ـ ويبدو أن السلطات العربية التي استمرت في سخا كانت تستخدم أسلوب إحراق المتمردين، أو الرافضين لدفع الضرائب، حتى لا تتصاعد المقاومة في منطقة لها مثل هذا التاريخ، وجملة «سددوا مالهم وأعفوا من الحريق» التي يذكرها ساويروس تؤكد أن هؤلاء القبط لم يدفعوا ضرائبهم أو حمولهم لسبب أو لآخر، ومن ثم حكم عليهم القائمون بالأمر بالحرق، وأن المنطقة كانت على شفا الثورة نتيجة لهذه الأحكام القاسية .
لكن رجال الكنيسة الموفدين من عند الوالي استطاعوا بعد اجتماعهم بالأرخن المحلي إقناعه بتسديد الضرائب بدلًا من هؤلاء البائسين وتهدئة الموقف. وبعد نجاح مهمتهم عادوا إلى مسلمة بن مخلد ينبئونه بنجاح مهمتهم في تسكين ثورة الشعب القبطي، فكافأهم بالموافقة على بناء الكنيسة .
وربما هدأ الموقف في سخا بعض الوقت، ولكن ليس إلى الأبد، فسوف تتجدد الاضطرابات مرة أخرى زمن قرة بن شريك، عام 90هـ، وكان قرة محبًّا لجمع المال «نهب جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يرفع فيهن الدم الزكي »(182) مما اضطر الكنيسة إلى استخدام كاسات من الزجاج بدلًا من كاسات الذهب والفضة التي نهبها، كما كان يستولي على أموال رجال الكنيسة القبطية بعد وفاتهم، مما يعد كسرًا لقانون الكنيسة المعمول به منذ زمان طويل، والقاضي بأن الكنيسة هي وارثة رجالها. «كما زاد مقدار الضرائب المفروضة على الناس، وكان القبط يفرون من القرى بنسائهم وأولادهم من قسوة رجال قرة، وولى قرة رجلًا من مدينة سخا يبدو أنه كان مشهورًا بالشدة لأنه كلفه بجمع القبط الهاربين من قراهم »(183).
ولم ينقذ مصر من هذا الظلم الفادح سوى وفاة قرة بن شريك بعد أن قتل الوباء نساءه وغلمانه، ثم أصابه هو الآخر وأودى بحياته .
وشدة هجوم ساويروس بن المقفع على قرة بن شريك لا تنبع من قسوة هذا الوالي على الشعب فقط، وإنما تعود إلى قسوته على رجال الكنيسة واستيلائه على أموالهم، كما رأينا في الفقرة السابقة. ذلك أن ولاة مصر التالين لم يتحلوا بنفس الذكاء السياسي الذي تحلى به عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد اللذان أعطيا الكنيسة بعض المميزات بعد أن أدركا طبيعة العلاقة بين الكنيسة والشعب من جهة، والكنيسة والسلطة الحاكمة من الجهة الأخرى .

أما هؤلاء الذين كان يبلغ بهم العسف حد البطش فكانت التمردات تتسع في عصورهم، وسنلاحظ تصاعد ثورة القبط على الولاة العرب التي تزداد منذ 107هـ، وتتصاعد في سلسلة من التمرد والقمع يسجلها ساويروس بقوله :
من بعد موت قرة أنفذ الوليد عوضه إلى مصر واليًا اسمه أسامة، فلما وصل الفسطاط التمس علام جميع الكور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم، فلما بدأ بذلك حدث غلاء عظيم لم يُسمع بمثله من الجيل الأول، ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرف جميع الأغنياء والفقراء على الموت، ثم إن رخاء عظيمًا أقبل حتى انتهى القمح إلى خمسة وعشرين إردبًا بدينار، وبعد قليل وافى أيضًا وباء فأفنى العالم ولو لم يرحم الرب من بقي منهم على الأرض لم يبقَ منهم أحد، وكان الأمير مقيمًا على فعله السوء وكل المسلمين والنصارى خائفون منه، ثم تقدم ألا يؤوى أحد غريبًا في البِيَع ولا الفنادق ولا في السواحل، وكانوا خائفين منه وطردوا من كان عندهم من الغرباء، وتقدم إلى الرهبان أن لا يرهبوا من يأتي إليهم، ثم أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليُعرف، ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام وكان في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان وضيق على المؤمنين، وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه، ويبقى أعرج، ولم يكن يحصي عدد من شوه به على هذه القضية وحلق لحى كثير وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمة، وكان يقتل جماعة تحت العقوبة بالسياط، وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضروا إليه مالهم ويكاتبهم ويقول سلمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس فاحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحدًا، وأي موضع نزلتموه فانهبوه، كانوا يخربون المواضع ويقلعون العمد والأخشاب، ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار، والنبيذ أربعين مطرًا بدينار، والزيت مائة قسط بدينار، وكل من معه شيء يخاف عليه أن يظهره لئلا يعاقب، ومن الضيق والضنك هم الناس ببيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد (184).
وتشدد الوالي في عمل سجل لكل إنسان يكتب فيه اسمه وموطنه وعمله، ومقدار الضريبة المفروضة عليه، ثم لا يسمح لأي إنسان بالتحرك من موضع إلى آخر إلا بعد إظهار سجله، وفعل نفس الشيء مع المراكب ومن لا يدفع «تنهب المراكب وما فيها وتضرب بالنار »(185).
وقبض في زمنه على عدد كبير من الروم وأدار فيهم القتل وتقطيع الأطراف مما كان له أسوأ الأثر على حركة التجارة الداخلية والخارجية «فانقطع الطريق ولم يبقَ من يسافر ولا يبيع ولا يشتري، وثمرات الكروم تتلف ولم يبقَ من يشتريها بدرهم واحد لأجل قيام أربابها عند داره شهرين ينتظرون السجل بالإفراج عنهم »(186).
ووسط هذه المسلخة العامة التي لم ترحم قبطيًّا سواءً أكان تابعًا للكنيسة أم غير تابع، من رجالها الرسميين أم من عامة الشعب، يحكي ساويروس قصة أرملة قبطية أخرجت بعد وفاة زوجها سجلًّا لها ولولدها اليتيم حتى يتمكن من العمل فتعيش من أجر عمله، وفي رحلة البحث خرجت به من الإسكندرية إلى مدينة صغيرة تسمى أغراوة وهناك «خرج الصبي إلى البحر يشرب ماء فخطفه التمساح والسجل مربوط معه، وأمه تبكي وتحترق عليه فرجعت إلى الإسكندرية فأعلمت الأمير غير المؤمن ما جرى عليها فلم يترأف عليها بل اعتقلها حتى وزنت عشرة دنانير بسبب السجل،

وأنها دخلت المدينة بغير سجل، وباعت ثيابها وكل ما لها وطافت تتصدق حتى أوفت العشرة دنانير »(187).

أما الرهبان الذين وجدهم بغير حلق في أيديهم «فمنهم من ضربت رقبته ومنهم من مات تحت السياط» وأغلق البيعة طالبًا ألف دينار غرامة مع غرامة دينار عن كل راهب. وهددهم إن لم يدفعوا هدم البِيَع وخربها وسرح الرهبان للعمل في مراكب الأسطول مما أقلق شيوخ الرهبان، فصاروا يجتمعون بأعداد كبيرة للصلاة والتضرع .

وظل الوضع على مأساويته السابقة حتى عزل هذا الوالي بأمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز وقبض الوالي الجديد على «أسامة البائس» وقيد رجليه بربطهما في طوبة حديد ووضع يديه في خشبة ورماه في سجن مظلم بالإسكندرية، وما كاد الناس يفرحون بتلك الإجراءات حتى بدأت الإجراءات الصارمة للخليفة الذي أمر بعزل جميع الأقباط من دوائر العمل بالدواوين، كما أمر بأن تفرض جزية من أسلم على بقية الأقباط الذين لم يسلموا، وبذلك تزداد نسبة أعباء الضرائب على الأقباط بينما يحاول الخليفة أن يبدو متسامحًا .

وهذا السلوك المزدوج من الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل ساويروس يشبهه بالدجال ويفرح بسرعة هلاكه، وكانت الإجراءات ذات الطابع المضطهد للأقباط في تزايد مستمر .

وجاءت أول قرارات الخليفة التالي لعمر بن عبد العزيز أشد جهامة أيضًا، حيث أمر بعودة الضرائب على الكنائس والبِيَع وأمر «بكسر كل الصلبان وكشط الصور التي في البِيَع »(188).

ثم جاء الخليفة هشام بن عبد الملك فأظهر تسامحه مع الكنيسة، لكنه سرعان ما عين واليًا شديد القسوة، يذكر ساويروس بن المقفع أن اسمه عبيد الله، وأنه «أحصى الناس والبهائم وأحصى الأراضي حتى البور منها، وختم بختم الرصاص في حلق كل الناس، وجعل علامة الأسد على أيدي النصارى، ومن ليس على يده علامة تقطع يده ويخسر خسارة عظيمة»، كما ضاعف الخراج على الناس حتى هلكوا .

وقبض على بطريرك النصارى حتى يختمه هو الآخر، ويذكر ساويروس أن البطريرك ظل يصلي في محبسه ثلاثة أيام حتى يموت قبل أن يتمكن الوالي من وسمه، وأن الله استجاب دعاءه ولم يمكن أعداءه منه، بينما تمكن رجال الوالي من راهب آخر كان بصحبة البطريرك «فنزعوا عنه ثوبه وألبسوه مسخ شعر وعلقوه بذراعيه وهو عريان، وجميع الشعب ينظرونه وهم يضربونه بسياط من جلد حتى جرى دمه على الأرض »(189).

ويسترسل ساويروس في ذكر المصائب التي حلت بأقباط مصر على أيدي هؤلاء الولاة بما يفوق تعذيب الرومان للرهبان في فترة الشدة العظمى، وفرضهم الضرائب على رهبان ورجال الكنيسة مما لم يكن مسبوقًا أبدًا في العهود السابقة .

وقد تمكن الوالي عبد الملك بن مروان 132هـ من القبض على الأنبا خائيل، بطريرك الكنيسة المصرية، وعدد من الأساقفة، وسجنهم ـ كما يقول أحدهم ـ «في خزانة مظلمة لا تنظر منها الشمس وليس فيها طاق، لأنها كانت نقرت في حجر، وكان أبونا البطرك تحت ضيق عظيم من التكبيل بالحديد من الحادي عشر من توت إلى الثاني عشر من بابة، لم ينظر في هذه المدة شمسًا، وكان في الاعتقال معه ثلاثمائة رجل، ونساء أيضًا معتقلات في ضيق أكثر من الرجال والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويغلق المتولي السجن علينا ويمضي ولا يعود إلى سابع ساعة من النهار »(190).

وظل الأنبا خائيل ورجاله محبوسين في تلك المغارة الجبلية الموحشة مع ما يقرب من ثلاثمائة بائس وبائسة حوالي سبعة عشر يومًا حتى أمر الوالي بإحضارهم وطالب البطريرك بسداد الضرائب قائلًا له :
بيعك كلها بغير خراج، وأنا مطالبك عنها بما يجب عليها، وضيق عليه، فقال له: إذا كان هكذا ائذن لي أن أمضي إلى الصعيد مهما دفعوا لي النصارى وساعدوني به أحضرته لك، فأطلقه وخرجنا ـ كما يقول أحدهم ـ من عنده وسرنا إلى الصعيد (191).
وهكذا أطلق الوالي بطريرك الكنيسة المصرية ليشحذ له من شعبه، وجمع البطريرك من شعبه الفقير ما استطاع جمعه، وعاد إلى الوالي الذي أخذ ما تصدق به النصارى على البطريرك ثم أطلقه .
ثم تتالت أحداث سقوط الدولة الأموية سريعة مدوية، بكل ما صاحبها من انهيار وتخبط وشره إلى النهب السريع، وأمام زحف العباسيين من الشرق هرب الخليفة مروان بن محمد إلى مصر، بعد أن أشعل النار في جميع المدن والقرى التي تركها خلفه .
ووصل إلى مصر أثناء ثورة البشموريين بقيادة مينا بن بقيرة وثورة أهل شبرا سنباط، وفشلت حملات الوالي العسكرية في تسكين الثورة وإخضاعهم عدة مرات، ففكر الوالي في استخدام الأنبا خائيل لتسكين الشعب القبطي الثائر، الأمر الذي سيتكرر بعد ذلك في ثورة البشموريين الثانية تحت مظلة الخلافة العباسية وفي عهد الخليفة المأمون الذي اضطر إلى أن يأتي مصر بنفسه ليقود حملة القضاء على البشموريين بعد أن فشلت جهود واليه في القضاء عليهم، وسوف يستخدم المأمون رجال الكنيسة في تهدئة الثورة. هذا وقد قبلت الكنيسة ـ غير مرة ـ القيام بدور الوسيط لتهدئة روح الثورة العارمة، وكتب الأنبا يوساب لشعب البشموريين يعظهم: «قال لسان العطر بولس كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله، والذي يقاومه يدان »(192) ، فيعلن بذلك أن معصية الحاكم من معصية الله مطالبًا شعبه بالخضوع للخليفة المسلم .
أما في حالة مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بني أمية ـ فقد جاء مصر ووجدها في حالة اضطراب وفوضى من جراء سياسته وسياسة واليه؛ «فالسجون كانت غاصة بالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل يؤنس السمنودي»، وقد رأى البشموريين أن يقوموا بحرب العصابات بدلًا من الحرب النظامية ليستطيعوا أن يفتوا عضد الوالي. وكان رئيس البشموريين واحدًا منهم اسمه مينا بن بقيرة. فكان يخرج هو ورجاله ليلًا يقتلون وينهبون ويشيعون الفزع بين الجند المرابطين في حدود مديريتهم. ثم يختبئون في النهار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التي تكتنف أراضيهم والتي لا يعرف مخاضاتها غيرهم (193).
وقد رأى مروان مفاوضة البشموريين بإزاء حرج موقفه من القوات الموالية لأبي العباس، لكنهم رفضوا المفاوضة وأصروا على القتال .
وزاد الموقف اشتعالًا عصيان والي الإسكندرية، وإعلانه الاستقلال بحكم المدينة، «فضاق مروان ذرعًا بهذه النيران المشتعلة حوله من كل جانب، ولم يجد بُدًّا من إرسال حوثرة، أكثر قواده بطشًا، لقمع الثورة في الإسكندرية فقهر حوثرة الجيش السكندري وفتك بالأهالي فتكًا ذريعًا. وفي ثورة غضبه ألقى القبض على الأنبا خائيل وزعماء القبط »(194).
وبعد وضعهم في السجن طلب حوثرة من البابا التدخل لتهدئة ثورة البشموريين «ففك قيوده واقتاده إلى رشيد ومن هناك استكتب البابا السكندري خطابًا إلى البشموريين» وأخبرهم فيه بكل ما أصابه

من آلام، وحمَّل الثائرين وزر عذابه ولامهم على تماديهم في العدوان. وحينما قرأ الثوار خطاب البابا اشتد غضبهم وضاعفوا هجماتهم على جنود الوالي .
وفي الوقت نفسه الذي كانت الأزمة تشتد فيه حول الخليفة الأموي وتحاصره من كل جانب، دفعه اليأس والرغبة في الانتقام إلى حرق مدينة الفسطاط، ويصف ساويروس مشهد فزع الناس وهربهم قبل الحريق بقوله :
وما إن أخذ عازف البوق يعلن أهالي الفسطاط بوجوب إخلاء المدينة، حتى تملكهم الفزع. فخرجت جموعهم على غير هدى متجهة نحو الجيزة والجزيرة. وكانوا يتزاحمون على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتدافعون بغير وعي، فغرق العدد العديد منهم، كذلك تناسى الناس في رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم. وحين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التي حددها لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم، بل أمر بإشعال النار في المدينة وهم فيها. فراحوا جميعًا ضحية اللهيب المتقد، ونظرنا النار صاعدة في الفسطاط وأخبرونا أن مروان أحرق مخازن غلة وقطن وتين ومخازن الشعير (195).
تلك المحاصيل التي جمعت من الفلاحين الأقباط بالقهر والعنف، يشعل فيها ابن محمد النيران الآن حتى لا تقع في أيدي أعدائه من المسودة ـ يقصد العباسيين ذوي الرداء الأسود ـ القادمين لحكم مصر تحت مظلة الدولة العباسية .
وأكلت النار مدينة الفسطاط التي بناها العرب عام 20هـ، وأحرقها العرب أيضًا عام 132هـ .
وكان أسلوب الحرق والتدمير هو الأسلوب الشائع في تأديب الأقباط المصريين، ولنا أن نقيس على ما يذكره المؤرخون عن مدينة طحا في الصعيد، التي كان يسكنها «في صدر الإسلام خمسة عشر ألف نفس، وكلهم من المسيحيين، وبها ست وثلاثون كنيسة أغلبها تهدم في العهد الأموي، وخاصة في خلافة مروان، لرفض أهلها دفع الخراج فطردهم عامله ولم يعد منها إلا كنيسة مار مينا »(196).
وإذا كان نصيب مدينة واحدة تدمير خمس وثلاثين كنيسة، وتشتيت أهلها، بخلاف تدمير البيوت وأراضي الممتنعين عن دفع الخراج، فكيف كان نصيب المدن الأخرى المتمسكة براية المقاومة زمنًا طويلًا .

الوقائع المشتركة بين مؤرخي القبط والمؤرخين العرب

إزاء وقائع النقيوسي وساويروس بن المقفع الصارخة، وتفاصيلهما الحادة عن الفتح العربي لمصر، يتجاهلهما الكثير من الباحثين وينحيانهما جانبًا بدعوى أنهما قبطيان متحاملان على العرب، وبالتالي لا يصح الأخذ بشهادتهما، فظلا لقرون طويلة يسكنان وادي الصمت المطبق ـ مع كل الأصوات المنفية ـ جزاءً لهما على مخالفتهما للنشيد العام، حتى جاء بعض الباحثين المحدثين واستدعوهما واستشهدوا بهما ولكن بعد تقطيعهما وتقديمهما على طبق الموضوعية المعد بإحكام وقوة بما يوافق ذات السياق الثابت لصيغة التسامح المطلق غير القابل للشك .

وأمام هذا الإصرار العام على تجاهل، أو تقطيع الصوت القبطي، والتعامل معه كما لو كان مجرد كورس موقعه في الخلفية فقط، حيث وضعه الفتح العربي، سنخضع ـ نحن أيضًا ـ لذات قوانين السيادة وننحي الصوت القبطي جانبًا، ونعود إلى التعامل مع البطل «التاريخ العربي» مرة أخرى، سنتركه يسترسل في ذكر بطولاته عن قهر الجيران والاستيلاء على ممالكهم. ولكن ما بال تلك المقاطع الصغيرة القلقة تقطع السياق العام، وتشير إلى نفس وقائع النقيوسي وساويروس؟! ما بال الطبري والبلاذري والسيوطي والمقريزي يذكرون ـ أحيانًا ـ ما يتفق مع الصوتين القبطيين؟

صحيح إنها إشارات عارضة، ولكن اختلاف المواقع هو الذي يؤدي إلى تحديد الرئيسي منها والثانوي لدى كل من الطرفين، ونحن لا نستطيع الحديث عن التسامح العربي بضمير هادئ، والطبري يذكرنا بأن الجيش العربي الفاتح قد أسر أعدادًا كبيرة من المصريين، أو أن صفوف العبيد من القبط امتدت من مصر إلى المدينة، فينقل عن رجل من أهل مصر ـ أو بمعنى أصح من عربي سكن أرض مصر، وكان في جند عمرو بن العاص أثناء الفتح ـ أنه قال : «لما افتتحنا باب اليون تدنينا قرى الريف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية فقرية، حتى انتهينا إلى بلهيب ـ وهي منية الزناطرة بالبحيرة، ومحلها اليوم فزارة بمركز المحمودية ـ قرية من قرى الريف يقال لها قرية الريش، وقد بلغت سبايانا المدينة ومكة واليمن »(197).

وتنقل لنا هذه الرواية صورة الصفوف الطويلة من العبيد والجواري الذين انتزعهم الجيش العربي من قراهم وبعث بهم في ذلة وانكسار إلى مدن الجزيرة العربية بعد فقدان حريتهم .

والبلاذري أيضًا في كتاب «فتوح البلدان» يذكر ذات الواقعة بقوله: «وكانت قرى من مصر قاتلت فسبي منهم، والقرى: بلهيت والخيس وسلطيس، فوقع سباؤهم بالمدينة »(198).

فما بالنا نستنكر إشارة النقيوسي إلى أن العرب: نهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال وتقاسموهم فيما بينهم، ولا نستنكر إشارات الطبري والبلاذري وابن عبد الحكم إلى السبي المصري الموفد إلى المدينة في ظل القهر الحربي؟

وإشارة البلاذري وابن عبد الحكم إلى أن عمر بن الخطاب رد هؤلاء المصريين حينما «صيرهم وجماعة القبط أهل ذمة»، أو أنه طلب إيقاف وفود السبي الجديد، بينما تغاضى عمن تفرق في أيدي العرب لأنه لا يستطيع لهم ردًّا، هل كانت هذه الإشارات تعني تسامح ابن الخطاب مع القبط ودفاعه عن حريتهم؟ أم كانت تعني أنه كان ينظر بعين الحاكم العملي الذي يريد ترسيخ نوع آخر من العبودية الجماعية، هي عبودية العمل وأداء الجزية ومختلف أنواع الضرائب التي تعود على

بيت المال بفائدة أكبر، وهو نفسه القائل: «لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليَّ من فيء يقسم ثم كأنه لم يكن »(199).
إشارة أخرى نجدها لدى ابن عبد الحكم تتفق وإشارات النقيوسي إلى طبيعة الحرب في موقعة نقيوس التي اجتاحها عمرو بن العاص، وإن كان يختلف معه في توقيت المعركة حيث يذكرها ابن عبد الحكم مع الفتح الثاني لمدينة الإسكندرية، ويرجع ابن عبد الحكم أسباب الاجتياح القاسي للمدينة: «أن عمرًا لما توجه إلى نقيوس لقتال الروم، عدل وردان ـ أحد موالي عمرو ـ لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه في بعض دورهم فأمر بإخرابها وإخراجهم منها »(200).
ويستطرد ابن عبد الحكم في الرواية واصفًا أهل الخربة: كانوا رهبانًا كلهم... ومع ذلك فقد قتلهم عمرو جميعًا وخرب المدينة خرابًا لم تشهد مثله من قبل حتى سميت بعد ذلك بالخربة .
والخلاف الناشب بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص حول وضع الأقباط، خصوصًا حينما سمح ابن العاص لهم بالبقاء في وظائف جباية الخراج وحساب الضرائب إلى غيرها من الأوضاع التي لم توافق سياسة الخليفة، فكتب إلى واليه يلومه قائلًا: «كيف تعزهم وقد أذلهم الله؟ »(201).
وكان عمر يريد استمرار عمل القبط في مصر في الزراعة والحرف، و«يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون» مما يعود بالخير العميم على بيت مال المسلمين، دون أن يتقلدوا أية وظائف إدارية .
والطبري يشير إلى معاناة المصريين أثناء حفر قناة أمير المؤمنين في عمل من أكبر أعمال السخرة الجماعية، وخوف عمرو بن العاص نفسه من هذا الوضع، لأن تسخير آلاف المصريين في أعمال الحفر يسبب «انكسار خراج مصر وخرابها»، ولكن حسم ابن الخطاب دفع إلى استمرار العمل في ظل تلك الظروف القاسية حيث كتب إليه يقول: «اعمل فيه وعجل، أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها »(202).
ويؤكد السيوطي في كتاب «حسن المحاضرة» واقعة تسخير عمرو بن العاص للمصريين في حفر القنوات وإقامة الجسور، بالإشارة إلى أن عمرًا ألف قوة من المصريين عددها مائة وعشرون ألف عامل مهمتها الأولى العمل في حفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر (203).
وانتزاع مائة وعشرين ألف قبطي من الأرض لتسخيرهم في تلك الأعمال القاسية تحت وقع سنابك خيول الفرسان العرب ورماحهم، هو ذات ما أشار إليه النقيوسي بقوله: «كان ـ عمرو ـ يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى »(204).
وقوله: «يضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات، وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله كان مضافًا إلى الطعام. هؤلاء كانوا يفعلون ذلك خوفًا دون توقف، ونهر أندريانوس الذي انطمر منذ زمن طويل ـ هو نفسه قناة أمير المؤمنين ـ جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابليون بمصر حتى البحر الأحمر، وحملوا المصريين نيرًا أثقل من نير فرعون »(205).
وموقع النقيوسي كقبطي يتحدث عما أصاب شعبه يدفعه إلى إصدار أحكام أخلاقية، وإظهار سخطه على العرب وقائدهم، كما في قوله: «ارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى»، أو حملوا المصريين قيدًا أثقل من قيد فرعون .

ومن شدة وطأة الضرائب على الفلاحين الأقباط كانوا يهجرون القرى ويلتحق بعضهم بالأديرة المعفاة من الضرائب في سني الفتح الأولى، حتى لاحظ الولاة النهمون إلى جمع المزيد من المال ذلك، فلجأوا إلى فرض الجزية على الرهبان ورجال الكنيسة والاشتداد في ذلك، فانفجرت ثورة القبط الكبرى عام سبع ومائة، أثناء ولاية الحر بن يوسف، تلك الفترة التي يكتب عنها ساويروس بن المقفع بالتفصيل، ويذكر أن الوالي أوقع بثوار الحوف الشرقي وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب وديره وتاريخه، وكتب إلى العمال بأن كل من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير. ويفيض ساويروس في ذكر تلك المسلخة العامة، من قطع الأطراف وضرب الأعناق، وهدم الكنائس وكسر الصلبان .

ويرصد المقريزي في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » سلسلة ثورات القبط منذ عام 107هـ. والمقريزي هو أكثر المؤرخين العرب اهتمامًا بوصف القبط وطريقة حياتهم وتاريخهم وكنائسهم، وذكر ثوراتهم. ويرجع بعض الباحثين ذلك إلى اطلاع المقريزي على مخطوطة ساويروس بن المقفع وتأثره ببعض ما جاء فيها .

وقد أفرد المقريزي في كتابه بابًا لكنائس مصر ودورها، وبابًا آخر تحت عنوان «ذكر انتفاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك». فيذكر أمر زيادة الضرائب على القبط بما لا يستطيعون احتماله، وثوراتهم ضد بعض الولاة، وإسراع الولاة والخلفاء في قمع هذه الثورات بكل وسائل العنف الممكنة. فيذكر أنه لما «قدم حنظلة بن صفوان أميرًا على مصر في ولايته الثانية، فتشدد على النصارى وزاد في الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصراني وسمًا، صورة أسد، وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده»، ثم في سنة إحدى وعشرين ومائة «انتقض القبط بالصعيد وحاربوا العمال... فحوربوا وقُتل كثير منهم، ثم خرج يحنس بسمنود وحارب وقُتل في الحرب، وقُتل معه قبط كثير »(206).

ولقد زادت ثورات القبط في أواخر عهد الدولة الأموية، وكلما تقدم الزمن كانت تفصيلات الاضطهاد والتعذيب تتضح أكثر فأكثر لدى المقريزي الذي فطن إلى أن الحكام العرب كانوا يتمادون في فرض الضرائب، ليس على الشعب القبطي فقط، كما كان يفعل بعض الأوائل من دهاة السياسيين؛ بل كانوا يفرضون على الكنيسة ورجالها ورهبانها إتاوات متزايدة، بل يقبضون عليهم ويعذبونهم، كما حدث زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حينما قبض على بطريرك الإسكندرية ووضع رجليه في الحديد «ونتف شعر لحيته» مما جعل موقف الكنيسة يختلف في تلك الفترات عنه في أيام المحاباة السابقة .

الفصل الثالث

معارك في كل مكان

بجوار القاعدة للشعب القاطن أرض مصر لحظة الفتح العربي، كانت هناك جماعات من الروم والحبش واليهود والفرس، بخلاف العرب القادمين على صهوات الجياد ليقيموا فيها إلى الأبد .

وكان لكل جماعة مكان محدد تعيش فيه، ولا يحق لها النزوح منه إلى مكان آخر إلا بتصريح رسمي، كما كان لكل منهم لغته وزيه وسحنته العامة الدالة على مكانته الاجتماعية من النظرة الأولى. ولذلك يمكن الحديث عن جزر منعزلة وسط المحيط القبطي الواسع في ذلك الحين، وقد فرق المقريزي في كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» بين أنواع الناس القاطنين أرض مصر بقوله :

اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى، وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم، أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومي، والقسم الآخر عامة أهل مصر، ويقال لهم القبط، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الإسرائيلي الأصل من غيره، وكلهم يعاقبة، فمنهم كتاب المملكة، ومنهم التجار والباعة، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة. وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم، ويوجب قتل بعضهم بعضًا، ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدًّا، فإنهم في الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلها .

والمقريزي يمد خطًّا فاصلًا أفقيًّا بين الرومان كحاكمين وبين بقية الأجناس المختلطة الذين ينضمون جميعًا تحت راية القبط، فالقبطية في هذا السياق تعني الجنسية المصرية، أو الشعب الواقع تحت الحكم الروماني في أرض مصر، وقد حاول الرومان إقامة خطوط فاصلة بينهم وبين هذه الفئات الكثيرة؛ فأقاموا مدنًا على الطراز الإغريقي بشوارعها العمودية المتسعة والحمامات الكابيتول والجمانيزيوم والمعابد والقصور ذات الأعمدة الرخامية، ونمط العمارة الإغريقي المميز، وجعلوا سكانها من ذوي الدماء الإغريقية، مع السماح لقلة من أغنياء المصريين بالسكن فيها كما في مدينة بطلمية ونقراطيس واكسيدنخوس (البهنسا) وأنطونيوبوليس (هيرموبوليس) وغيرها من المدن الإغريقية، وبمرور الزمن حدث الاختلاط بطيئًا بين العنصرين الروماني وأغنياء المصريين وخصوصًا بعد السماح للرومان بالزواج من المصريات، وكانت اللغة اليونانية لسان أهل هذه المدن ووسيلة ممارستهم لطقوس الحياة الثقافية في المسرح والشعر والفلسفة ومختلف علوم العصر. كما كانت اللغة الرسمية للبلاد والدواوين ومختلف شؤون الحكم. أما الكثرة الغالبة من القبط ـ أهل البلاد الأصليين ـ فكانوا يستقرون في القرى المنتشرة في أنحاء مصر، وعددها ـ كما جاء في «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي ـ حوالي 2395 قرية، منها 1439 قرية في الوجه البحري و956 في الوجه القبلي .

وسكان هذه القرى من القبط الزارعين للأرض والعاملين بالحرف المختلفة والمتحدثين باللسان القبطي في نسق حضاري قبطي مختلف الملامح تمامًا عن الحضارة الإغريقية التي تندرج تحتها سلالة الحكام البيزنطيين. وبعض الأقباط كانوا يسكنون المدن المختلفة الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وينضمون تحت الطوائف الحرفية في العمل: النجارة والمعادن والسفن ومعاصر الزيوت

والنبيذ والمطاحن والورق وغيرها من أنواع الحرف القبطية المتقدمة. وقد لجأ عدد كبير من القبط إلى الكنيسة تحت ظروف مختلفة، فكان منهم الرهبان والقسس والآباء وخصوصًا في فترة الشدة العظمى، أو الاضطهاد الكبير الذي أوقعه الحكام البيزنطيون أصحاب العقيدة الدينية المختلفة عن عقيدة كنيسة الإسكندرية . ويُحكى أنه خرج لعمرو بن العاص من صحراء وادي هبيب (وادي النطرون) سبعون ألف راهب يلبس بعضهم السواد ويتسربل آخرون بثياب رثة ويطلقون اللحى ويتكئ كبارهم على العصي بعد أن أجهلتهم حياة الرهبنة في الديور البعيدة، وأنه تحدث معهم عبر التراجمة وأعطاهم الأمان. وليس من المعقول أن يجتمع سبعون ألف راهب دفعة واحدة في الصحراء، وربما خرجوا إليه على دفعات حسب أماكن تجمعاتهم التي تقابله، والرقم عمومًا يدل على ضخامة عدد الرهبان الذين لجأوا إلى الصحراء بأعداد متزايدة منذ القرن الثالث الميلادي فرارًا من اضطهاد الحكام وقسوتهم، فأسسوا بذلك نظام الرهبنة ذا السمة المصرية الخالصة في الديانة المسيحية والتي أخذها عنهم مسيحيو العالم فيما بعد، وقد بث هؤلاء القبط الفارون الحياة في الصحراء البعيدة، ومناطق الواحات المتطرفة، فأصبحت مناطق جذب لمزيد من الأقباط دون أن يعودوا إلى حياتهم الأولى مرة أخرى .

وقد بلغت أعداد الرهبان في القرن الرابع الميلادي حوالي مليون راهب وراهبة، وزادت مع الاضطهاد الروماني في القرن السادس الميلادي، ولم يكن نظام الرهبنة خاصًّا بالرجال فقط، بل وجدت فيه النساء القبطيات خلاصًا لهن من ضيق الحياة المحيطة، وفرارًا من شتى أنواع الاضطهاد .

ويروي الأنبا شنودة الأخميمي ـ كما ورد في كتاب «تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم »(207) ـ أنه عندما كثرت أعداد العذارى الراغبات في ممارسة الحياة النسكية، أقام الأنبا شنودة ديرًا للنساء، وجعله تحت رئاسته، ووصل عدد الراهبات فيه إلى ألف وثلاثمائة راهبة، كما بلغ عدد الراهبات في ديرين من الأديرة الباخومية 400 راهبة كن يجتمعن كل مساء للتعليم، بخلاف النسوة اللاتي كن يأتين ـ بعض الوقت ـ لتلقي علوم الدين ثم يعدن إلى حياتهن السابقة .

وفي العموم، كانت أديرة الرهبان من الرجال أو النساء، مراكز للعلم والمعرفة، وكان شرط معرفة القراءة والكتابة شرطًا أساسيًّا للقبول في الدير، فأقبل الرهبان على العلم والتعليم تحت رعاية الكنيسة صاحبة امتياز الإعفاء من شتى أنواع الضرائب ومالكة الضياع الواسعة والأراضي الزراعية التي كان يقوم بعض صغار الرهبان بزرعها، بالإضافة إلى عملهم في حرف النجارة والحدادة والخزف والنسيج وصناعة الورق، حتى أنتجت الكنيسة المصرية في ذلك الوقت سبعة أصناف من ورق البردي، كما ازدهرت تحت رعايتها فنون الزخرفة والنحت والرسم والموسيقى وعلوم الطب والكيميا والحساب وعمارة الأديرة التي كانت تُبنى كقلاع كبيرة تحيط بها الأسوار العالية. وفي فترات غارات الجنود على الأديرة كان الرهبان يهربون إلى مناطق أبعد في الصحراء ويسكنون «القلالي» المنفردة «فخارج دير نهيا وبجواره توجد قلالي كثيرة تابعة للآباء الرهبان الذين جاءوا من دير أنبا مقار زمن بطريركية أنبا بنيامين ».

ويصف أحد الرهبان الزائرين من أورشليم دير أنبا مقار بقوله: «كان الدير عبارة عن قلعة يحيط بها ألف قلاية ».

وبخلاف معازل الأديرة التي يفر إليها القبط، أو يذهبون إليها بمحض اختيارهم، فينقطعون فيها عن الحياة العادية ويدخلون في سلك الرهبنة، كانت القرى والمدن تشبه المعازل هي الأخرى؛ حيث يربط الفرد بموطنه الطبيعي سجل ضرائب يجب عليه الوفاء بكل التزاماته؛ وإلا تعرض لعقوبات السجن والتعذيب والغرامة المالية، وإذا ما أراد الانتقال من قرية إلى أخرى فلا يسمح له بحرية الحركة والتنقل إلا بإذن أو تصريح من مندوبي الحكم، على أن يتعهد بشهادة الضامنين أن يقوم بالوفاء بجميع الالتزامات الضريبية . وبين فترة وأخرى كان المسؤولون يعلنون أن من يرغب في نقل مسؤولياته الضريبية، عليه أن يذهب إلى حامي المكان المطلوب الانتقال إليه، ويطلب منه نقل مسؤولياته الضريبية والحصول على تصريح بذلك. وكان مسؤولو المرور، أو المشرفون على المرور في المقاطعات يخطرون المسؤولين عن هؤلاء المتسللين إلى مدنهم دون تصريح رسمي، وغالبًا ما كانت سلطات الأقاليم تسارع بإعادتهم أو عمل تصريح جديد لهم إذا أثبتوا خلوهم من الضرائب .

ونجد في خطاب من موظف كبير إلى المسؤول عن إقامة الأجانب أو المرور في الباجاركية بسبب وجود أفراد من الفيوم وأشمون وقوص مقيمين في كوم شقوه، أوامر واضحة بشأن هؤلاء المتسللين: «فإذا تسلمت رسالتي فأرسل إليَّ الأجانب بعناية... أرسلهم مع أسماء آبائهم وقراهم والأراضي التي أخذوها من الباجاركية وأرسل بأبنائهم وزوجاتهم معهم والأموال التي أخذوها ».

والفرد في ظل هذا النظام المتشدد كانت حريته شكلية، لأن أغلال الضرائب كانت تكبل قدميه بأشد من القيود الأخرى. وعملية الفرار كانت شبه مستحيلة في ظل تقسيم البلاد إلى «مراكز Pagi تقابل مراكز النظام القديم Topa ويتولى كل قسم موظف يسمى Phaepasitas ويخضع لموظف آخر يسمى Exator اختصاصاته مالية، وأصبح اللقب يطلق فيما بعد على الجابي، وفي عهد ليو (457-474م) ظهرت الباجاركيات Pagrckia وهي تطابق الإقليم القديم وتشمل كل ما يحيط بالمدينة من القرى وما يتبعها من الأرض. فالمدينة وما يحيط بها تعتبر وحدة إدارية تخضع للباجارك الذي يخضع للوالي Praeses الذي يخضع للدوق حاكم الإقليم »(208).

والباجارك الذي يشرف على القرى المحيطة لديه جيش وجنود عسكريون، وجيش آخر من الموظفين منهم «الجباة والمراقبون والكتاب والمساعدون والبحارة الذين ينقلون الخراج »(209). ويعمل كل هذا الجيش على مراقبة الفلاح والأرض والإنتاج، ويستقطع هؤلاء الجباة لأنفسهم الأموال والمحاصيل العينية كلما سنحت الفرصة على طول سلم الوظائف التصاعدي حتى تصل الضرائب المطلوبة إلى الخزانة الرئيسية محملة بدماء الفلاحين، والإمبراطور «جستنيان» نفسه يعترف في مرسومه رقم 13 بأن أموال مصر تستنزف عند الجباية. وفي العموم كان نظام تحصيل الضرائب من مصر معقدًا ومحكمًا، حيث كان لكل قرية «نقابة من الملاك تعد مسؤولة قانونًا عن الضرائب وإيجار الأرض » ولكل قرية «خزانة تتصل بها إدارة للحسابات لتحديد المصروفات والجبايات والموظف المسؤول عن تدوين الحساب يعرف باسم Logagraphe. ويجري إعداد قوائم بالضرائب التي أداها كل فرد مع ذكر اسمه ومقدارها ويرسلها مسؤول الخزانة بعد ذلك إلى مكتب الوالي »(210).

ولم يكن أمام الفلاح القبطي سوى الامتثال لهذا النظام الضرائبي الصارم الذي يربطه ربطًا لا فكاك منه بالأرض والقرية، وحينما لجأ بعضهم إلى بعض الحكام العسكريين ليستجيروا بهم، أصدر الإمبراطور «قسطنطينيوس» مرسومًا سنة 395م شديد اللهجة يقول فيه :

كل من بلغت به الجرأة لضم هؤلاء الأشخاص إليه بوعد الحماية ومنعهم من أداء ما عليهم من الأعباء العامة سيضطر لدفع الأعباء التي على الفلاح من مجموع الفلاحين الذين هجروا قراهم وسيطلب إليه الدفع من دخله الشخصي، وكل من دخل تحت حمايتهم وجب رفع هذه الحماية عنه (211).

فلم يكن أمام الفلاح القبطي في ظل هذا الوضع إلا الامتثال لمعزل القرية، أو الانتقال لقرية أخرى «معزل آخر» وفي رقبته سجل ضرائبه لا يسقط عنه سوى بالموت، أو بالفرار إلى الرهبنة .

أما المدن فكانت لها قيودها الأخرى، وينظم الحياة فيها نظام الطوائف والحرف ومسؤولو الأسواق والقائمون على منح تصاريح مزاولة التجارة ومسؤولو البريد ومحطات الدواب والمشرفون عليها، وكانت كل طائفة مغلقة على نفسها، وتخضع لتراتبيات إشرافية وضرائبية محددة، وليس من المسموح لأحد بمزاولة المهنة إلا إذا كان عضوًا في الطائفة، أما الجدد فيخضعون لتدريب يستمر من سنة إلى خمس سنوات على يد أسطوات المهنة .

*

وبعد الفتح العربي وسيطرة العرب على مقاليد الحكم في مصر، تمسك عمرو بن العاص بنظام تقسيم البلاد والعباد، الموروث عن الرومان، كما هو؛ فجمع مقدمي القبط وأقرهم على جباية الروم، ويقول في رسالة له إلى الخليفة إنه فتح مدينة ـ يقصد الإسكندرية ـ بها أربعون ألف يهودي عليهم الجزية، وبالطبع لم يكن هذا عدد كل اليهود القاطنين أرض مصر، وربما تركزت هذه النسبة العالية من اليهود في الإسكندرية نظرًا لاشتغالهم بالتجارة والصيرفة وغيرها من الأعمال، بالإضافة إلى أنه كان بمصر من اليهود عدد كبير لا يعمل بتجارة الأموال، وإنما وجدوا في طوائف حرفية أخرى بنسب أقل، وكانوا يعيشون في تجمعات تخصهم. وأبقى العرب على نظام العمل في الدواوين كما هو مع إحلال بعض القبط محل الروم الراحلين، واحتفظوا بالتقسيم الإداري للأقاليم والمدن والقرى، كما حافظوا على أسماء القرى المصرية كما هي، أو حرفوها قليلًا ليفهمها العربي مختلف اللسان. وذلك على العكس من الرومان الذين حاولوا أن يضعوا للقرى والمدن المصرية أسماء يونانية، وظل استخدامها مقصورًا عليهم فقط، أما الجمهور القبطي فقد ظل متمسكًا بالأسماء المصرية القديمة (212).

كما حافظ العرب على طرق جباية الضرائب، بل وعلى أنواعها، من الضرائب العينية التي تجمع في الأهراء أو المخازن الحكومية لمؤونة الجند. وكان المكان الذي يباشر فيه صاحب المكس مهام منصبه يسمى أم دنين (مكان حديقة الأزبكية الآن)، وكان هناك مركز تجاري للغلال يعرف باسم ميدان القمح أو ميدان الغلة، وكانت حمولة القمح الآتية من كل قرى مصر تفرغ في الميناء النيلي الذي كان يشغل كل ساحل المكس حتى القنطرة .

وبالإضافة إلى الضرائب العينية، كانت هناك أخرى نقدية عن المحاصيل الأخرى، وخراج الأراضي، وقانون الضيافة ثلاثة أيام للعرب الحالين بالقرى، وقوانين ضيافة السلطان مع إضافة بند تكاليف كسوة الجند والجزية المدفوعة على الرؤوس، وغيرها. وقد حافظ عمرو على الخطوط بين جماعات الناس، فبنى مدينة الفسطاط لتكون مدينة عربية الطابع، وقسمها إلى خطط، وأسكن كل قبيلة خطة، وأسكن بقية الروم المتعاونين معه خطة الحمراوات، وأسكن الفرس الآتين معه من الشام خطة أخرى .

وحتى في نظام المرابع الذي أقره عمرو نلحظ التقسيم الواضح بتخصيص مكان لكل قبيلة يخرج إليه الجنود مع خيولهم دون اصطحاب زوجاتهم وأولادهم، مع نهاية فصل الشتاء وبداية الربيع، ويستمرون في مرابعهم حتى قدوم الصيف. وفي خطبة عمرو إلى جنوده يحثهم على الذهاب إلى المرابع ثم العودة إلى الفسطاط، يقول لهم: «فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحيَّ إلى فسطاطكم على بركة الله، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق سعته أو عسرته »(213).
وفي تلك الخطبة يحث عمرو جنوده على التمتع بخيرات الريف ثم هجره بعد إجدابه: «فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم »(214).
وتمسكت الأرستقراطية العربية في البداية بعزلتها عن بقية الملل والطوائف كنوع من أنواع الترفع والتعالي على الشعب المصري الزارع للأرض والقائم بأمر الحرف المختلفة، واحتفظوا لأنفسهم بمهام الحرب والحكم والسياسة لأن العرب، كما يقول ابن حبيب، تعيش من سيوفها ورماحها، وقد كان عمر بن الخطاب ينهى العرب عن الزرع كي لا يذلوا وينشغلوا به عن الجهاد. حتى إنه عاقب رجلًا عربيًّا أراد أن يزرع، وطلب من عمرو أن يرسله إلى المدينة بسرعة ليقيم عليه العقاب المناسب .
ولزمن طويل ظلت العزلة بين العرب والقبط قائمة فيما يشبه الانفصال الاجتماعي، ويمكن أن يسمى التماس بينهما في الفترة الأولى تماس السطح والقاع، أو تماس الحاكم والمحكوم وما ينطوي عليه من عسف جانب وخضوع الآخر، دون أن يمتص أحدهما الآخر أو يحويه تحت جناحه لأكثر من ثلاثة قرون .
وقد بالغ بعض الولاة في التمسك بالتقسيم الإداري للبلاد، ووضع القيود على نظام الجباية، حتى إننا نجد في بردية عربية أوامر صارمة موجهة من أحد الجباة إلى آخر مسؤول عن ضرائب مدينة أنصنا، فيقول بلهجة شديدة :
استحضر لنا من مدينة أنصنا بقطر الطحان، ومر العمال بإحضاره ـ وكان بقطر هذا قد تأخر في دفع ضرائبه ـ واستحضر إلينا أسرته أجمعين واستحضر أباه وابنه واستعجل إحضاره إن شاء الله .(215)
وقد بالغ بعض الولاة في فرض المزيد من الضرائب، ومن ثم القيود التي تربط الفلاحين القبط بالأرض والقرية أكثر فأكثر، ونصوص التصاريح في أوراق البردي العربية تدل على القاعدة العامة، وهي عدم السماح بحرية الانتقال من مكان إلى آخر، وقد لاحظ «أدولف جروهمان» ذلك، وعلق عليه قائلًا: «المواطنون الذين رحلوا إلى مكان آخر ليقيموا فيه ردحًا من الزمن لم يكونوا على ما يظهر ملزمين ـ فقط ـ بأن يحصلوا على تصريح خاص من المدن التي كانوا يقيمون فيها، بل كانوا ملزمين أيضًا بإفادة الموظفين المحليين بمقر إقامتهم الجديد... ويرجح أن الإيصالات تحول من مكان إلى مكان أو إلى الكورة أو البلدة التي كان الشخص تابعًا لها، للدلالة على أنه قد قام بأداء الضريبة المفروضة عليه لتدوينها في السجل الخاص في محل إقامته »(216).
وفي زمن قرة بن شريك زادت وطأة الضرائب على الفلاحين إلى حد غير مسبوق، وكان «الناس يهربون ونساؤهم من مكان إلى مكان» ولكنهم لا يجدون مجتمعًا آخر يمكن أن يقبلهم «فلا يأويهم

موضع»، وبدأت إجراءات قرة ورجاله لمنع الهروب تصبح أشد قسوة من إجراءات انتزاع الضرائب، وأخذ والي سخا، على سبيل المثال «يجمع الذين يهربون من موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كلًّا منهم إلى موضعه»، وأصدر قرة أوامره بأن «لا يؤوي أحد غريبًا في البِيَع ولا الفنادق ولا في السواحل»، وطلب من الرهبان أن يعيدوا أي شخص يريد الدخول في سلك الرهبنة، ووصل به الأمر إلى وضع علامات تمييز قاسية على جسد الرهبان، بأن «أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليعرف، ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام »(217).

«وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج، ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية، وحلق لحى كثير وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمة »(218). وكان متولي الخراج هذا أسامة بن زيد التنوخي، يتشدد في إعطاء تصريحات الخروج للناس، ويقرر ضريبة على إصدار التصاريح مقدارها عشرة دنانير، ويشدد على الشرطة والجيش والحراس بأن من لا يجدوا سجله معه يؤخذ كل ما معه وينهب، وطبقوا ذلك حتى على مراكب التجار والبحارة الذين فيها، فمنهم من يقتله ومنهم من يصلبه ومنهم من يقطع يديه ورجليه حتى «انقطع الطريق ولم يبقَ من يسافر »(219).

وربما لا ننسى حادثة فساد محصول الكروم، وخوف الجميع من نقله أو شرائه حتى بدرهم واحد، بسبب عدم حصول التجار على تصاريح النقل وانتظارهم حوالي شهرين لإصدار التصريح؛ ففسد المحصول ولم يحصلوا على سجل الإفراج .

*

وبخلاف تحديد مواطن الإقامة، وحظر الانتقال من مكان إلى آخر إلا بالتصاريح الرسمية، تعددت مظاهر العزل الإجباري بين الناس، ومنها عزلة الملبس والهيئة بفرض أنماط معينة من الثياب على أصحاب كل دين، فاحتكر العرب زيًّا معينًا لا يلبسه غيرهم ولا يتشبه به سواهم، وفُرض على الأقباط زي، وعلى اليهود زي آخر .

وداخل صفوف الأقباط اختلف زي الرهبان المصنوع من الخيش عن زي رجال الكنيسة عن زي الفلاحين عن زي ساكني المراكز والمدن .

وكان يمكن تمييز الدين والملة والوضع الاجتماعي بسهولة من النظرة الأولى لعابري الطريق، أو للمتعاملين في الأسواق والحمامات العامة .

وفي العموم، تخصصت مصانع معينة في صنع ملابس السادة بخلاف تلك التي تصنع ملابس العامة، وقد «أطلق عليها طراز الخاصة وطراز العامة »(220).

وقد ذكر القلقشندي في الشروط المفروضة على أهل الذمة أن يركبوا الحمير بأن يجعل الراكب رجليه من جانب واحد وأن ينزلوا المسلمين صدر الطريق، ولا يركبن يهودي ولا نصراني على سرج، وليركبن على إكاف، ولا تركبن امرأة من نسائهم على راحلة وليكن ركوبها على إكاف (221).

كما أكد القرشي في كتاب «معالم القربة في أحكام الحسبة» ضرورة أن «تشد المرأة الزنار تحت الإزار، وفوق الثياب، حتى لا تصف أبدانهن، وتكشف رؤوسهن، وقيل بل فوق الإزار كالرجل، ويكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام، ويكون أحد خفيها أسود، والآخر أبيض ليتميزن به على غيرهن »(222).

وقد ظلت هذه الذهنية العنصرية هي السمة الغالبة على تاريخ الحكم العربي، وإن تخللها فترات تمتع فيها أعيان الأقباط وأغنياء اليهود بامتيازات المسلمين في الملبس والمظهر، بينما ظلت قاعدة الفقراء من أهل الذمة مقيدة بشروط الملبس. وظل اللون الأبيض حكرًا على العرب، والأزرق قيدًا على القبط .

ويرى بعض الباحثين أن قيود الملبس لم تطبق في البداية بشدة، بسبب وجود فوارق طبيعية في المظهر بين ملبوس العرب الآتين من الصحراء وملبوس أهل البلاد، وأن هذه القيود فرضت بصرامة فيما بعد .

وقد كان عمر بن الخطاب شديد التعصب للسيادة العربية والإسلامية، فأخرج أهل الذمة من المدينة، وتمنى أن يخرجهم من الجزيرة العربية كلها بحجة أنه «لا يجتمع في المدينة دينان » ووضع أسس قوانين السيادة العربية، إلا أن تطبيقها لم يكن على درجة واحدة من الشدة، فلم يكن يتمسك عمرو بن العاص، صاحب الأفق السياسي الأوسع، بتطبيق تلك القواعد الشكلية، بقدر ما كان يهتم بأمر ترسيخ السيطرة السياسية على البلاد. أما من تلاه من الولاة فلم يتحلوا باتساع أفقه؛ وبالغ الكثير منهم في فرض المزيد من الحدود العنصرية والتشدد في تطبيقها كلما تقدم الزمن .

وبخلاف معازل المكان والمظهر، كانت معازل اللغة حائلًا دون التفاهم بين الأجناس الوافدة والأجناس المقيمة وخصوصًا في سنين المواجهة الأولى. فكانت هناك اليونانية، لغة الرومان الحاكمين، والقبطية بلهجاتها المختلفة، لغة الشعب القبطي في القرى والمدن والكنيسة القبطية. إلى جانب لغات بعض الجماعات القاطنة بمصر: كالحبشية، والعبرية، والفارسية، ثم اللغة العربية الآتية مع جيش الفتح .

وقد صحب عمرو بن العاص وجيشه في رحلته من فلسطين إلى مصر عدد كبير من الأدلاء والتراجمة من الفرس والرومان والموالي الذين قاموا بأعمال الاتصال الأولى. ورغم كثرة هذه اللغات إلا أن المواجهة الأساسية في اللحظات الأولى للفتح العربي كانت بين اللغتين اليونانية (لغة الرومان الحاكمين)، والعربية (لغة العرب الحالين). وخلال سنوات القتال الثلاث دارت الكثير من المباحثات بين قادة الجيش العربي والجيش البيزنطي عبر التراجمة .

أما تلك الاحتكاكات والتماسات اللغوية التي كانت تحدث بين العرب والشعب القبطي في المدن والكنائس والأديرة، فكان بعضها يدور باليونانية، خصوصًا أن أعيان مصر ورهبانها كانوا يجيدون اليونانية باعتبارها لغة البلاد الرسمية، وبعض المواجهات كانت تدور باللغة القبطية.

وتذكر بعض كتب التاريخ أن أبا رافع القبطي الذي كان يقوم بزراعة أرض العالية في يثرب ويخدم مارية القبطية، قد عاش حتى شهد فتح مصر، وأنه صاحب جيش عمرو بن العاص، ولسانه القبطي كان إحدى وسائل التفاهم مع أهل مصر. ورغم ذلك ظلت المشكلة الكبرى التي كانت تواجه العرب في القرى القبطية التي يجتاحونها بحروبهم على طول الطريق إلى الإسكندرية، وهي جهل كل طرف بلغة الآخر، مما ساعد على زيادة الخوف والفرار من أمام هؤلاء الأغراب الغازين للبلاد .

وتقهقرت اللغة اليونانية مع عتاد الفرسان الرومان الراحلين إلى القسطنطينية، وظلت اللغة القبطية لغة الصراع الدائر بين العرب والشعب القبطي حتى صدر قرار تعريب الدواوين عام 87هـ .

وفي السنوات الأولى زاد اهتمام بعض الأقباط بتعلم اللغة العربية وخصوصًا العاملين بديوان المحاسبة حرصًا على وظائفهم وموقعهم كهمزة وصل بين القيادة العربية وشتى القرى القبطية،

ولذلك فإننا نلاحظ أن تعريب الدواوين كان يخص المركز بالأساس، أما «موازيت» القرى أو السلطة القروية فقد ظلت تتعامل بالقبطية حتى زمن متأخر جدًّا .
ويبدو أن غموض اللغة القبطية بالنسبة للعرب، وعدم فهمهم لها في العموم، وممارسة القبط لشتى طقوس حياتهم اليومية بها، جعل العرب يقلقون من حالة الإبهام المسيطرة عليهم، ولذا كانوا يلجأون إلى كل وسائل الترجمة المتاحة لنزع ستار الإبهام المستغلق بينهم وبين الشعب الآخر .
ويذكر ساويروس بن المقفع أن الابن الأكبر للوالي عبد العزيز بن مروان، ويدعى «الإصبغ»، كان كثير الشك في نوايا القبط ودائم التوجس من ممارسة طقوسهم الدينية وسائر شعائر حياتهم باللغة القبطية، فقرب شماسًا يعرف اللغة العربية يدعى بنيامين «فسر له الإنجيل، بالعربي، وكتب الكيميا وكان يبحث عن الكتب لتقرأ عليه وكذلك الأرطستيكيات كان يقرأها لينظر هل يشتمون فيها المسلمين أم لا »(223).
مما يعني أن هذا الشماس قد أجاد اللغة العربية حتى استطاع ترجمة الإنجيل، وكتب الكيميا ومختلف الكتب الأخرى للأمير المتوجس شرًّا من الأقباط. وبعد تلك الحادثة بسنة واحدة جاء قرار التعريب الفوقي للدواوين على يد عبد الله بن يربوع الفزاري من أهل حمص .
وفي الوقت الذي كانت هذه الفئات العليا من القبط تقبل على تعلم لغة الفاتح لاستمرار المحافظة على مصالحها، كانت قاعدة الشعب القبطي معفاة من هذه الحاجة امتثالًا للأمر الواقع في القرى المغلقة والمجهدة .
أما أسرى القبط من الرجال والنساء الذين سباهم عمرو بن العاص ووزعهم كجوارٍ وعبيد على قادة جيشه ورجاله المقربين، فقد اضطرتهم ظروف العبودية إلى القيام بدور مزدوج حيث علموا الأقربين منهم الكثير من المفردات القبطية، كما اضطروا إلى تعلم وإتقان اللغة العربية، لغة السادة المالكين لأجسادهم، مثل عبد الله بن عبد الرحمن؛ وهو أحد الذين سباهم العرب في قرية بلهيب، وقد أصبح عريف الموالي أو رئيس العبيد بعد أن اعتنق الإسلام وتعلم اللغة العربية .
وكما حدث مع عدد من نساء سلطيس اللاتي اتخذهن العرب جواري وإماء لهم، بعد أن استباح عمرو مدينة سلطيس ووزع نساءها على قادة جيشه، وبعث بالجزء المتبقي منهن إلى بلاده البعيدة في مكة والمدينة واليمن .
وقد بقي ذكر بعض هاتيك النسوة اللاتي أنجبن ذكورًا لهؤلاء السادة الجدد، وقد أخذ هؤلاء الأبناء ـ فيما بعد ـ مواقع مهمة في بلاط الولاية العربية، بينما أهال التاريخ تراب نسيانه على النساء اللاتي لم ينجبن أبناء ذكورًا للسادة العرب ولم يعد لهن أي ذكر .
ومن أبرز أبناء المصريات أو القبطيات الأسيرات عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ابن القائد العربي المعروف معاوية بن حديج الذي لعب دورًا كبيرًا في توطيد دعائم الدولة الأموية بمصر. وهناك شواهد تاريخية على معرفة ابنه عبد الرحمن للغة القبطية التي تعلمها من أمه القبطية ـ إحدى سبايا سلطيس ـ فيروي الكندي في خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة 145هـ، (القرن الثاني الهجري)، أن ابن حديج ـ عبد الرحمن ـ وقف على الباب الذي ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية، مما يدل على معرفة الاثنين ـ عبد الرحمن وسعيد ـ وربما آخرين، باللغة القبطية .
بالإضافة إلى أننا سنجد شواهد تاريخية على رواج اتخاذ قادة آخرين لجوارٍ قبطيات، وإنجابهم منهن أيضًا مثل: عبد الرحمن بن جعفر بن ربيعة الذي أنجب ابنه عمران من جاريته السلطيسية،

وعقبة الذي أنجب ابنه عياض وابنه عبيدة من جاريتين قبطيتين على ما يبدو، وخارجة بن حذافة القرشي الذي كان رئيس شرطة عمرو بن العاص وتلقى عنه طعنة الموت، قد أنجب ابنه عون من جاريته القبطية السلطيسية، وغيرهم .
وقد اقتضت ظروف هاتيك النسوة القبطيات الداخلات بيوتًا رغم أنفهن أن يتعلمن لغة السيد، وهي اللغة العربية، وأن يحافظن على اللغة القبطية في سرائرهن ويعلمنها لأبنائهن الصغار .
ويندرج كل ذلك تحت باب العادي من الأمور، حيث يجب على المحكوم أن يتعلم لغة حاكمه باعتباره الطرف الأدنى في العلاقة، أما أن يحدث العكس فهذا هو النادر الشحيح . ولذلك فقد ظل المؤرخون يتعاملون مع تعلم بعض السادة ذوي الأصول العربية الصرفة للغة القبطية من باب الغرائب والطرائف، فيروى أن خير بن نعيم قاضي مصر في الفترة من عام 120 إلى 127هـ، واليمني الأصل، والذي كان يعمل في تجارة الزيت قبل توليه القضاء، كان يعرف اللغة القبطية، وإنه كان يدخل إليه الخصمان فيخاطبانه بالقبطية ويرد عليهما بها ويشهد عنده الشهود بالقبطية فيسمع منهم ويحكم بها (224). ويقال إنه كان يقضي بين العرب في صحن المسجد، وفي العصر يجلس على باب الجامع فيقضي بين القبط بلغتهم .
لكن تظل هذه النماذج فردية بالنسبة إلى أعداد القبط المقبلين على تعلم اللغة العربية والتحدث بها، وخصوصًا حينما خيل لبعضهم أن دخولهم الإسلام سيمكنهم من اتخاذ مكانة أفضل في مصر الإسلامية بعد أن انسد أمامهم مخرج الفرار إلى الديور للتخلص من عبء الضرائب، فبدأت أعداد قليلة تعلن إسلامها، وتشير وثائق البردي إلى أن «عدد من أسلم في البداية كان قليلًا، فذكرت في إحدى قوائم الخراج 130 اسمًا مسيحيًّا واسمًا واحدًا إسلاميًّا »(225).
ونلاحظ تغير رد فعل القبط إزاء العرب الحاكمين منذ عام 107هـ، وفيه بدأت ثورات القبط في التوالي والتتابع حتى عام 226هـ، حينما قمع المأمون قبط مصر ونكل بهم وأعمل فيهم السيف فما أبقى، والأسر فلم يرحم أحدًا مما أدى إلى انكسار شوكة الثورات القبطية لأزمان طويلة قادمة.
ويبدو أن القبط قبل عام 107هـ، كانوا يلجأون إلى استخدام أساليب المقاومة السلبية، ومن أبرزها الفرار إلى حياة الرهبنة والأديار المعفاة من عبء أداء الجزية وأنواع الضرائب الأخرى؛ حتى ألغى عبد العزيز بن مروان هذا الامتياز، وأحصى جميع الرهبان وختمهم وفرض عليهم أداء الجزية، فانسد هذا الباب أمام القبط الفارين. وبدأت، مع زيادة شدة الجباة والولاة وتعسفهم، ثورات القبط عام 107هـ، وفكر بعض دهاة العرب في ضرب القبط الثائرين بإحلال بعض القبائل العربية في موطنهم، وإتاحة بعض فرص الثراء أمامهم، واستئذان عبد الله بن الحبحاب (متولي خراج مصر) الخليفة في السماح للعرب القيسية بالنزول إلى الحوف الشرقي، موضع ثورات القبط، عام 107هـ، بعد قمع الثورة وقتل زعمائها والقبض على عدد كبير من الرجال والنساء بالطبع. فنزل حوالي خمسمائة بيت ـ في البداية ـ من عرب الشام القيسيين، يزرعون ويسمنون الخيول للتجارة فيها، ثم توالت أعداد العرب القادمين بعد ما لاحظ أقرباؤهم مدى الثراء العائد على العرب القيسية من ذلك .
وبوفود الأعداد الكبيرة، بدأ نوع من الاحتكاك بين فلاحي القبط الرازحين تحت عبء زيادة الضرائب ومزارعي العرب الحاصلين على امتياز احتكار المنطقة بأمر الخليفة .
وإحلال العرب ولغتهم في تلك المناطق خلق خليطًا من اللغات المستخدمة، ليست بالعربية الفصحى التي يستخدمها العرب الأقحاح، وإنما هجين لغوي جديد خاص بمصر، ولكن من سوء

حظها أنها لم ترزق بعالم لغوي مثل الجاحظ يهتم بتسجيل لغة العامة من مختلف الطبقات مما يترك ثروة من التشكيلات اللغوية الناتجة عن اختلاط وتهجين اللغتين العربية والقبطية .
وقد حاول بعض اللغويين رد الكلمات المصرية شائعة الاستخدام إلى أصول عربية، كما في «القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب » لمحمد بن أبي السرور الصديق الشافعي (1087هـ) و«رفع الإصر عن كلام أهل مصر» الذي يعرض فيه صاحبه، يوسف المغربي، لما دخل اللغة العربية من لغة أهل مصر، ويحاول أن يرد بعض الكلمات إلى أصول عربية (226).
وقد صمدت الكثير من المفردات المصرية حتى العصر الحديث، بعد مرور حوالي أربعة عشر قرنًا ويزيد، يرصدها مراد كامل في كتاب «حضارة مصر في العصر القبطي» لتشمل أسماء أشياء وأفعال وتعبيرات كاملة .
وهذه الكلمات التي لا زالت تعيش وتتألق حية على لسان المصريين حتى العصر الحديث؛ هي مجرد مثال لغيرها من آلاف الكلمات التي صارعت الموت عبر قرون طويلة فاندثر بعضها، وظل البعض الآخر .
وقد ظلت اللغة القبطية صامدة، خصوصًا في الريف، خلال القرون الأربعة الأولى للفتح العربي.
ويذكر المقريزي أن بعض النساء القبط في الصعيد كن لا يتحدثن إلا بالقبطية الصعيدية حتى الزمن الذي عاش فيه المقريزي نفسه (القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري).
ويؤكد «جاستون ماسبيرو» أن بعض سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر، في أوائل حكم الأتراك. أما أبو صالح الأرمني فيذكر في الكتاب المنسوب إليه «الكنائس والأديرة في مصر» أن نصارى إسنا حين كانوا يحضرون الحفلات وأفراح المسلمين كانوا يطوفون في الطرقات والميادين أمام العريس وهم يهتفون بعبارات قبطية صعيدية (227).
ويستنتج سليمان نسيم من كل ذلك أن نهاية القرن السابع عشر شهدت اختفاء اللغة القبطية كلغة للحديث، وذلك في الصعيد الأعلى ـ أقوى مراكز اللغة القبطية ـ ويقارن بعد ذلك بين شواهد زوالها وشواهد ازدهارها الأول فيقول إنه :
لما قاربت اللغة القبطية على الزوال كتبها الأقباط بحروف عربية، بل لقد كثر استخدام هذه الطريقة بدليل وجود نسخ كثيرة منها بالمتحف القبطي كالأبصلمودية الكيهكية ـ مخطوط رقم 411 ـ وكان هذا على العكس تمامًا من موقف القبط حين بدأوا يتكلمون العربية في أوائل القرن الثامن، أي قبل ذلك بعشرة قرون، بحروف قبطية .
ومنذ القرن الميلادي الثامن حتى القرن الثاني عشر، ظلت عوامل الضعف تدب في استخدام اللغة القبطية بفعل انتشار اللغة العربية بين المصريين رويدًا رويدًا حتى رأى البابا غبريال بن تريك (1131-1145م)، أن القبط يتكلمون العربية وخاصة في المدن ومراكز المديريات، فأصدر أمره بقراءة الأناجيل والخطب الكنسية وما إليها، باللغة العربية في الكنائس، وذلك بعد تلاوتها أصلًا باللغة القبطية، وشعر خلفاؤه بخطورة هذا المبدأ لكنهم التزموا به (228).
ثم اختفت القبطية من المدن، وظلت في قرى الصعيد البعيدة حتى القرن الخامس عشر/ السادس عشر، كما رأينا من قبل، أما المدن والقرى القريبة، وخصوصًا قرى الوجه البحري، فقد شهدت تغيرات أوسع بعد سلسلة القمع الدموي للأقباط الثائرين منذ عام 107هـ وحتى 226هـ، بالإضافة

إلى انكسار خط العزلة العربي الذي كان العرب يطوقون به أنفسهم فبدأوا يتخذون أماكن المرتبعات أماكن دائمة للإقامة، وينتشرون في القرى خلال القرن الثاني الهجري، وهجرة قيس الكبرى عام 109هـ، واتخاذها قرى الشرقية موطنًا دائمًا مع التمتع بالامتيازات العالية التي خصهم بها ابن الحبحاب فكان ألف من القيسية يتناولون عطاء الخاصة، لكنهم فقدوا هذا الامتياز ـ فيما بعد ـ فتقلب هوى القيسية من الولاء لبني أمية إلى الولاء للعباسيين وحالفوا القبائل اليمنية الموجودة بالحوف الشرقي ضد مظالم الولاة ونهمهم إلى جمع الخراج دون تفريق بين الأقباط الزارعين للأرض والعرب الزارعين لها أيضًا. ثم دخلت قبيلة تميم مصر مع العباسيين عام 132هـ، وكان كل والٍ جديد يأتي من الشرق يحضر معه أهله وقبيلته وحلفاءه ومواليه. أما قبيلة ربيعة فجاءت في خلافة المتوكل، بعد مذبحة المأمون للأقباط عام 226هـ، بالإضافة إلى القبائل الأخرى التي فضلت اتخاذ مرتبعاتها منازل فيها بصفة مستمرة بعد أن تركت الفسطاط نهائيًّا مثل مدلج ومن حالفهم من حمير وذبحان الذين استقروا في خربتا، ومثل حشين وطائفة من لخم وجذام نزلوا أكناف صان وأبليل وطرابيه من الحوف الشرقي .
واختلط تاريخهم منذ ذلك الوقت، وأصبح لهم ـ بتحالفهم ذلك ـ اسم واحد يجمعهم هو «أهل الحوف»، قوة هائلة قاومت الدولة مقاومة عنيفة في عدد كبير من المعارك المريرة التي نشبت لأسباب تعود في معظمها إلى سوء معاملة الولاة وجشعهم في أخذ الخراج، وخيانة الموظفين، وهذا يبدو واضحًا عند النظر في ثورات أهل الحوف في الأعوام 168، 172-173، 178، 179-180، 186، 190، 194، 198، 209، 214، 215، 216-217، 253هـ، ولا عجب في هذا؛ فقد كانوا باعتمادهم على الزراعة واهتمامهم بها يمثلون مصلحة طبقة المزارعين في مصر؛ بل لقد انتهى بهم الأمر إلى أن اشتركوا مع القبط في ثورة أسفل الأرض (216-217هـ) التي لم تكن ثورة المصريين بعامة؛ بل الفلاحين بالذات والتي قام بقمعها جيش الخليفة المأمون [(229)].
فهل كانت نتيجة ذلك التجاور المكاني بين العرب اليمنية والقيسية، وبين قبط الحوف الشرقي، ظهور حالة التداخل والانصهار، أم ظلت الفوارق الشاسعة قائمة بين الطرفين؟ يمكننا الحديث عن بداية تداخل ـ وإن على استحياء ـ حيث ظلت العنجهية القبلية تطل برأسها وتحول دون الانصهار الكامل بين العرب والقبط حتى ذلك التاريخ (126هـ).
لقد أخذ العرب في الزواج من نساء القبط دون أن يسمحوا بزواج العربيات من القبط، وشاع بين العرب المثل القائل: «يأكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح»؛ بمعنى أن العربي يفضل أن تهلك ابنته أو أخته أو قريبته وتموت على أن تتزوج من قبطي سواء أكان فلاحًا أم غيره، ولذلك نلاحظ أن حركة التزوج والتناسل بين الطرفين ـ في العموم ـ ذات اتجاه أحادي يبتلع النساء المصريات في المجرى العربي الذي كان الرجال فيه يتزوجون من عدة زوجات ويستمتعون بأي عدد شاءوا من الجواري والإماء .
والأقباط يعانون كثرة الضرائب، وشدة الجباة والولاة، وحرمانهم من الامتيازات التي كان يتمتع بها العرب؛ بالإضافة إلى القيود المفروضة على ممارسة طقوسهم الدينية بحرية «فلا يرتفع ناقوس أو تعلو ترانيم»، وأصبحت الكنيسة في كثير من الأحوال عاجزة عن الدفاع عن نفسها، فضلًا عن الدفاع عن رعاياها من الشعب القبطي أمام تقلبات مزاج الولاة وعسف جنودهم [(230)].

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحكم العربي؛ كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين، ولم يعد التقسيم الأول بين كونهم أهل ذمة يدفعون الجزية والخراج، ويعيشون في معازلهم بعيدًا عن العرب، حاميًا لهم؛ بل كانوا يتعرضون لضيق حلقة العزلة من حولهم رويدًا.. رويدًا وكان ضعف الكنيسة يتضح أكثر فأكثر؛ بل كان هذا الحصار يدفع الكنائس والرهبان إلى المزيد من الانغلاق والجمود، والدخول في ظلامية القرون الوسطى، ويمكن أن نلحظ خط الحضارة القبطية المنحدر منذ القرن الثامن الميلادي .

ومن جانب آخر كان إسلام القبط يعفيهم من بعض المظالم، ولكنه لا يفتح لهم باب الاندماج الكامل في حياة العرب، ولا يسمح لهم بحالة التساوي الكامل معهم، وظل الأصل القبطي مدانًا، وكأنه وصمة تطارد صاحبه حتى بعد إعلان إسلامه، ودخوله الحياة الجديدة في وضع أدنى مرتبة من السادة ذوي الأصول العربية والعنجهية القبلية .

وقد أثيرت تلك العنصرية السلالية فيما يسمى بقضية أهل الحرس التي شغلت الرأي العام المصري زمنًا طويلًا (185-194هـ). وأهل الحرس هم جماعة من القبط المصريين الذين أسلموا، ورغبوا في أن يتساووا مع العرب في جميع الأوضاع الاجتماعية، فكتبوا لأنفسهم نسبًا يعود إلى حوتك، إحدى القبائل العربية، فثارت عنصرية عرب مصر «ورفضوا أن ينتسب غير عربي إليهم. وتحرش العرب بهؤلاء القوم وآذوهم، فجمع أهل الحرس من بينهم نقودًا دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسبًا عربيًّا». وأتوا بعض أعراب الحوف الشرقي ليشهدوا معهم أن نسبتهم إلى بني حوتكة من قضاعة، وقبل القاضي العمري شهادة عرب الشام «وسجل لهم نسبًا بذلك فثار عرب مصر وقام الشعراء يهجون القاضي وأهل الحرس»، فيقول أحدهم ويدعى يحيى الخولاني :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا

وقالوا أبونا حوتك، وأبوهم من القبط علج حبله يتذبذب

وفي البيت الثاني «حبله يتذبذب» إشارة إلى التمييز في الملبس الذي كان يفرض على قبط مصر، أن يربط الرجال والنساء زنارًا في وسطهم، بالإضافة إلى التمييزات الأخرى في اللون ونوع الملابس .

ويقول آخر، معلى بن المعلى الطائي، موجهًا حديثه للقاضي العمري الذي أثبت لهم هذا النسب العربي :

إن كنت قد ألحقتـهـم عربًا فزوجهم بناتك (231)

وفي ذلك إشارة إلى استحالة زواج القبطي من المرأة العربية، وحتى إذا أسلم القبطي وسقط حاجز اختلاف الدين، فإن هذه الصعوبة أو الاستحالة ظلت قائمة لزمن طويل لتكشف عن العنصرية القبلية وليست العنصرية الدينية فقط .

ويمكننا أن نلمس بعض الاختلاف بين موقف العرب الشماليين والعرب ذوي الأصول الجنوبية بالنسبة لأهل الحرس، فيذكر الكندي أن العرب اليمانية ومن ينتمي منهم إلى قبيلة قضاعة بالذات هم الذين وقفوا إلى جانب أهل الحرس واعترفوا لهم بنسب عربي؛ أو بمعنى آخر، لم يكن عندهم غضاضة في قبول فكرة مساواة القبط معهم في شتى مناحي الحياة، وفي إمكانية الاختلاط والانصهار والتزاوج واختلاط الأنساب والتساوي في المجالس وارتياد أندية العرب ومواضع

الشورى لديهم، خصوصًا أن بداية التداخل والجوار الحسن قد بدأت بين هؤلاء العرب اليمانية الذين كانوا يحتلون أسفل قاعدة ديوان العطاء، ويحصلون على أقل حصص الأموال المستنزفة من مصر لأنهم كانوا من الجند ذوي المرتبات الأقل، بل والتي أخذت في الانخفاض والتلاشي أكثر فأكثر بفعل تحيزات الولاة وسوء سياستهم، حتى انتهى الأمر بهؤلاء العرب ذوي الأصول الجنوبية إلى تفضيل الإقامة في المرابع، والاشتغال بزراعة الأرض ومجاورة القبط. ولم يكن لدى هؤلاء العرب ذوي الأصول الجنوبية والمضارين من عنصرية عرب الشمال غضاضة في التساوي مع أهل الحرس .

وظل الأمر مثارًا للخلاف والشجار حتى تولى القاضي البكري أمر القضاء (194-196هـ)، ومال إلى رأي عرب الشمال في عدم صحة نسب أهل الحرس، ودعاهم إلى دار القضاء، ويروي الكندي أنهم حينما ذهبوا إليه «أخرج البكري مقراضًا من تحت مصلاه فقطع قضية العمري، وقال لهم: العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاضٍ. إن كنتم عربًا فليس ينازعكم أحد »(232).

وألغى البكري حكم القاضي الذي سبقه، ومزق الشهادة التي تثبت هذا النسب، ففرح العرب المتعصبون، وأخذ شعراؤهم ينشدون أشعارًا تهجو القبط جميعًا وتحط من شأنهم، فيقول معلى الطائي الذي سبق وسبهم :

يا بني البظراء موتوا كمدًا واسخنوا عينًا بتخريق السجل

لو أراد الله أن يجعلكم   من بني العباس طرًا لفعل

لكن الرحمن قد صيركم   قبط مصر ومن القبط سفل

كيف يا قبط تكونوا عربًا   ومريس أصلكم شر الجيل

وقال يحيى الخولاني :

اشكروا الله على إحسانه فله الحمد كثيرًا والرغب

رجع القبط إلى أصلهم   بعد خزي طوقوه وتعب

ودنانير رشوها قاضيًا   جائرًا قد كان فينا يغتصب

وقال طاهر القيسي يمدح القاضي البكري :

ولقد قمعت بني الخبائث عندما رموا العلى وتحوتكوا وتعربوا

فرددتهم قبطًا إلى آبائهم   ونسيب أصلهم الذي قد غيبوا

وتركتهم مثلًا لكل ملصق نسبًا إذا التقت المحافل يضرب (1)

وبعد انتهاء قضية أهل الحرس بنفي أصولهم العربية، لم تهدأ ثائرة العرب ضد أقباط مصر الداخلين في الإسلام، بل احتدت النبرة أكثر من زمن المأمون بعد القضاء على ثورات الحوف الشرقي، وقمع قبطها وعربها ذوي الأصول الجنوبية .(233)

ففي أثناء ولاية لهيعة بن عيسى على القضاء قرب منه عددًا من مسلمي القبط، واتخذ من بعضهم مساعدين له، فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد ـ وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسمى ما يصبو إليه الفقهاء ـ كما اتخذ شهودًا جعلهم بطانته، منهم معاوية الأسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلًا .

مما أثار العرب ضد هذا القاضي، وضد مسلمي القبط الداخلين مجال العمل الفقهي والشرعي أو قدس الأقداس العربي الإسلامي، ونظم الشعراء القصائد المعبرة عن هذا الموقف الجمعي الرافض، وتصاعد سخطهم حتى شمل القبط جميعًا، وأخذ الشعراء يحطون من شأن القبط مرة أخرى، كما حدث في قضية الحرس السابقة .
فيقول الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم :

قبح الله زمانًا رأس فيه ابن تليد
بعد مقراض وخيط وأبيرات حديد
وأبو الزنباغ خناق غراميل العبيد
بعد سيف خشبي وسهام من حديد
وابن تدراق الأفا نين البليدين التليد
وابن بكار كراكير وغطاس الثريد
وأبو الروس المريسي بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكير نطفة القدم الطريد
وابن سهم حارس الجيزة حلوان البريد
عصبة من طينة النيل ميامين الخدود
ليسوا بعد التباين نفيسات البرود
لازموا المسجد ضلا لًا من الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها بفنا كل عمود
وتسوموا وتكنوا بعد جرح وشنود (1)

فالقضية إذن ليست قضية الإسلام، وليست قضية اختلاف الأديان، فقد دخل أهل الحرس الإسلام، ودخل الثلاثون رجلًا المحيطون بالقاضي لهيعة بن عيسى الإسلام، وأتقنوا اللغة العربية كأبنائها، ونبغوا في علوم الفقه والتفسير وغيرها من العلوم العربية، وتبنوا الثقافة العربية قلبًا وقالبًا، وصاروا نموذج المصري الحامل للعقل العربي الوافد. ولم يشفع لهم كل هذا، بل أصرت الروح القبلية المتعصبة على أن تضعهم في مرتبة أدنى .(234)
رغم أن العرب كانوا يسكنون أرض القبط، وينعمون بثروات القبط، ويأكلون مما يزرع القبط، إلا أن شعراءهم يعبرون عن ترفع العرب على سائر القبط ومهنهم، وكأنه من المسلمات الطبيعية أن يعمل القبط للعرب، ويكونون في مرتبة الخدم، فكيف يخرق القبط هذه النواميس ويزاحمون العرب في مكانتهم الشرفية !
ويمكن أن نتعرف من خلال تلك القصيدة على أنواع الحرف التي يقوم بها قبط مصر ما بين الحياكة والحدادة، والشاعر يخصص الحداد الذي يصنع نوعًا من القيود تستخدم في ربط العبيد وجرهم، وهو هنا يعيرهم بحقارة عمل الحدادة، لكنه من ناحية أخرى لا يدين تحويل الأحرار إلى عبيد ولا يدين التجارة فيهم، وهي التجارة التي نشط فيها الكثير من العرب، فقط يدين صناعة الطوق بصرف النظر عمن يقوم باستخدامه وفي أي الأغراض يفعل ذلك .

ومن الحرف الأخرى التي يعير الشاعر العربي القبط لقيامهم بها: النجارة وصناعة الطعام ودباغة الجلود والعمل بالبريد ـ كما يذكر أسماء رجال من القبط هم على ما يبدو أسطوات الحرف المشهورين في كل مهنة مثل: أبو الزنباغ، ابن تدراق، ابن بكار، أبو الروس المريسي، ابن لقيط، وابن سهم .
وشهرة حرفي القبط لم تكن محصورة بربوع مصر فقط، بل كانت تنتشر في آفاق هذا الزمان من قبل الفتح العربي. ومنتجات القبط كانت إحدى عجائب ذلك الزمان، فشكلت بملامحها الخاصة سمات الحضارة القبطية لقرون طويلة، وبنيت على أساسها دعائم الحضارة الإسلامية في مصر، فأخذت كل سماتها وطوتها بين أجنحتها. ولا زالت حتى الآن شواهد الحضارة القبطية حاضرة في المتحف الإسلامي في فن النسيج الذي عرف باسم القباطي، ويرى بعض الباحثين أنه قد وجدت مصانع نسيج تخصصت في صناعة ملابس الأغنياء أو الخاصة أطلق عليها اسم طراز الخاصة، ومصانع أخرى لإنتاج ملابس العامة أطلق عليها اسم طراز العامة. ولا زالت توقيعات نساجي القبط على العمائم الإسلامية في المتحف، وتشهد وحدتها الزخرفية بسمات الحضارة القبطية المحبة لرسوم الطيور والحمام والأعناب وغيرها من السمات المصرية الخالصة .
ويصف د. حسن الباشا في كتاب «فن التصوير في مصر الإسلامية»: «عمامة من الكتان الأبيض يزخرفها شريط أفقي منسوج بالصوف الملون به رسوم طير، يعلوه شريط من الكتابة العربية بالخط الكوفي ينسب العمامة إلى صاحبها سويل بن موسى، ويؤرخ صناعتها بسنة 88هـ، وتتألف زخارف الشريط الحمراء من مناطق، وفي كل منها رسم حمامة محورة عن الطبيعة يفصل كل منطقة عن الأخرى رسم هندسي »(235).
وسنجد بصمات الحضارة القبطية في عمارة المساجد نفسها، في المحراب المجوف المأخوذ عن محراب الكنيسة، وفي المئذنة القبطية، ويذكر البلاذري في كتاب «فتوح البلدان» أن الوليد قد استعان بالقبط في إعادة بناء مسجد المدينة، وفي بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى، بالإضافة إلى قصر أمير المؤمنين، «ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوي في المدينة عهد بذلك إلى معماريين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف في الإسلام وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة »(236).
وقد تعود الأكاديميون أن يذكروا في تلك المواضع أن الحضارة القبطية تركت بصماتها على الحضارة الإسلامية، ولكن: هل سألنا أنفسنا عن ماهية الحضارة الإسلامية في القرنين الأول والثاني للهجرة، وفيم تجلت؟
في هذا الوقت يمكننا الحديث عن استمرار وجود الحضارة القبطية في مصر، وتجليها في شتى مناحي الحياة، واستمرار ازدهار مراكز صناعية متنوعة مثل: مراكز صناعة نسيج الكتان الأبيض الشهير المشغول بخيوط الصوف الدقيقة وبديعة الألوان وبخاصة اللون الأرجواني في مدن نشا ودلاص وأنصنا وأشمون، أما صناعة المنسوجات الصوفية فكانت تنتشر في مدن مصر العليا مثل أخميم وقرية الشيخ عبادة وأسيوط واهناص والبهنسا والفيوم، وقد ذكر المقريزي مدينة تنيس كأحد مراكز صناعة القباطي. ونجد في المتحف القبطي ثروة من الوبريات ذات الزخارف الهندسية والرسوم الحيوانية، كما نجد نماذج للأغطية والوسائد والمفارش تعود إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين / الأول والثاني الهجريين، وغيرها من لوازم الحياة المستقرة الآمنة داخل

البيوت، مما يضفي عليها مسحة من ترف الحضارة، حتى ولو كانت بيوتًا بسيطة لواحد من عامة الشعب .
وما بقي لنا حتى الآن من الآثار هي مجرد علامات لحضارة غطت تفاصيلها شتى مناحي الحياة وتجلت في علوم الطب والصيدلة والكيمياء والحساب، كما تجلت في فنون العمارة والبناء والزخرفة والخشب المطعم بالصدف، والذي أخذه العرب فيما بعد، واشتهر باسم الأرابسك، بالإضافة إلى صياغة المعادن وصناعة أدوات النجارة وأدوات الزراعة التي لا زالت تستخدم حتى الآن، كما هي في أعماق الريف المصري مثل الساقية والشادوف والمنجل وغيرها من الأدوات .
ويرى سليمان نسيم أنه مما ساعد على ازدهار الصناعات في العصر القبطي، انتقالها من المنازل والمصانع إلى الأديرة أيضًا، حيث «انتقلت إلى الراهب المصري براعة الصانع المصري وفنه الدقيق، فنهض بصناعات النسيج والخشب والتجليد والخزف والمسارج والأواني المعدنية والشمعدانات والمباخر المعدنية والزجاج »(237).
وقد أجاد الأقباط صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة مما يدل على مدى ازدهار العلوم الكتابية التي اهتمت بها الكنيسة على وجه الخصوص .
وكان مجيء العرب في القرن السادس الميلادي وقت ازدهار الحضارة القبطية بشتى فروعها المدنية والحياتية. وإن كان صفوة العرب المشتغلين بالتجارة قد عرفوا مظاهر الحضارات المختلفة، ولكنهم تعاملوا معها جميعًا تعامل التاجر والمستهلك لا تعامل الصانع والمبدع؛ ينقلون قباطي مصر كما ينقلون حرير الشام وعطور الشرق وتوابله إلى بلادهم، فيستهلك السادة تلك المنتجات ويزدادون ثراءً بالتجارة فيها، مما جعل استهلاك تلك المنتجات الحضارية مقصورًا على دوائر ضيقة في المجتمعات العربية في مكة بالذات وخصوصًا قريش، وبعض زعماء القبائل الكبيرة، أما فلول العرب وأعدادهم الغفيرة فلم تكن تستمتع بتلك المظاهر الحضارية لا منتجة ولا مستهلكة، ومن هنا كانت الدهشة الكبرى التي لفت الجيش العربي بغلالتها أثناء دخول الإسكندرية ورؤية القصور الشاهقة والشوارع اللامعة ومظاهر الترف الواضحة في أحياء الرومان. وعلى طول الطريق قبل الوصول إلى الإسكندرية كان الأفق الأخضر الوافر بالمحصولات المختلفة يملأ العيون، والمياه العذبة تجري بلا عوائق، والفلاحون من الرجال والنساء ينطلقون في الحقول .
كانت تجليات الجنة ونعيمها كما حلم بها العربي ابن الصحراء تقابله في كل مكان وتأخذه بسحرها. وإن كان يفصله عنها بحر من الدم خاض فيه حتى قضى على أعدائه، وامتلكها، وأصبح كل ما في الجنة مسخرًا لخدمته: الفواكه والأعناب، الأشجار والطيور، الأنهار الجارية، اللبن والعسل، الرجال والنساء، الذهب والفضة ـ مثل معادن جبال العلاقي التي نزحت إليها قريش وسيطرت عليها ـ حتى الخمر التي وعد الله بها المؤمنين في الجنة كانت متوفرة. وكثير من الحكايات التاريخية تشير إلى إقبال المسلمين الفاتحين على العب من كل الشهوات، بما فيها الخمر، وحادثة شرب ابن الخليفة عمر بن الخطاب للخمر لم تكن استثناءً وحيدًا، كما يروى عن القاضي البكري، الذي حكم ضد قبط مصر في قضية أهل الحرس، أنه كان لا يجلس للقضاء إلا بعد الغداء وبعد أن يشرب عدة أقداح من الخمر، ونجد في أخبار دعبل بن علي، الذي حكم أسوان بعض الوقت، أنه كان يشرب النبيذ (238).

ويشير بعض المؤرخين إلى أن القبط كانوا يدفعون مقرر ضرائب الخمور مساويًا لمقرر ضرائب المنتجات الأخرى كالخل والعسل. والحالات التي قرر فيها بعض الولاة تكسير دنان الخمور تؤكد أن صناعة الخمر واستهلاكه ظلت قائمة طوال فترات الحكم العربي لمصر، إلا في استثناءات حادة قليلة لبعض الحكام الذين كانوا يأمرون بالتضييق عليها .

*

وظلت صورة الجنة كما تخيلها العربي تغلف رؤيته لمصر، ويروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال :

لما خلق الله آدم، مثل له الدنيا: شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر رآها أرضًا سهلة ذات نهر جارٍ، مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلًا من جبالها مكسوًّا نورًا لا يخلو من نظر الرب عز وجل، فأومأ إليه بالرحمة. في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات. قال :

يا أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة وتربتك مسك تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة مطيعة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة، ولا زال بك حفظ ولا زال منك ملك وعز، يا أرض مصر، فيك الخبايا والكنوز ولك البر والثروة. سال نهرك عسلًا، كثر الله رزقك، ودر ضرعك، وزكا نباتك، وعظمت بركتك وخصبت، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني، فإذا فعلت ذلك عداك شر ثم يغور خيرك (239).

وكثيرًا ما كانوا يقولون إن نيلها «يخرج من الجنة على حسب ما ورد به خبر الشريعة »(240). فهي صورة الجنة على الأرض، وجمالها مشروط بمدى الخضوع للسيد العربي، فإذا تمردت عليه انقلب الجمال إلى شر مطلق. خصوصًا أن ملامح هذا الجمال ومفرداته هي الخبايا والكنوز والبر والثروة، كما أن أهم شروط الإحساس بهذا الجمال هو استمرار سيلان الثروة في أيدي السيد العربي كما يستمر حلب اللبن من ضرع بقرة حلوب خصبة، وسنجد تشبيه البقرة الحلوب كثير التكرار في حديث ابن عمرو «در ضرعك»، بمعنى الدعاء لها بزيادة الثروة، ومرة يأتي على شكل حث مجنون لنهب الثروة، كما جاء في وصية الخليفة سليمان بن عبد الملك لأسامة بن زيد التنوخي، متولي خراج مصر، فقال له: «احلب حتى ينقيك الدم. فإذا أنقاك الدم حتى ينقيك القيح. لا تبقيها لأحد بعدي »(241).

وجنون الاستنزاف الذي سيطر على الخليفة، جعله لا يقنع بمجرد حلب اللبن، فطالب متولي الخراج بحلب الدم، ثم لا يكتفي بحلب الدم فيطالبه بحلب صديد الجروح العميقة، حتى يترك البقرة جثة هامدة ليس فيها شيء لأحد بعده. وهو جنون لا يوازيه إلا نهم الخليفة إلى الطعام الذي كان يسيطر عليه ليل نهار حتى صار مضرب الأمثال في الشره. ويحكي الدميري في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» أن سليمان بن عبد الملك «كان نهمًا في الأكل وقد نقل عنه فيه أشياء غريبة فمنها أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية وأربعين بيضة، وأربع وثمانين كلوة بشحمها، وثمانين جردقة، ثم أكل مع الناس على السماط العام. ومنها أنه دخل ذات يوم بستانًا له، وكان قد أمر قيمه أن يجني ثماره، ويستطيب له، وكان معه أصحابه فأكل القوم حتى اكتفوا، واستمر هو يأكل فأكل أكلًا ذريعًا، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها، ثم أقبل على الفاكهة فأكل أكلًا

ذريعًا، ثم أتى بدجاجتين مشويتين فأكلهما، ثم مال إلى الفاكهة فأكل أكلًا ذريعًا، ثم أتى بقعب يقعد فيه الرجل مملوء سمنًا وسويقًا وسكرًا فأكله أجمع، ثم سار إلى دار الخلافة وأتى بالسماط فما نقص من أكله شيء »(242).

وقد تمسك أسامة بن زيد التنوخي، متولي خراج مصر، بنصيحة الخليفة الشره إلى الطعام والثروات، وعمل على جمع كل ما يستطيع من الأموال، وبعثها إليه. ويعلق المقريزي على أفعال أسامة بن زيد بأنه «عمل فيها عملًا ما عمله فرعون، واشتد على نصارى مصر، وأمر بقتلهم وأخذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحديدة عليها اسمه ـ الراهب ـ واسم ديره وتاريخه، فكان من وجد منهم بغير وسم قطع يده... وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى ولم يكن بيده منشور يؤخذ منه عشرة دنانير »(243).

وقد كان وصف مصر بالبقرة الحلوب شائعًا بين العرب، نجده لدى الخليفة عمر بن الخطاب في حديثه إلى عمرو بن العاص، وفي حديث الخليفة عثمان بن عفان لعمرو بن العاص «لقد درت اللقحة بعدك يا ابن العاص ».

وبخلاف وصف البقرة أو اللقحة، نجد آخرين يصفونها بسلة الخبز، لأنها كانت تبعث بالقمح إلى مكة والمدينة وتمير ـ أي تعيش ـ الخلافة وتعطيها ما تحتاج له من الطعام .

أما أبو بصرة الغفاري فيشبهها بخزائن الأرض كلها، وابن العاص كان يؤكد أن خلافة مصر تعدل الخلافة كلها !

وسواء كانت بقرة أو سلة أو خزانة فجميعها تشبيهات تفصح عن معاني الاستنزاف التي تعرضت لها مصر على يد الفاتح العربي لأنها «معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال ومغارس الغلات »(244).

فاستحلب العرب ـ كما يقتضي الغزو لدى كل الجيوش ـ ذهبها وجواهرها وأموالها وغلاتها، ونظروا إلى أهلها نظرة التعالي المطلق .

فكان القبط يزرعون للعرب، ويبنون للعرب، ويصنعون للعرب، ثم يحتقرهم العرب وينظرون إليهم من علٍ .

في ذات الوقت الذي كان يبالغ فيه العرب في مدح ثروات مصر، كانوا يبالغون أيضًا في ذم شعبها وتحقير شأن الرجال والنساء حتى وسموهم بكل علامات الشر المطلق، فيقول من يصفها بأنها معدن الذهب أن في «أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة »(245).

ويقول ابن عباس: «إن المكر عشرة أجزاء؛ تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس »(246).

أما الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي يقسم «أهل مصر ثلاثة أصناف: فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس. فأما الثلث الذي هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذين لا ناس فالمسالمة يعني القبط »(247).

ويبدو أن التعبير عن نظرة العرب الدونية لقبط مصر كان ضروريًّا لاستمرار منطق العنجهية العرقية المبالغ فيها، واستمرار منطق الاستنزاف والسيادة لصالح الفارس العربي الذي يجب أن يحتل المكانة العليا في المجتمع بمقتضى حد السيف، فيحتكر معها كل الصفات النبيلة الرفيعة بحد السيف أيضًا .

أما الشعب المحكوم والخاضع كليًّا لمنطق الغزو، فإن السادة العرب يرونه من زاوية عدم استحقاقه للخيرات المحيطة به: من زرع وماء وثروة، وفي بعض الأحيان يرونه من زاوية عدم الاستحقاق للحياة نفسها .

والنتيجة الطبيعية في نظر الناس، أو الأشراف من العرب، أن القبط أو اللاناس ينتجون الثروة، والعرب أو الناس يستهلكونها ويغرقون في الاستمتاع بها. والصواب الوحيد في عين العربي الحاكم هو ضمان استمرار خضوع القبط للعرب لضمان استمرار استحواذ العربي على الثروة، ولذلك فإن الحكام العرب نظروا إلى الثورات القبطية على أنها خروج اللاناس على ناموس الطبيعة. وربما من هذه الزاوية تجاهل معظم المؤرخين العرب أحداث ثورات القبط، وتعاملوا مع مصر أثناء ذكر أخبار الفتح وكأنها أرض بلا شعب. واستمروا على هذا النهج إزاء أحداث عام 107هـ وتصاعداتها حتى بلغت ذروتها عام 132هـ، مع نهاية الدولة الأموية .

ومن المدهش أن نجد ثنائية الإشادة بمصر ـ الأرض والثروة والخيرات ـ من ناحية، وذم الشعب ووصفه بشتى الصفات السلبية من ناحية أخرى، لدى مؤرخ مرهف الشعور الاجتماعي مثل المقريزي الذي فطن إلى تفاصيل الحياة الاجتماعية والسلوكية والعقائدية لدى الشعب، كما فطن إلى التمردات القبطية الكبرى، وخصص لها فصولًا في كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، بعكس الآخرين الذين كتبوا عن مصر وكأنها أرض بلا شعب، فتحها العرب بعد سلسلة معارك ضد الرومان فانتصروا عليهم وتمكنوا من تثبيت أقدامهم فيها وفرض الجزية على سكان يسمون في العموم بالأقباط .

أما المقريزي، فقد سجل صورة تمتلئ بالتفاصيل الحيوية عن حياة الشعب المصري في ظل الحكم العربي، ورغم هذا الحس الاجتماعي المرهف فإننا نجد نفس الثنائية المتعالية على الشعب، ولم لا؟ وهو المؤرخ المصري المولد والإقامة، العربي الثقافة والتكوين، رباه جده لأمه، ويدعى ابن الصائغ، على المذهب الحنفي، ثم انقلب شافعيًّا بعد وفاته. وقد تولى عددًا من الوظائف في ديوان الحكومة حتى أصبح محتسبًا؛ وهو منصب له مكانته العالية في شؤون الحكم .

ونجد في كتابات المقريزي ـ شأنه شأن مؤرخي مدرسة التاريخ المصرية التي أسست على يد ابن عبد الحكم ـ فكرة العرب عن أنفسهم، وهم الحكام والغالبون، ونظرتهم للشعب المصري، وهم المحكومون المغلوبون، ونتعرف من خلاله على كل الأساطير السائدة وخرافات العرب عن المصريين .

ومن الغريب أن يفيض المقريزي في وصف المصريين بالجبن والاستخذاء مؤكدًا ـ غير مرة ـ أنها صفات طبيعية منحتها لهم الطبيعة فالتصقت بهم جميعًا، وفي المقابل يصف العرب بالشجاعة والإحساس بالكرامة كصفات أصلية، فيقول إن أهل مصر يغلب عليهم «الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس. وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التي تكون من دناءة الأنفس، وليس هذه الشرور عامة فيهم، ولكنها موجودة في أكثرهم، ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور، ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الأسد، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الأخر ما خلا ما كان منها في طبعه ملائمة لهذه الحال كالحمار والأرنب »(248).

وهكذا يلصق المقريزي ـ نموذج العقل العربي المتعالي على المصريين ـ كل الصفات السلبية بالشعب المصري، ويختمها بطابع الأزلية والثبوت، حينما يدعي أنها صفات طبيعية تنبع من طبيعة الأرض ونوع المياه ولون السماء، ولا أحد يعلم كيف تولد الأرض الجبن والشرور الدنيئة في النفس، وكيف تولد أرض أخرى الشجاعة والخير والفضيلة؟ !

وكيف تولد الخضرة والمياه الجارية وتوافر المحصولات الشر والدناءة، بينما تولد الصحراء وحياة الندرة الشجاعة المطلقة؟ !

إنها فكرة العربي الذي ينشأ على الإغارة والحرب والغزو، فيعتقد أنه السلوك الأرقى طالما يمكنه من الحصول على احتياجاته وزيادته، ويضعه على رقاب الناس في مكان السيادة، فيسمي القتال فروسية، والغزو جهادًا في سبيل الله، والقتل شجاعة !

وتأخذ عصبية العقل العربي حدًّا لا يكتفي فيه بوسم المصريين فقط بتلك الصفات السلبية؛ بل إنه يذهب إلى وصف حيوانات المكان بنفس الصفات في تشبيه واضح يؤكد طابع الأزلية الكونية، فيؤكد أن مصر لا تصلح لسكنى الأسود، وإذا دخلت فإنها تذل ولا تتناسل، وحتى كلاب مصر تكون أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ونباحها أضعف، وأكثر الكائنات انسجامًا مع طبيعة تلك البيئة هي الحمار والأرنب !

وينسى المقريزي ـ ومن خلفه العقل العربي بأجمعه ـ أن الجزيرة العربية موطن السادة الأشراف والفرسان المغاوير تخلو أيضًا من الأسود رغم اختلاف بيئتها عن بيئة مصر، ورغم إفاضة العقل العربي في مقارنة النفس بالأسود في الشجاعة والقوة في أشعارهم ومواطن فخرهم .

كما ينسى المقريزي أن مصر لم تخلُ تمامًا من الأسود التي استخدمها الحكام العرب في عقاب الأقباط الخارجين عن طاعة الحكام مثلما حدث في نهاية الدولة الأموية، حينما قبض الخليفة مروان بن محمد على رجال الكنيسة وسجنهم وسلم «أغناطيوس القديس الشهيد إلى عشرة من الأُسْد »(249).

وتذكرنا تلك الحادثة بتاريخ القبط الدامي مع الأسود منذ العصور الرومانية، حيث كان يتسلى الأباطرة والحكام بمشاهدة الأسود تهاجم المعارضين في حلبة المصارعة، وتفتك بهم وسط صيحات الفرح والتشجيع. وقد أعاد بعض الحكام العرب نفس التقليد ضد مخالفيهم من القبط .

وقد ترك هذا التاريخ الدامي أثرًا قاتمًا في استخدام القبط لتشبيه الأسود، على عكس العرب الذين يتخذونه مضربًا في الشجاعة ومثالًا لها .

وفي كثير من النصوص القبطية القديمة، نجد أن استخدام تشبيه الأسد يدل على الشراسة وحب سفك الدماء كما في وصف ساويروس بن المقفع لأحد الحكام العرب بأنه «كان باغضًا للنصارى، سفاك الدماء، رجل سوء كالسبع الضاري »(250).

ويقول في موضع آخر عن «ملك اسمه مروان ثار مثل الأسد إذا خرج من الغابة جائعًا يأكل ويدوس الباقي برجليه »(251) ، بعكس العرب الذين يقرنون صفة الأسد بالشجاعة ويتيهون بأنفسهم حينما يقرنون أنفسهم به .

وعلى عكس فكرة المقريزي السابقة عن خلو مصر من الحيوانات الضارية لعدم صلاحية أرضها المولدة للجبن والأخلاق الدنية، نجد في مصر الكثير من الحيوانات الضارية التي لا تسكن الجزيرة العربية مثل أنواع التمساح والنمس وذئاب البراري والأفاعي وغيرها، والحضارة القبطية أبدعت في إدخال تلك الضواري ضمن أنساقها الفنية، كما أن العقل المصري حفظ الكثير من

الحكايات عن حب المصريين للحيوانات ومعاملتها برأفة وشفقة وهي عادة موروثة عن الفراعنة الذين كانوا يكتبون على مقابرهم أنهم لم يؤذوا حيوانًا في حياتهم تقربًا إلى الإله خالق الطبيعة .
وهناك منظر جميل لملاح محفور في الخشب، والملاح يداعب تمساحًا بيده (252) ؛ والتمساح من الحيوانات الضارية التي أَلِفها خيال الفنان القبطي وصورها بأسلوب محبب بجوار الحيوانات الأليفة مثل: الطيور والأسماك والأرانب والغزلان، وهو يرى فيها جميعًا، الأليف والضاري، وداعة ورقة مفرطة .
*
إلى جانب صفات الشر والدنية السابقة، نجد العقل العربي يلصق صفات المكر والكيد والخبث والدهاء بقبط مصر، مع التأكيد مرة أخرى على أنها صفات طبيعية لا شك فيها. وكثيرًا ما تأتي على لسان صحابة لهم شأن في الفكر العربي مثل ابن عباس الذي ينسب إليه قوله: «المكر عشرة أجزاء تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس »(253).
وقول عبد الله بن عمرو بن العاص: «لما هبط إبليس وضع قدمه بالبصرة وفرخ بمصر »(254). والأحاديث السابقة تضع صفات الكيد والمكر على كاهل المصريين وكأنها قدرهم الأزلي الذي تقتضيه نواميس الطبيعة، فكما تشرق الشمس كل صباح يولد المصري ماكرًا أو شبيهًا بالشيطان في أخلاقه وصفاته .
وهذه الصفات إن وجدت فهي بالضرورة تنتج عن أوضاع اجتماعية معينة تضطر الإنسان إلى حماية نفسه بوسائل الضعفاء. فنحن، إذن، أمام أمراض العلاقة بين العرب الحاكمين والقبط المحكومين، ولسنا أمام صفات وراثية، فهي علاقة لا يمكن أن يكتنفها الإسلام، ولا أن يكون الحب والرضا أساسًا فيها. وما حدث بين العرب والقبط في حاجة إلى دراسة من أكثر من زاوية، حيث إن هناك جانبًا مسلحًا ومتفرغًا لشؤون الحرب والقتال وجمع الأموال، والآخر أعزل ويدور في ساقية عمل قاسية .
طرف يشرع القوانين المستنزفة ويفرضها بقوة السلاح، والآخر ظهره للحائط ويضطر إلى الدفاع دائمًا، وفي تلك الثنائية لا يمكن أن يحب الأعزل قاتله .
وفي الأوقات التي لم تصل الأمور فيها إلى لحظة التمردات الكبرى، اضطر القبط إلى تجريب كل الوسائل السلبية لحماية النفس، فترددوا بين الصمت والتلطف والاسترضاء، وحتى محاولات الفرار الجماعي من العمل في الأرض وتركها إلى الأديرة البعيدة حتى فطن الحاكم إلى ذلك، وسدوا تلك الثغرة بتشديد القوانين حول الرهبان والكنيسة .
وقد حدثت الثورات في أوقات كثيرة طغى فيها الجانب العربي، وظن أن القبط خانعون دائمًا وخاضعون حتى الموت، فأتت نتائج الأحداث على عكس ما يتوقعون .
ويعود المقريزي إلى التأكيد عدة مرات على أن كل الصفات الرذيلة هي صفات طبيعية، وإن تلطفوا فيها وحاولوا إخفاءها تحت غلالة النفاق والبشاشة، ويستشهد في ذلك بأبيات أبي نواس الذي يوجه حديثه إلى أهل مصر قائلًا :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية أكول لحيات البلاد شروب

فإن يك باق إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

ثم يربط المقريزي بين نوع الطعام الذي يتناوله أهل مصر وبين أخلاقهم تبعًا للقاعدة التي تقول إن «كل قوم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها »(255) فيكون طبعها وأخلاقها موافقًا لنوع الطعام الذي تأكل .

ولكن كيف تكون مصر بلدًا كثير الخيرات، وفير المحاصيل، ولا يأكل الشعب إلا الأغذية الرديئة «مما يؤكد أمرهم في السخافة وسرعة الوقوع في الأمراض»، كما يقول المقريزي؟ !

إن سوء غذاء الناس وسوء حالهم وغلظة طباعهم يدل على عدم انتفاع أهل مصر بخيراتها، واقتصارهم على ما تبقى من الفتات الخشنة، فهي بلد ذو وجهين أو ذو نوعين من المعيشة؛ وجه يرى ويحس أنها «معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال ومغارس الغلات»، أو كما وصفها عمرو بن العاص للخليفة ابن الخطاب: «فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء »(256).

ويصفها آخر بأن «نيلها عجب، وأرضها ذهب، وخيرها جلب، وملكها لمن سلب، ومالها رغب، وفي أهلها صخب، وطاعتهم رهب، وسلامهم شغب، وحروبهم حرب، وهي لمن غلب »(257).

وهناك مفارقة واضحة بين شدة الإعجاب بالأرض وشدة التحقير لسكان الأرض؛ فمصر التي يراها عمرو بن العاص شجرة خضراء، أو لؤلؤة بيضاء، أو عنبرة، أو زمردة، وجميعها تشبيهات مستمدة من الجواهر النفيسة الخلابة للعيون والساحرة للنفوس، يكون أهلها من وجهة نظره: «أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحبظن يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم »(258).

وأهلها المحتقرون في هذا الوصف يحرثون الأرض ويمارسون شتى أعمال الفلاحة والزراعة من أجل غيرهم، وليس لهم رأي في شؤون السياسة، وهم في وضع الخسيس، وفي نفس الرسالة يقرر عمرو بن العاص سياسة السيطرة على البلاد :

ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدي خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال (259).

ونجد ذات هذه الفكرة في الوصف الثاني الذي يمتدح أيضًا أرضها الذهب، ويذم أهلها الذين تكون طاعتهم رهب، أي خوفًا وجبنًا، في ثنائية تبرر فعل السيادة نفسها لقوم يلهثون خلف الثروة، ويجبرون أهل البلاد على إنتاجها باستخدام شتى دروب العنف .

*

إنها الأرض التي يخرج نيلها من الجنة في نظر العربي، وتسير المرأة فيها والمكتل فوق رأسها فيمتلئ ثمارًا دون أن تبذل جهدًا في جمعه .

وهي التي تمتد ضياعها أينما وقعت العين على طول الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية، ومن الفسطاط إلى رشيد، بطول الدلتا والنيل. فكانت الغلات والكروم في كل القرى. حتى إن ابن ظهيرة يصف كور مصر بقوله :

لما صورت الدنيا كلها للرشيد لم يستحسن منها إلا كورة أسيوط، لأن مساحتها ثلاثون ألف فدان في استواء الأرض، لو وقعت فيها قطرة ماء واحدة انتشرت في جميعها، لا يظمأ منها زرع، فيها يزرع الكتان والقمح والقرطم وسائر أنواع الغلات .

ومنها بلد الأشمونين وما يعمل فيها من الأرز والكتان... ومنها مناسج الأرمني والديبقي، والمثلث... وبها الخس والسفرجل... والليمون .
ومنها أخميم، بلد عظيم، وفيه من العجائب والآثار والبرابي والطلسمات ما لا يعرف، وبه الإهليج الكابلي والأصفر (صنوبر)... وبها يعمل الطراز الصوف الشفاف، والمطارف والمطرز والمقلم الأبيض والملون .
وقوص، فيها سائر أصناف التمر والخل والحطب الكاري الذي لا رماد له، والفحم الجافي، وسائر أنواع الأرطاب والكروم ومعادن الذهب والجواهر ...
أما دمياط وتنيس فهما حاضرتا البحر، وبها من صيد البر والبحر من الحيتان والطير ما ليس في بلد في هذا الزمان. ويزرع بها من قصب السكر والموز شيء كثير .
ولقد أخبرني من أثق به من أهلها أن الفدان منها من القصب يخرج منه السكر أربعين قنطارًا بالفُوَيّ، وهو مائة قنطار بالمصري .
ومنها الفرما وبها البسر الفرماوي والرطب والتمر، إذا فرغت أرطاب الدنيا وبسرها، وجد هو .
وما بين عين شمس والفرما تربة وسيعة يزرع فيها الأرز والأترنج الأحمر الجافي، وبها الحصر الساماني والعبداني ومنابته، والكتان .
وبوصير وسمنود وفيها من الكتان الذي يحمل إلى بلاد الإسلام والكفر وأقاصي الدنيا، ما لا يحصر، وبها الأترنج الجافي والإوز الذي لا يرى في خلقته ولا وزنه مثيل له، وربما كان وزن الطير الواحد أربعين رطلًا (260).
حتى العريش والجفار، وصف المسعودي ما فيه من الطير والجوارح «والمأكول والصيد والنمورة»، كل هذه الخيرات تركزت في بلد واحد قال عنه العرب إنه يمير غيره، أي يعطي البلاد الأخرى الطعام بينما أهل البلد لا يأكلون إلا الرديء والسيئ من الطعام، فنجد «أهل الصعيد يغتذون كثيرًا بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ويحملونها إلى الفسطاط وغيرها فتباع هناك وتؤكل... وكثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريًّا ومالحًا ويكثرون أكل الألبان وما يعمل منها، وعند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكًا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها، وبالجملة فكل قوم منهم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها إلا أن الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة »(261).
أما أهل البشمور الذين كانوا كالشوكة في ظهر العرب، الكثيرو الثورات، والمشهورون بالشدة والقوة، فإن «طباعهم أغلظ، والبله عليهم أغلب، وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جدًّا ويشربون من الماء الرديء »(262).
أما إسكندرية وتنيس وأمثال هذه المدن «فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عنهم وظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم ولا يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والجمادية، وإحاطة البحر بمدينة تنيس توجب غلبة الرطوبة عليها مما يسر أخلاق أهلها »(263).
والمقارنة بين أخلاق البشموريين وأخلاق المدينتين المطلتين على البحر ـ إسكندرية وتنيس ـ تأتي لصالح المدينتين، دون البشمور، فيمَ استحق أهل البشمور صفات البله والغلظة وهم ثوار القبط

الأشداء، واستحق أهل الإسكندرية وتنيس صفات رقة الطبع ورفع الهمة وليس في تاريخهم تحت الحكم العربي ثورات تعادل ثورات البشموريين؟ !
وسبب ثورات البشموريين التي جلبت عليهم صفات الغلظة والبله من وجهة نظر الحكام، هي أسباب اجتماعية ومعيشية قاسية دفعتهم إلى الثورة؛ ولا شأن هنا لما يهب عليهم من رياح البحر أو غيرها .
سنجد الفقر المدقع في بلد يسكنه مزارعون وصيادون وطحانون، يعانون البلايا الشديدة من متولي الخراج: أحمد بن الأسبط وإبراهيم بن تميم؛ فكانوا «يعذبونهم بعذاب شديد مثل بني إسرائيل إلى أن باعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب، لأنهم كانوا يربطونهم في الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذي يعذبهم رجل اسمه غيث وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت »(264) ؛ فسبب ثورة البشموريين ـ لدى ساويروس ـ هو عسف جباة الخراج وإهانتهم لسكان البلاد، وتحميلهم ما لا يطيقون، وبالتالي لم يكن أمامهم بد من المقاومة .
أما المقريزي، ومن خلفه العقل العربي، فيرى أن سر ثورات هؤلاء القوم يرجع إلى غلظتهم الناتجة عن خشونة الطعام وخشونة المياه والبيئة الجافة؛ وكلها عوامل طبيعية انطبقت على أماكن أخرى ولم تؤدِ إلى تفجير الثورة .
وعلى أية حال، إذا كانت خشونة أهل البشمور لا تعجب العرب، فإن سهولة أهل تنيس لا تعجبهم أيضًا، ولكن لأسباب أخرى عكسية؛ فالمقريزي يصف أهلها بالميوعة وانتفاء الرجولة والتخنث، حينما يقول :
أخلاق أهلها سهلة منقادة وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة. قال أبو السرى الطبيب: إنه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث (265).
وإن شئنا الدقة سنجد أن ميوعة الخلق لا يقصرها المقريزي على أهل تنيس فقط، بل إنه يصف أهل مصر جميعًا بقلة الغيرة على نسائهم في محاولة لتصوير المصري بارد الدم والأعصاب، لا يحرك ساكنًا للدفاع عن بيته ونسائه ضد الغرباء، في مقابل دماء العرب الحارة وغيرتهم الشديدة على النساء التي تصل إلى حد منعهن من الخروج والاختلاط بالرجال وتحجيبهن عن جميع الأنظار. مما يعكس وجهة نظر السادة العرب النافية للرجولة عن المصريين في مقابل تأكيد رجولة وفحولة العربي الذي يضع نساءه في مرتبة واحدة مع ممتلكاته السرية، حيث تتعايش جميع الأمراض السلوكية والنفسية خلف الأستار، وأي إخلال بهذا السد المنيع يقتضي الغضب وسوء الظن بالنساء .
ويحكي المقريزي حكاية أسطورية عن هلاك جميع الرجال المصريين زمن قدماء المصريين مع فرعون أثناء عبوره البحر، حتى لم يعد إلا العبيد، ولم تستطع النساء الصبر على الحياة دونما علاقات مع الرجال «فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئًا إلا بإذنهن، فأجابوهن في ذلك، فكان أمر النساء على الرجال »(266).
من يومها ونساء مصر يسيطرن على الرجال، أو كما يقول يزيد بن حبيب، أحد رواة الحديث: إن نساء القبط على شرطهن القديم حتى زمن كتابة تلك الحكاية في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فهن على سنة أسلافهن يقهرن الرجال ويخضعنهم حتى إن الرجل لا يبيع ولا يشتري إلا بأمر زوجته .

وبذلك نجد العقل العربي يقلب الأوضاع، ويصور الأمر وكأن شخصية المرأة المصرية تطغى على الرجل فيكون هو الأضعف، الأعجز عن التصرف في شيء إلا بالرجوع إليها، في مقابل صورة العربي الفحل قاهر النساء كثير الزواج، كثير الجواري والحريم، الذي يتفاخر بقدرته على كثرة الجماع، وتمتلئ كتب التاريخ العربي بمثل هذه الحكايات التي تنافس حكايات الأدب المكشوف، وتفوقها، كما تحفل السير الشخصية للكثيرين منهم بكم هائل من وقائع التزوج والتسري والتعامل مع النساء باعتبارهن مجرد أدوات للذة الحسية .

وهكذا كتب المؤرخون العرب تاريخ مصر من وجهة نظرهم، ونعتوا فيه المصريين بأشد الصفات سوءًا حينما تحدثوا عن أخلاق وعادات وصفات المصريين؛ ففسروا سمرة المصريين بأنهم «أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق، واستولدوهن »(267).

وذموا أخلاقهم بدعوى أنه: «يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس، وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التي تكون من دناءة الأنفس »(268).

بينما يرى العرب أنفسهم أنهم: «أتم الناس عقولًا وأحلامًا وأطلقهم ألسنة وأوقرهم أفهامًا. واستتبع ذلك لهم كل قضية وأورثهم كل منقبة جليلة »(269).

أما نساؤهم فيقدمون صورهن على أنهن: «أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس »(270).

وفي المسافة بين الصورتين ـ صورة السادة الأشراف العرب الحاكمين وصورة الشعب المصري المحكوم ـ تراوحت اللغة العنصرية وصارت سجينة مشتقات «أفعل التفضيل» وبموجبها احتكر العرب صفات أحسن وأشرف وأتم وأعقل وأبلغ وأحلم، وغيرها من الصفات التي كانت يوميات الحرب والحكم تترجم وجهها العكسي. وانحصر المصريون في الوضع الدوني، والتصقت بهم صفات الشر والدنية ودناءة النفس .

وبناءً على هذا المنطق القائم على دعائم التفوق والصلاحية الطبيعية: رسخ العرب سلطتهم وهيمنتهم على الشعب القبطي الأعزل. وظل المصريون يعانون من هذا الوضع، أو كما يقول ابن ظهيرة :

لم تزل ملوك مصر من بعد عمرو بن العاص وإلى وقتنا هذا، يجمع كل واحد منهم أموالًا عظيمة لا تدخل تحت الحصر. وكذا الأمراء والوزراء والمباشرون على اختلاف طبقاتهم، كل منهم يأخذ أموالًا لا تحصى في حياته (271).

الفصل الرابع

أحداث الفتح العربي لمصر

بوثيقة يوحنا النقيوسي (272)

الباب السادس والأربعون

سار المسلمون إلى الصحراء، وأخذوا كثيرًا من الخراف والظباء من الجبل، ولم يعرف أهل مصر هذا، وعندما ساروا إلى مدينة البهنسا جاء كل الجنود الذين كانوا عند شاطئ البحر مع يوحنا، ولم يستطيعوا أن يأتوا في هذا الوقت إلى مدينة فيوم .

وسمع «تاودسيوس» الحاكم بمجيء الإسماعيليين، وكان يسير من مكان إلى مكان ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء. وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وكل من معه دون رحمة .

وفي الحال فتحوا المدينة، وكل من جاء إليهم قتلوه، ولم يرفقوا بأحد لا شيخ ولا طفل ولا امرأة.

وأتوا إلى يوحنا الحاكم، فأخذ الأفراس واختبأوا في الحظائر والمزارع حتى لا يعرفهم مبغضوهم ونهضوا ليلًا وساروا إلى النهر العظيم في مصر عند بويط حتى ينجوا. إن هذا كان من الرب .

وأخبر رئيس العصبة، الذي كان مع «أرمياس»، قادة الإسلام بأمر جماعة الروم الذين اختبأوا، فقبض هؤلاء عليهم وقتلوهم. وتناهى هذا الخبر إلى «تاودسيوس » القائد و«أنسطاسيوس»، وكانا بعيدين عن مدينة نقيوس بمقدار اثني عشر ميلًا، فتوجها في الحال إلى حصن بابليون وبقيا هناك، وأرسلا «لونديوس» الحاكم إلى مدينة بويط، وكان هو بدين الجسم ليست به قوة، لا يعرف شأن الحرب، وعندما وصل وجد جنود مصر و«تيودور» يقاتلون الإسلام، وكل يوم يأتي من مدينة الفيوم ليستولي على المدينة، وأخذ نصف الجنود وسار إلى بابليون ليخبر السادة، وصار نصف الجنود مع «تيودور». وبحث «تيودور» بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الذي غرق في البحر . وبعد حزن شديد أخرجه بشبكة ووضعه في نعش وأرسله إلى السادة، فأرسله السادة إلى هرقل .

ومن بقي بمصر كان يهتم بأن يتحصن بحصن بابليون. وكذلك كانوا ينتظرون «تيودور» الحاكم ليتلاقوا لقتال الإسماعيليين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكون وقت الزرع فلا يستطيعوا الحرب، لئلا يتلف زرعهم فيموتوا جوعًا مع صغارهم وحيواناتهم .

الباب السابع والأربعون

وكان هناك نزاع كبير بين الرئيس «تيودور» والسادة، وجاء «تيودور» والسادة، وجاء «تيودوسيوس» و«أنسطاسيوس » كلاهما إلى مدينة أون ممتطين فرسين مع كثير من المشاة ليحاربوا عمرو بن العاص والإسلام، والمسلمين لم يكونوا يعرفون مدينة مصر من قبل، وتركوا المدينة الحصينة وجاءوا إلى مكان يدعى طندونياس وساروا بالسفن في النهر، وكان عمرو ذا اهتمام عظيم وكبير ظن في أن يستولي على مدينة مصر، وكان حزين القلب لانفصاله عن جنود الإسلام .

وكانوا منقسمين قسمين شرقي النهر، وساروا إلى مدينة تدعى عين شمس وهي أون التي كانت أعلى الجبل .

وأرسل عمرو بن العاص رسالة خطية إلى عمر بن الخطاب في مدينة فلسطين قائلًا: إذا لم ترسل عونًا من المسلمين فلن يستطيع الاستيلاء على مصر، فأرسل هذا إليه أربعة آلاف محارب مسلم، وقائدهم اسمه والواريا من سلالة البربر، وقسم المحاربين الذين معه إلى ثلاثة أقسام: قسم منهم

جعله عند طندونياس، وقسم آخر جعله عند شمال بابليون بمصر، واستعد هو مع القسم الثالث عند مدينة أون وأمرهم هكذا وقال لهم: انظروا.. إذا جاء جيش الروم لقتالنا فقوموا أنتم من خلفهم، ونحن كذلك نكون أمامهم وندخلهم بيننا ونقتلهم .
وعندما خرج جنود الروم من الحصن، دون أن يعرفوا، ليحاربوا الإسلام، حينئذ برز هؤلاء المسلمون من خلفهم كما دبروا، وكان بينهم قتال عظيم .
وعندما تكاثر المسلمون عليهم فر جنود الروم وساروا بالسفن، واستولى محاربو الإسلام على مدينة طندونياس لأن الجنود الذين بها فنوا، ولم يبقَ منهم سوى 300 جندي، وهؤلاء فروا ودخلوا الحصن وأغلقوا الباب عليهم، وعندما رأوا هذا القتل العظيم الذي حدث خافوا وفروا بالسفن إلى نقيوس في حزن شديد وأسف. وعندما سمع «لمنديوس» بمدينة فيوم هذه، نهض ليلًا دون أن يخبر أهل بويط بأنه سيهرب من الإسلام، وسار بالسفينة إلى نقيوس. وعندما عرف المسلمون أن «لمنديوس» هرب ساروا في ابتهاج واستولوا على مدينة فيوم وبويط، وأراقوا بها دمًا غزيرًا .
الباب الثامن والأربعون
وعندما استولى المسلمون على فيوم وكل ضواحيها أرسل عمرو إلى «أباكيري» في مدينة دلاس ليأتوا بسفن الريف لتنقل الإسماعيليين الذين كانوا غربي النهر إلى الشرق، وجمع إليه كل الجنود ليشنوا كثيرًا من الحروب، وأرسل إلى «جيورجيس» الوالي ليشيد له قنطرة عند النهر بمدينة قليوب ليستولي على كل مدن مصر ومدينة أتريب كذلك وكورديس وأخذوا يعينون الإسلام، فاستولى على مدينة أتريب ومنوف وجميع ضواحيها. وكذلك شيد جسرًا على النهر عند بابليون بمصر حتى لا تمضي السفن إلى نقيوس وإسكندرية وأعلى مصر، وحتى تعبر الأفراس دون مشقة من غرب النهر إلى الشرق، وحاز كل مدينة مصر، ولم يكفِ عمرو ما صنع بل قبض على حكام الروم وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب ونهب أموالًا كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمال، وكان يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى .
وهرب من كانوا بمدينة نقيوس من السادة، وساروا إلى مدينة إسكندرية وتركوا «دمنديانوس» مع قليل من الجنود ليحموا المدينة، وأرسلوا كذلك إلى «دارس» رئيس حكام مدينة سمنود ليحمي النهرين .
وبعد هذا حدث خوف عظيم في كل مدن مصر، وكان أهل المدينة يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية، وهجروا كل أموالهم وخزائنهم وحيواناتهم .
الباب التاسع والأربعون
وعندما وصل هؤلاء المسلمون مع المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحيين وانضموا إلى عقيدة هذا المفترس، احتاز الإسلام كل أموال المسيحيين الذين فروا، وكانوا يدعون عبيد المسيح أعداء الله . وترك عمرو كثيرًا من آله في حصن بابليون بمصر وسار هو شرقًا إلى «تيودور» الحاكم الذي أرسل بقيري وسنفري ناحية كلا النهرين ليستوليا على مدينة سمنود، وليقاتلا الإسلام (المسلمين) وعندما بلغا مجمع الأقوام أبى جميع الأحزاب حرب الإسلام، فجمع هذان أناسًا وقتلوا كثيرًا من المسلمين الذين كانوا معهم، ولم يستطع المسلمون أن يلحقوا ضررًا بالمدن التي تقع على كلا النهرين لأن المياه كانت حاجزًا، ولم تستطع الأفراس أن تدخل إليها لكثرة المياه التي تحيطهم،

فتركوها وساروا إلى مدينة ريف، وجاءوا إلى مدينة بوصير، فحصنوا المدينة والطرق التي استولوا عليها من قبل .
ومن هذه الأيام قدم «تيودور» الحاكم إلى «كلادجي» ودعاه قائلًا: عد إلينا وعد إلى الروم. ووهب «كلادجي» «تيودور» كثيرًا من المال خوفًا منه حتى لا يقتل أمه وزوجته المختبئتين في إسكندرية. وطيب «تيودور» الحاكم قلب «كلادجي» فنهض هذا ليلًا والمسلمون نائمون، بينما يسير على قدميه مع آله، وجاء إلى «تيودور» الحاكم، ومن ثم ذهب إلى مدينة نقيوس وانضم إلى «دمنديانوس» لحرب الإسلام .
وبعد هذا فكر «سبنديس» فكرة حسنة فهرب من أيدي المسلمين ليلًا وسار إلى مدينة دمياط حيث يوحنا الوالي، وأرسله هذا إلى مدينة إسكندرية مع رسالة خطية معترفًا بخطئه لدى السادة مع غزير من الدموع قائلًا: هكذا هذا العمل الذي عملته بسبب الغرور والخسران الذي أصابني من يوحنا دون خجل بعد الشيخوخة، ولهذا انضممت إلى المسلمين. وقبل هذا بذلت جهدي مع الروم .
الباب الخمسون
ومكث عمرو رئيس المسلمين اثني عشر شهرًا يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم . وفي الشهر الخامس عشر القمري وعندما جاء الصيف سار إلى مدينة سكا ونوخود ومصاي مغضبًا لقتال المصريين قبل أن يفيض ماء النهر، ولم يستطع أن يلحق بهم ضررًا، وفي مدينة دمياط كذلك لم ترضَ عنه، وأراد أن يحرق زروعهم بالنار، وبدأ يسير نحو جنوده الذين كانوا في حصن بابليون بمصر، وأعطاهم كل الغنائم التي أخذها من مدينة إسكندرية، وهدم بيوت السكندريين الذين هربوا وأخذ أخشابها وحديدها وأمر أن يمهدوا طريقًا من حصن بابليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينة بالنار، وعندما سمع أهل المدينة هذا أخذوا أموالهم وفروا تاركين مدينتهم خاوية، وأحرق المسلمون هذه المدينة، فخرجوا ليلًا وأطفأوا النار .
وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها، وسلبوا أموال المصريين وألحقوا بهم ضررًا .
ولم يستطع «تيودور» الحاكم و«دمنديانوس» أن يلحقا أذى بأهل المدينة لأن الإسلام كان بينهم .
وغادر عمرو المدينة بحري مصر وسار إلى ريف ليحاربها وأرسل قليلًا من المسلمين إلى مدينة أنصنا، وعندما رأى المسلمون متاعب الروم وكراهيتهم لملك هرقل، للنفي الذي أحدثه في كل مدينة مصر للعقيدة الحقة بفضل كيرس البابا الخلقيدوني، تقووا وتشددوا في الحرب .
وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم في أن يحاربوا المسلمين، فأبى هو ونهض بسرعة مع جنوده، وجمع كل مال الضرائب من المدينة وسار إلى مدينة الإسكندرية لأنه عرف أنه لا يستطيع مقاومة المسلمين، وحتى لا يحدث له ما حدث لأهل فيوم، فإن كل أهل المدينة خضعوا للإسلام وقدموا له الضرائب، وكل من وجدوهم من جنود الروم كانوا يقتلونهم .
وكان جنود الروم في أحد الحصون فحاصرهم المسلمون، وأخذوا منجنيقاتهم ودمروا مساكنهم وأخرجوهم من بين الحصون، وحصنوا حصن بابليون واستولوا على مدينة نقيوس وحصنوا داخلها .
الباب الحادي والخمسون
وكان هرقل حزين القلب لموت يوحنا رئيس القوم، ويوحنا الحاكم اللذين قتلهما المسلمون، وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم والقوة التي لدى

الملوك، مرض هرقل بمرض الحمى ومات في العام الحادي والثلاثين من حكمه في شهر يكابيت عند المصريين، وفي شهر فبراير عند الروم، وفي الرابع عشر من دورة القمر، وفي عام 357 من تاريخ دقلديانوس .

وكان الناس يقولون إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثلاثة ملوك، إحداها صورته والاثنتان صورتا ابنيه، واحد من الجهة اليمنى والآخر من اليسرى ولم يجدوا مكانًا يكتبون فيه اسم مملكة الروم، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاث .

الباب الثاني والخمسون

وظل عمرو رئيس جند المسلمين خارج حصن بابليون، وحاصر الجنود الذين كانوا به وتسلموا رسالة من لدنه، ألا يقتلوهم وأن يتركوا لهم كل عدة الحرب وهي كثيرة. ثم أمرهم أن يخرجوا من الحصن فأخذ هؤلاء قليلًا من الذهب وساروا. وبهذا المنوال تسلم حصن بابليون بمصر في اليوم الثاني من عيد القيامة وجزاهم الرب، لأنهم لم يكرموا آلام الخلاص لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وهب الحياة لمن يؤمنون به، ولهذا جمعهم الرب بعدهم. وفي يوم عيد القيامة المقدسة هذا أطلقوا المسجونين الأرثوذكسيين ولم يتركهم أعداء المسيح هؤلاء دون أذى، بل أساءوا إليهم وقطعوا أيديهم وكان هؤلاء يبكون ودمعهم يسيل على وجناتهم، واحتقروهم في هذا اليوم كما هو مكتوب في شأن هؤلاء النجسين .

الباب الثالث والخمسون

وعندما استولى المسلمون على حصن بابليون وعلى نقيوس كذلك. كان لدى الروم حزن عظيم. وعندما أنهى عمرو أمر الحرب دخل حصن بابليون، جمع كثيرًا من السفن العظيمة والصغيرة وربطها عند الحصن الذي صار به .

وأما «ميناس» الذي كان رئيس العمال، و«قسما بن صمويل» مبعوث «الألوانطس» فقد حاصرا مدينة مصر وضايقا الرومان أيام المسلمين، وصعد المحاربون بالسفن ناحية غرب النهر في عظمة وفخامة، وكانوا يتحركون ليلًا. وكان عمرو ومحاربو المسلمين ممتطين أفراسًا، يسيرون برًّا حتى وصلوا إلى مدينة كبرياس في أباديا، ولهذا السبب حارب «دمنديوس» الحاكم. وعندما عرف أن محاربي المسلمين اقتربوا منه صعد إلى سفينة، وهرب بالسفينة وترك الجنود مع سفنهم، وكان يريد أن يعبر إلى نهر صغير حفره هرقل في أيامه. وعندما وجده مغلقًا ذهب ودخل مدينة إسكندرية. ولما رأى الجنود أن حاكمهم فر، تركوا عدة حربهم ونزلوا في البحر أمام أعدائهم، فقتلهم جنود المسلمين بالسيف في البحر، ولم ينج منهم سوى رجل واحد فقط اسمه زكريا، وهو قوي محارب، وعندما رأى ملاحو السفن فرار الجنود هربوا هم ودخلوا مدينتهم .

ثم دخل المسلمون نقيوس واحتلوها، ولم يجدوا أحدًا من المحاربين. وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس، رجالًا ونساء وأطفالًا ولم يشفقوا على أحد .

وبعد الاستيلاء على المدينة ساروا إلى أماكن أخرى ونهبوها وقتلوا كل من وجدوا، ووصلوا إلى مدينة قصا فوجدوا «اسقوطاوس» ومن معه موجودين في ساحة الخمر، فقبض عليهم المسلمون وقتلوهم، وكانوا من أقارب «تيودور»، ولنصمت الآن فإنه لا يستطاع الحديث عن الإساءات التي عملها المسلمون حين استولوا على جزيرة نقيوس في يوم الأحد الثامن عشر من شهر جنبوت في الخامس عشر من الدورة .

وبتعب كثير ومشقة أسقطوا سور المدينة واستولوا عليها في الحال، وقتلوا آلافًا من أهل المدينة والجنود، ونهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال، وتقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه فقيرة .
وبعد قليل سار المسلمون إلى مدينة قبروس وقتلوا «إسطفانوس» ومن معه .

الباب الرابع والخمسون

وكانت مصر كذلك مستعبدة للشيطان. وكان بين أهل الوجه البحري خصومة شديدة وانقسموا قسمين: قسمًا انضم إلى «تيودور» وقسمًا آخر أراد أن ينضم إلى المسلمين، وفي الحال نهض قسم على آخر، ونهبوا أموالهم وأحرقوا بلادهم بالنار، وكان المسلمون يخشونهم فأرسل عمرو مسلمين كثيرين إلى إسكندرية، واستولى على كريون وهي خارج المدينة، وهرب «تيودور» مع جنوده، وكان في هذا المكان، وجاء إلى مدينة إسكندرية، وأخذ المسلمون يحاربونهم، ولم يستطيعوا الاقتراب من حصن المدينة بينما كانوا يقذفونهم بالأحجار من أعلى الحصن، وأبعدوهم حتى خارج المدينة .
وكان أهل مصر يحاربون أهل الوجه البحري ويختلفون معهم كثيرًا وكان قليل عقدوا سلامًا.
وعندما انتهى بغضهم أنشأ الشيطان بغضًا آخر بمدينة إسكندرية فإن «دومنديانوس» الحاكم و«ميناس» القائد تباغضا فيما بينهما من أجل الرياسة وأسباب أخرى .
وكان «تيودور» القائد يلتقي بـ«ميناس» ويكره «دومنديانوس» لفراره من نقيوس وتخليه عن الجنود .

الباب الخامس والخمسون

ثم نهض كيرس البابا وسار إلى بابليون حيث المسلمون، راغبًا أن يعمل سلامًا وأن يؤدي لهم الضرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقال له: حسنًا فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له : منحكم الرب هذا البلد، من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومة، وحددوا عبء الضرائب التي تؤدى، ولم يقل هؤلاء الإسماعيليون شيئًا ما. ومكثوا منفردين أحد عشر شهرًا . ورحل الروم الذين كانوا بإسكندرية. أخذوا أموالهم وخزائنهم وساروا بحرًا، ولم يعد أحد ثانية من جنود الروم. ومن كانوا يريدون المسير برًّا كانوا يؤدون الضرائب كل شهر. وأسر المسلمون لديهم 150 من الجنود و50 من أهل المدينة رهينة وعقدوا سلامًا وكف الروم عن حرب المسلمين، والمسلمون عن الاستيلاء على الكنائس ولم يقربوا شيئًا ما من عمل المسيحيين وتركوا العبرانيين يقيمون بمدينة إسكندرية .
ولما انتهى البابا سار إلى بلدة إسكندرية، وقال لـ«تيودور» ولـ«قسطنطين» القائد أن يقولوا هذا للملك هرقل، ويؤيدوه عنده. ثم اجتمع لديه كل الجنود والسكندريين و«تيودور» القائد، وسجدوا لكيرس البابا، وقال لهم كلهم إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل. وحين صار الأمر هكذا جاء المسلمون لأخذ الضرائب وأهل إسكندرية لا يعلمون. وعندما رآهم السكندريون استعدوا للحرب غير أن الجنود والقادة جلسوا للتشاور، وقالوا نحن لا نستطيع حرب المسلمين، بل يكون كما قال كيرس البابا، وأراد شعب المدينة أن يثوروا على البابا وأرادوا أن يقذفوه بالأحجار، وهو يقول لهم: إنما صنعت هذا لإنقاذكم مع أبنائكم. واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن، فاستحى منه السكندريون وأعطوه ذهبًا كثيرًا ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب التي حددوها عليهم.

وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين. وسألوا البابا وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلدنا ونخضع لهم .
فعمل لهم كما قالوا، واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالًا وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال .
وكان رجل اسمه «ميناس» قد عين من قبل هرقل الملك على الوجه البحري، كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب، يكره المصريين جدًّا. وبعد أن أخذ المسلمون كل البلد أبقوه في وظيفته، وعينوا رجلًا اسمه «سينودا» في بلاد الريف، وآخر اسمه «فيليكانوس» عينوه في مدينة أرجاديا التي هي فيوم، وهؤلاء ثلاثتهم يحبون الوثنيين ويكرهون المسيحيين ويضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله كان مضافًا إلى الطعام، هؤلاء كانوا يفعلون هذا خوفًا دون توقف .
ونهر أندريانوس الذي انطمر منذ زمن طويل جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابليون بمصر حتى البحر الأحمر. وحمَّلوا المصريين نيرًا أثقل من نير فرعون الذي فرضه على إسرائيل الذي حكم عليه الرب حكم الحق وأغرقه في البحر الأحمر هو مع كل جيشه بعد كثير من العقوبات التي عاقبهم بها من الإنسان حتى الحيوان .
ولما كان حكم الله على هؤلاء الإسماعيليين فقد يصنع بهم كما صنع بفرعون أولًا بل بسبب خطيئتنا صيرهم ليصنعوا بنا مثل هذا، وبالروح الطويلة لإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح يرانا ويحفظنا، ونؤمن أيضًا بأنه يهلك أعداء الصليب، كما يقول الكتاب .
وألحق عمرو الخسران ببلاد مصر، وأرسل أهلها ليحاربوا أهل المدن الخمس، وبعد الانتصار عليهم لم يتركهم يقيمون هناك، وأخذ هو منها كثيرًا من الغنائم والأسرى وسار «أبو ليانوس» والي المدن الخمس والجنود الذين معه وأغنياء المدينة إلى مدينة دوشرا لأن جدارها منيع، وأغلقوا الأبواب عليهم، وسار المسلمون آخذين الغنيمة والأسرى إلى بلدهم .
وكان البابا كيرس أسيف القلب كثيرًا للبؤس الذي كان ببلد مصر، ولم يشفق عمرو على المصريين، ولم يعمل بما تعاهدوا معه لأنه كان من نسل البربر .
ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات في اليوم الخامس للفرح، في الخامس والعشرين من شهر مجابيت، ولم يشهد عيد القيامة المقدسة لسيدنا يسوع المسيح .

....

وبعد هذا قام «تيودور» الحاكم و«قسطنطين» رئيس الجيوش والجنود الباقون وكذلك الجنود الذين كانوا رهينة في يد المسلمين، وصعدوا في سفينة جاءت إلى مدينة إسكندرية. وبعد عيد الصليب عينوا الدياقون بطرس بطريركًا في العشرين من حملي من عيد القديس تيودور الشهيد وأجلسوه على كرسي البطريركية وفي العشرين من شهر ماسكرم قام «تيودور» مع كل الجنود والرؤساء وسار إلى جزيرة قبرس وترك مدينة إسكندرية، ومن ثم دخل عمرو رئيس المسلمين دون تعب مدينة إسكندرية واستقبله أهل المدينة بتعظيم لأنهم صاروا في فقر وبلاء شديد .
الباب السادس والخمسون
ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة إسكندرية بعد هربه من الروم في العام 13 وسار إلى كنائسه وزارها كلها. وكان كل الناس يقولون هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم

هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا كيرس وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر .

وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددوها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام. ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابسًا كما تعلم من «تيودور» العاصي، وزاد الضرائب قدر اثنين وعشرين عصا من الذهب، حتى اختبأ كل الناس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدون .

وفي العام الثاني من دورة القمر جاء «يوحنا الدمياطي» الذي عين من لدن «تيودور» الحاكم وعاون المسلمين حتى لا يدمر المدينة، ونصب في مدينة إسكندرية وقت دخول عمرو إليها.

وأشفق يوحنا هذا على الفقراء وأعطاهم مالًا كثيرًا من ماله. وحين رأى بؤسهم أشفق عليهم، وكان يبكي ألمًا لما أصابهم، وأقصى عمرو «ميناس» وعين يوحنا بدله، و«ميناس» هذا زاد على المدينة الضرائب التي حددها عمرو 22000 (اثنين وعشرين ألف) دينار ذهب وما فرضه العاصي كان 32750 (اثنين وثلاثين ألفًا وسبعمائة وخمسين) دينار ذهب وجعلها للإسماعيليين، ولم يستطع أحد التحدث عن البكاء والنواح الذي كان في هذه المدينة حتى قدموا أبناءهم بدلًا من الآلاف التي كانوا يقدمونها كل شهر، وانعدم من يساعدونهم وقطع الرب رجاءهم (ورد المسيحيين إلى يد أعدائهم) لكن رحمة الرب القادرة تلحق الخسران بالذين يحزنوننا .

رحلة الانصهار

تقديم

بعد الرحيل

«حكايات الدخول»، كانت الجزء الأول من «هوامش الفتح العربي لمصر»، والآن، فإن «رحلة الانصهار» هي الجزء الثاني من هوامش الفتح. والمادة التي جمعت، والمراجع التي رجعت إليها المؤلفة، تدل على أنه كان مشروعًا طموحًا، ولكن كان للقدر كلمة أخرى، هو الآن مشروع لم يكتمل، ولكنه برغم ذلك ـ وبحالته هذه التي ينشر بها في هذا الكتاب ـ بحث مهم جدًّا لمؤلفة تعتقد أن الحقيقة وحدها ثورية بطبيعتها وأنها الأولى بالاتباع لكل باحث نزيه .

وقصة «رحلة الانصهار» تبدأ بحافظة جلدية لونها نبيتي، كانت سناء تصطحبها معها في جولاتها في مكتبات مدينة القاهرة، وتجمع فيها «كروت» بحثها. في هذه الحقيبة وجدنا مادة غزيرة مسجلة على «كروت» البحث، أول ما فعلناه، هو أننا سجلنا المراجع المهمة والعديدة التي رجعت إليها الباحثة، ثم بدأنا في قراءة «كروت» البحث، وكان من عادة سناء أن تكتب المسودة الأولى في أثناء جمع المادة، لذلك وجدنا كراسًا من كراريس تلامذة المدارس منقطًا بزهور صغيرة بنية اللون، وفي الوسط رسم لقلب باللون الأحمر مكتوب عليه بالفرنسية «قلب البروفانس » (Cœur de Provence) ، في هذا الكراس كتبت سناء سبعين صفحة تمثل بعض فصول كتابها، ورقمتها من أول صفحة مباشرة من 1 إلى 69، وعلى باطن غلاف الكراس كتبت مقدمة قصيرة ولكنها شافية. واضح أن كل هذا كان مسودة أولى لبعض الفصول. وعلى أحد «كروت» البحث، تصحح سناء خطأ تاريخيًّا وقعت فيه الكاتبة سلوى بكر في رواية «البشموري»، وعلى أربع صفحات «فولسكاب» وضعتها سناء وسط الكراس، كان هناك بحث عن المكان الأصلي للبشموريين. ناقشت فيه ما اختلف عليه الباحثون الجدد والمؤرخون القدامى حول الموقع الجغرافي للبشامرة، ووصلت لنتيجة تحدد فيها موقعهم بدقة .

في هذا الكتاب، ننشر المخطوطة الأصلية، كما هي دون أي تدخل من جانبنا، ونلحقها بملحق فيه تصحيحها لسلوى بكر، وملحق فيه بحثها عن موقع البشموريين، كما ننشر الجداول التي جمعتها والتي وضعتها، وفي آخر الكتاب ننشر أسماء المراجع التي رجعت إليها، أي أننا لم نفعل سوى نشر ما كتبته سناء، حتى الملاحظات في الهوامش هي لها، فيما عدا عدد قليل من الملاحظات، رأينا أن نضيفها من جانبنا، ووقعنا بجانبها بالحرفين (و، أ).

وبرغم أن هذا المشروع لم يكتمل، فنحن نعتقد أنه عمل رائع، ينبض بنبض كاتبة جسور، لم تهتم أبدًا بشيء في هذه الحياة سوى بالحقيقة، وكانت منسجمة مع نفسها حتى النهاية، وكل من يقرأ كتابتها، يلمس هذه الروح السارية في سطورها، حيث يصبح التاريخ، ليس مادة ميتة مملة، بل حياة تتخلق أمام أعيننا، تنبض وتشع حماسة، وتتألق وعيًا .

وفي النهاية، البحث أمام القارئ ليحكم عليه، ولا ننسى هنا أن نوجه شكرنا وامتناننا إلى الآنسة مها العوضي، التي بإخلاصها المعهود وجديتها، بذلت معنا مجهودًا كبيرًا في نسخ المخطوطة الأصلية بخط واضح حتى يمكن طباعتها، وكذلك أسهمت في تكملة البيانات الناقصة لبعض المراجع .

وفاء المصري

إبراهيم الباز

مقدمة

مرة أخرى، ليس هدفي من مواصلة البحث في تاريخ فتح مصر وما تلاه من الحكم العربي لمصر إبراز مساوئ الفتح والحكم كما قد يتصور البعض، ولا الانتصار للشعب القبطي كما يتصور البعض الآخر. ولكنني قصدت البحث عن إجابة لسؤال شغلني كثيرًا، كيف حدث الانصهار بين العرب الوافدين من الشرق، والمصريين المقيمين في الأرض؟ فتغيرت اللغة والدين والمعتقدات وأصبحا شعبًا واحدًا ممتزجًا لا تستطيع أن تميز أحد عنصريه عن الآخر إذا ما سنحت لك الفرصة ورأيته مجتمعًا في مكان عام .

وبالتأكيد فإن رحلة الانصهار لم تكن سهلة يسيرة، وإنما مرت بأطوار العنف حينًا، والمهادنة حينًا آخر، القمع والسياسة، الضغط والبحث عن طريق للتفاهم، الصراع والملاينة، الرفض والقبول، ثنائيات كثيرة وطويلة استغرق الصراع بينها عدة قرون لا يجب الاستهانة بها في تاريخ أمة، ولذلك فإن الكتابة عن أحدها دون الآخر هو الظلم بعينه، الكتابة عن غنائيات التسامح الإسلامي القادم على صهوات الجياد دون النظر إلى حالة الشعب المقيم، خلل في التفكير يؤدي غالبًا إلى نتائج ظالمة، والتأثر فقط ببكائيات الشعب المهزوم خلل آخر يعوق فهم الحالة ويتركنا أسرى حالة عاطفية مشوهة ومنقوصة .

مائة سنة مقاومة

ربما أكثر من مائة عام، دخل قبط مصر خلالها في ثورات متتالية ضد حكامهم من العرب، ولأنها كانت ثورات كبيرة لم يستطع المؤرخون العرب إغفالها، وإن حاولوا التقليل من شأنها بذكرها عرضًا في جملة أو جملتين تبدأ عادة بكلمة «انتقض القبط»، التي هي من نقض العهد، وكأنه كان هناك إجماع على عهد ما متفق عليه بين القبط المحكومين من جهة والعرب الحاكمين من جهة أخرى. ويمكننا تتبع هذه الثورات من خلال كتابات ثلاثة مؤرخين كبار، اثنان منهما عربيان والثالث قبطي وهم على التوالي: الكندي وابن المقفع والمقريزي، فالكندي هو أول المؤرخين العرب الذين وصلت إلينا كتاباتهم عن هذه الثورات، بعد أن تجاهلها ابن عبد الحكم في كتابه «فتوح مصر وأخبارها» كما تجاهلها غيره .

وقد ولد أبو عمر محمد بن يوسف الكندي عام 283هـ في الفسطاط لأسرة عربية تنتمي إلى عشيرة تجيب من قبيلة كندة، وأسرته لم تقطن الريف كما فعل كثير من الأسر في القرن الثالث الهجري، بل ظلت تتخذ من الفسطاط مقامًا لها، فنشأ الكندي في كنف الأرستقراطية العربية وتلقى علوم القرآن والحديث والفقه والسير وغيرها من علوم العرب كشأن جميع أترابه في ذلك الحين، وقد تتلمذ على يد ابن قديد المؤرخ الذي كان قد تولى الرواية مباشرة عن ابن عبد الحكم (273) وتوفي عام 312هـ .

ومصادر الكندي جميعًا في كتابه «الولاة والقضاة» من العرب مثل الليث وابن لهيعة ويحيى بن عثمان وابن عفير وغيرهم، وقد بدأ الكندي الإشارة إلى ثورات القبط منذ عام 107هـ، في معرض حديثه عن ولاية الحر بن يوسف وما وقع فيها من أحداث. أما ساويروس بن المقفع صاحب كتاب «تاريخ البطاركة » فهو كما رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب صوت رسمي للكنيسة المصرية، وحياته بدأت بين سنتي 905-910م وتربى تربية دينية، ثم التحق بوظيفة كاتب في بلاط الدولة الإخشيدية حتى أصبح كاتبًا ماهرًا في ديوان الخليفة، ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بن المقفع وظيفته وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهب في أحد الأديرة، ثم أصبح أسقفًا على مدينة الأشمونين وغيَّر اسمه فعرف بأنبا ساويروس، وله كتب كثيرة، وقد جمع ساويروس سير بطاركة الكنيسة من الأديرة المختلفة وعمل على ترجمتها وصياغتها من جديد لأنه كما يقول : «إنه لواجب علينا الاستقصاء والبحث عن جميع سير البيعة كما كان آباؤنا المتقدمون يفعلون »(274).

وقد نقل ساويروس عن مقار الراهب، ونقل عن يوحنا ابن أبي مويسيس أسقف وسيم، ويوحنا بن الرعد وغيرهم. وسنرى عند مقارنة تواريخ الكندي بتواريخ ساويروس بن المقفع اتفاقهما العجيب فيما يخص أحداث الثورات القبطية، على الرغم من اختلاف مصادر كل منهما عن الآخر، وعلى الرغم من أن أحدهما عربي المنشأ والأصول والتربية والانحياز وقد كان يعيش في القرن الثالث الهجري *التاسع الميلادي وتوفي 350هـ-961م، والآخر قبطي المنشأ والأصول والتربية والتفكير والانحياز وقد عاش في القرن العاشر الميلادي* الرابع الهجري .

أما ثالث المؤرخين الذين سنعتمد عليهم فهو تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المولود بالقرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري في حارة برجوان في القاهرة، والمتوفى بها سنة 1442م-845هـ وهو في سن الثمانين .

وعلى الرغم من أن أسرة المقريزي وفدت حديثًا في حياة أبيه من موطنها في بعلبك إلى القاهرة، إلا أنه أكثر المؤرخين انتماءً إلى مصر؛ حيث تلقى علومه بالقاهرة وتتلمذ فيها عدة سنوات على يد ابن خلدون، ثم التحق بديوان الإنشاء بالقلعة كاتبًا، وعمل بالقضاء، ثم إمامًا لجامع الحاكم الفاطمي ومدرسًا للحديث، ثم محتسبًا للقاهرة والوجه البحري «واستقى المقريزي مادته تباعًا من سلسلة متصلة المصادر تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى سنة 257هـ، وتنتهي بابن المتوج المتوفى سنة 730هـ، مسندًا كل اقتباس إلى مؤلفه: الكندي، القضاعي، ابن بركات النحوي، الجاوني، ابن عبد الظاهر، ابن زولاق، المسبحي، ابن المأمون »(275).

وقد أفرد المقريزي في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» فصلًا بعنوان «ذكر انتقاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك» ينقل فيه عن الكندي في كتابه «ولاة مصر ».

وقد نقل عن المقريزي من أتى بعده من المؤرخين مثل ابن تغري بردي الأتابكي وابن إياس والسيوطي وغيرهم، حتى إنه يعتبر عمدة المؤرخين العرب المهتمين بشؤون قبط مصر متمثلًا فيما كتبه عن ثوراتهم وطرق حياتهم وكنائسهم وأديرتهم وكل ما يخصهم. ويبدو أن المقريزي لم يكتفِ بالاطلاع على كتابات من سبقوه من المؤرخين العرب، بل تيسر له الاطلاع على كتاب ساويروس بن المقفع وربما كتابات قبطية أخرى، ونقطة البدء لدى المؤرخين العربيين الكندي والمقريزي هي عام 107هـ زمن الانفجار الأول للثورة القبطية الكبرى. أما ساويروس فينفرد بذكر أسبابها ومقدماتها المتمثلة في ظلم وقسوة الولاة ومسؤولي الخراج وشدتهم في جمع المال بما لم يُسمع بمثله من قبل ـ وتقتضي الحال هنا أن نعود إلى النظر في أحداث الدولة الأموية وما وقع فيها على أقباط مصر ـ ومن خلال تتبعه لسيرة البابا ألكسندروس الثاني، البابا رقم 43، والذي انتخب بعد أن ظل كرسي البابوية خاليًا بلا بطريرك يرعى شؤون الشعب القبطي والكنيسة الأرثوذكسية حوالي ثلاثة أعوام، وحينما أتيحت الفرصة اختار الكهنة والقسس ألكسندروس، وكان راهبًا في دير الزجاج : «وقد صودر مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة، فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافًا للعهد؛ قال أصحاب التواريخ: واشتد عبد الله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرة بن شريك أيضًا في ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بحورًا وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا وإحنًا، ورزايا ومحنًا »(276).

ويفصل ساويروس تلك المحن بقوله إن قرة بن شريك والي مصر «أحضر البطرك وهم بقتله بسبب يمينه أن ليس معه ذهب، ولما أخذ منهم الأربع كيزان هرب جميع أصحاب البطرك، مثل الحواريين ذلك الزمان، فلما أحضروا البطرك إليه صر بأسنانه عليه، وأراد قتله فمنعه الرب عنه، فكبله بالحديد وطرحه في السجن، فأقام سبعة أيام، ثم بعد هذا ألزمه أن يقوم بالثلاثة آلاف دينار، ولحقه تعب عظيم وضيق إلى أن تخلصت له ألف دينار »(277).

ولم تنتهِ محنة البطريرك بدفعه الألف دينار، حيث وشى به بعض الناس وقالوا إن: «عنده قومًا يضربون الدنانير وإن عنده سكة»، فاستشاط قرة غضبًا وأمر جنده بالقبض على البطريرك «فيما هو جالس في تاسع ساعة من النهار في بعض الأيام يفطر ليس عنده علم إلا وقد أحاطوا بالأسقفية وأن أهل مدينة الإسكندرية والكاتب بأمر قرة قد قبضوا عليه وعلى أصحابه وطرحوه على الأرض وضربوا أصحابه وعوقبوا حتى سالت دماؤهم إلى الأرض، وكادوا يموتون من العقوبة، ووجدوا ما سعوا به عليه باطلًا »(278).

ثم جاء عيد الفصح وطلب الكهنة والشعب القبطي من البابا «أن يقوم لهم برسوم وديارات في ثالث عيد الفصح، ولم يكن له شيء يدفعه لهم، وكان يقول لهم يا إخوة قد نظرتم نهب جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يدفع فيهن الدم الزكي جعلنا عوضًا من الذهب والفضة كاسات زجاج والدسقاب خشبًا من أجل نهب قرة لهم ».
وظلت محنة البطريرك قائمة حتى تقدم إنسان أرخن، والأرخن هو كبير القوم وسيدهم ويُقصد به الغني ذو الشأن والنفوذ بين القبط، وغالبًا ما كان أغنياء القبط يحتلون وظائف مهمة في ديوان الكتابة والخراج ويعملون لدى الولاة المسلمين لمعرفتهم بشؤون البلاد وأسرارها، فكانوا بذلك مفتاح سيطرة الحكام العرب على الشعب القبطي في القرى القريبة والبعيدة. كما كانوا في نفس الوقت واسطة العلاقة بين الحكام ورجال الكنيسة. ولذلك فقد تقدم هذا الأرخن «السيد» واسمه يؤنس وقد «رزقه الله قبولًا عند الولاة» ويجب ألا ننسى أنهم نفس الولاة الذين يشتدون على الشعب القبطي وعلى رجال كنيسته ويسومونهم سوء العذاب، ويؤنس الذي ارتقى بماله وارتفع فوق عذابات شعبه، وكان له ذلك القبول والنفوذ عند الوالي «مضى إلى قرة وقال له يجب أن تعلم أن الرهبان والأساقفة الذين في سائر الأماكن قد ثقل عليهم الخراج وها هنا أمر سهل، منهم من هو مكثر ومنهم من لا يقدر على قوته ونحن نعرف حال سائر النصارى فإن رأيت أن توليني أمرهم استخرجت الخراجات، فولاه على الأساقفة والرهبان »(279).
ومضى هذا السيد القبطي يجمع الأموال من الأديرة المختلفة مستندًا إلى قوة الحكم وجبروته، ويبدو أنه كانت تنتشر بين رهبان ذلك الحين آراء مذهبية مختلفة منها مقالات الغايانيين والشمطيركيين فقضى عليها يؤنس مستندًا إلى قوة الوالي ويده الباطشة .
وبرغم ما جمعه هذا الأرخن «السيد» للوالي من الأديرة والرهبان فإن نهم قرة إلى المال لم يشبع، ودارت دائرته على أصدقائه المتعاونين معه من الأراخنة «وكان كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله، وكان قد مات صاحب ديوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتبًا من تنيس وجماعة لا يحصون من مصر وأخذ مالهم، حتى الأساقفة أخذ ميراث الجميع وزاد على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف، وكان الناس يهربون ونساؤهم وأولادهم من مكان إلى مكان ولا يؤويهم موضع من أجل البلايا ومطالبات الخراج، وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه ثم إنه ولى إنسانًا اسمه عبد العزيز من مدينة سخا، وكان يجمع الذين يهربون من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كلًّا منهم إلى موضعه وكان على الناس بلايا عظيمة »(280).
ولم يلبث قرة بن شريك أن ذاق بعض ما سببه لأهل مصر ومات في الوباء الذي حل بالبلاد وأباد أعدادًا ضخمة من البشر، ويقول ساويروس بن المقفع إنه «من بعد موت قرة أنفذ الوليد عوضه إلى مصر واليًا اسمه أسامة، فلما وصل الفسطاط التمس علام جميع الكور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم، فلما بدأ بذلك حدث غلاء عظيم لم يُسمع بمثله من الجيل الأول، ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء، وأشرف جميع الأغنياء والفقراء على الموت ».
وهنا نجد اختلافًا بين ساويروس والكندي الذي يكتب أنه بعد وفاة قرة بن شريك عين الخليفة على ولاية مصر ـ جندها وخراجها ـ عبد الملك بن رفاعة بن خالد الفهمي ويبدو أن سبب الخلاف يعود إلى اهتمام ساويروس بتتبع سلسلة المشتدين على القبط في جمع الخراج، والكندي يهتم في الكتاب بتتبع سلسلة الأشخاص الذين تولوا منصب الولاية، وبذلك يكون التالي بعد قرة هو عبد الملك بن

رفاعة، والوالي يعين بعد ذلك شخصًا ينفذ سياسته في جمع الخراج. وبذلك يكون هو المسؤول أمام الخليفة في العاصمة عن السياسة المالية للبلاد وآخر مسؤول أمامه عن التنفيذ بالداخل .
ويقدم لنا المقريزي في كتابه «المقفى الكبير» معلومات أكثر عن أسامة بن زيد التنوخي الذي يذكره ساويروس ويتجاهله الكندي فيقول: «كان على ديوان الجند بدمشق في زمان الوليد بن عبد الملك . ثم ولي خراج مصر في زمن الوليد، فقدمها يوم السبت لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين . ثم نُزع في شهر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين، وأمر على الخراج عوضه حيان بن شريح من قبل عمر بن عبد العزيز»، فظل مسؤولًا عن خراج مصر حوالي ثلاثة أعوام وعُزل في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز، «ثم أعيد أسامة إلى ولاية الخراج في سنة اثنتين ومائة، وصرف حيان، فأقام على الخراج إلى سنة أربع ومائة »(281).
وعاصر أسامة بن زيد أواخر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك بالإضافة إلى زمن سليمان بن عبد الملك الذي أوصاه بقوله: «احلب حتى ينقيك الدم. فإذا أنقاك الدم حتى ينقيك القيح. لا تبقها لأحد بعدي »(282).
وقد عمل أسامة بوصية الخليفة وبدأ عملًا ما عمله فرعون، واشتد «على نصارى مصر، وأمر بقتلهم وأخذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحديدة عليها اسمه ـ الراهب ـ واسم ديره وتاريخه، فكان من وجد منهم بغير وسم قطع يده، ثم كبس عليهم الديارات، فوجد جماعة منهم بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم، وضرب بعضهم حتى مات تحت الضرب. وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى ولم يكن بيده منشور يؤخذ منه عشرة دنانير »(283).
ويقدم ساويروس بن المقفع تفصيلًا أكبر للعذاب الذي نزل على قبط مصر على يدي أسامة بن زيد بقوله: «وكان في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان، وضيق على المؤمنين، وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلى الأمير، فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج، ولم يكن يُحصى عدد من شوه به على هذه القضية، وحلق لحى كثير بالسياط، وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضروا إليه مالهم، ويكاتبهم ويقول سلَّمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس، فاحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحدًا، وأي موضع نزلتموه فانهبوه، وكانوا يخربون المواضع ويقلعون العمد والأخشاب ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار حتى صارت الفضة خمسة وثلاثين درهمًا بدينار، وكان من معه شيء يخاف عليه أن يظهره لئلا يعاقب، ومن الضيق والضنك هم الناس ببيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد فيما هو فيه »(284).
ولم تنتهِ تلك الشدة العظمى إلا بموت الخليفة سليمان بن عبد الملك وتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز فأمر بأن توضع «طوبة حديد في رجلي أسامة البائس وخشبة في يديه وجعله في الحبس »(285).
وحل الاطمئنان مدة قصيرة «وكانوا النصارى في أمن وهدوء والبيع، ثم من بعد ذلك بدأ يفعل السوء وكتب كتابًا إلى مصر مملوءًا غمًّا» فماذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى واليه أيوب بن شرحبيل حتى يسبب هذا الغم لقبط مصر؟ لقد أمره بأن ترفع الجزية عمن يدخل في دين الإسلام على أن يحمَّل مقدار الجزية الذي كان يدفع من قبل، ويلزم به من بقي على دين المسيحية، ويقال إنه أمر بأن تحمل جزية موتى القبط على أحيائهم وأعلن أن «من أراد أن يقيم في حاله وبلاده فليكن على دين محمد مثلي ومن لا يريد فليخرج من أعمالي »(286).

ويقول الكندي بأنه قد «نزعت موازيت القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم، ومنع النساء الحمامات »(287).
وأمام تلك الضغوط المادية المتمثلة في زيادة الضرائب، والضغوط المعنوية المتمثلة في فكرة إخراج غير المتحولين إلى الإسلام من بلادهم، أشهر بعض الناس إسلامهم حفاظًا على أموالهم وممتلكاتهم وأراضي أجدادهم التي يقطنونها من قدم الأزل .
لكن القدر لم يمهل عمر بن عبد العزيز لينفذ تلك الأحكام ومات بعد فترة قصيرة. ويقال إن الأمويين قد سموه ـ لأسباب أخرى لا تمت إلى سياسته مع القبط بصلة، ولكن لتضييقه على أفراد البيت الأموي وشدته عليهم ـ وتولى من بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك، فإذا به يعود إلى سياسة الاضطهاد المكشوف للقبط ويلغي القوانين العمرية، ويفرض على الكنائس والأديرة والأوقاف «الأواس» والرهبان الجزية والخراج مرة أخرى، ثم أمر بكسر الصلبان في كل مكان وكشط الصور التي في البيع، لما تمثله تلك الصور والتماثيل من علاقة بالأفكار الوثنية .
ويذكر الكندي واقعة محو الصور بقوله :
وكتب يزيد بن عبد الملك في سنة أربع ومائة يأمر بكسر الأصنام فكسرت كلها، ومحيت التماثيل، وكسر منها صنم حمام زبان بن عبد العزيز الذي يقال له حمام أبي مرة، وله يقول كريب بن مخلد الجيشاني :

من كان في نفسه للبيض منزلة فليأت أبيض في حمام زبان
عبل لطيف هضيم الكشح معتدل على ترائبه في الصدر ثديان

وانقضت أيام حنظلة التي كانت مُرَّة على قبط مصر كاسم واليها بانقضاء حياة الخليفة يزيد بن عبد الملك، واستبشر القبط خيرًا بصعود هشام بن عبد الملك إلى سدة الخلافة لأنه كتب «يأمر بأن تدفع لكل من يزن الخراج براءة باسمه حتى لا يظلم أحد ولا يكون في مملكته ظلم فأعطاه الله مملكة جديدة، فأقام اثنتين وعشرين سنة ملكًا ولم تقم عليه حرب »(288).
ويذكر ساويروس أن هشام بن عبد الملك وثق علاقته بالبطريركيين المسيحيين، (القبطي والملكاني)، وقربهما إليه، خصوصًا بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية بدمشق لأن مقرها كان قريبًا من قصر الخليفة وهو يسعد بسماع ترانيمها ليلًا .
وبرغم تلك الصداقة الفوقية عين الخليفة مسؤولًا عن الخراج في مصر يدعى عبيد الله بن الحبحاب، في ظل ولاية الحر بن يوسف، «فلما وصل إلى مصر أمر بأن تحصى الناس والبهائم وأن تقاس الأراضي والكروم بحبال القياس ففعل ذلك، وأن يجعل طابع رصاص في حلق كل الناس من ابن عشرين سنة إلى من عمره مائة سنة، وأحصاهم وكتبهم جميعهم ودوابهم من الصغير إلى الكبير، والأراضي الوكس التي هي صعبة التي تنبت حلفًا وشوكًا، وبنى أميالًا في وسط الغيطان على الحدود والطرقات في جميع أرض مصر وأضعف الخراج »(289). وكان «لا يبيع أحد ولا يشتري إلا من كان على يده علامة الأسد »(290).
ولكن لماذا اختار العرب تلك العلامة بالذات ليسموا بها القبط؟ الأسد هو الملك الذي لا يفوقه آخر في القوة والشجاعة، إنه رمز الحاكم المسلم الذي يرى في نفسه تلك الصفات ويدمغ محكوميه بصورته المنتقاة إشارة إلى وقوعهم تحت أسره الدائم وسطوته المطلقة .

ومع ذكر أعمال عبيد الله بن الحبحاب يصل ساويروس إلى ذكر ثورة عام 107هـ، التي يتفق المؤرخون العرب على أنها أولى ثورات القبط .

ولم تكن كل تلك المظالم السابقة التي تعرض لها القبط على أيدي الولاة وجباة الخراج إلا مقدمات للانفجار الكبير الذي حدث عام 107هـ، بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى جميع أنحاء مصر «بأن تحشد له جماعة من الناس يشغلهم فيما يريد»، وكأن كل إجراءات جمع الخراج والجزية ليست بكافية حتى يضيف إليها مظالم السخرة والعمل الإجباري في عملية إعادة بناء مدينة الفسطاط، «حتى إن الناس هلكوا من التعب من كثرة ما أشغلهم، فلما عظم التعب والقيام بالخراج الذي أضعفه عليهم ثارت حرب على النصارى والمسلمين حتى سفكت دماء كثيرة بأرض مصر، أولها في مدينة بنا ومدينة صا ومدينة سمنود وما يجاورهن ومواضع كثيرة في أسفل الأرض وكذلك كان في الطرق والجبال والبحار »(291) ، وكان اضطراب في كل كورة مصر كما يقول ساويروس .

أما الكندي فيذكر أحداث هذه الثورة بقوله: «وفي إمرة الحر كتب عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطًا فانتفضت كورة نتو، وتمي، وقربيط، وطرابية، وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير »(292).

ولم يكتفِ الوالي وأهل ديوانه ـ والمقصود بهم الجيش العربي الذي يتلقى عطاءه من بيت المال ـ بمحاربة الثوار وقمعهم في مواطنهم الطبيعية، بل إنه عمم العقاب لأن ساويروس يشير إلى أن «الوالي دخل الإسكندرية ليسم الناس، فقبض على البطرك ليسمه فامتنع فلم يدعه الوالي »(293).

وهنا ينقطع حديث ساويروس عن أحداث الثورة ومتابعة تفاصيلها وينشغل بأمر البطريرك وما كان بينه وبين الوالي: «والتمس البطرك المضي إلى الملك فلم يجبه إلى ذلك، ثم بعد مدة أنفذ البطرك إلى مصر مع جند يوصلونه إلى عبيد الله، فلما حضر بين يديه عرفه سبب حضوره فلم يتركه بغير وسم »(294).

وطلب البطريرك من عبيد الله أن يمهله ثلاثة أيام فأجابه وأمهله، ظل البطريرك يصلي في محبسه ثلاثة أيام حتى يموت قبل أن يتمكن الوالي من وسمه، وأن الله استجاب دعاءه ولم يمكن أعداءه منه. فأنقذ من عقاب الوسم ـ الذي هو الختم بالرصاص أو بغيره في رقبته أو يده ـ بفضل الموت محرر البشر أجمعين، بعد أن ظل أربعًا وعشرين سنة ونصفًا على كرسي البطريركية. وقد استهلك عبيد الله بن الحبحاب زمن البطريرك الجديد، ويدعى «قسما»، وكان لا يتجاوز الخمسة أشهر، وجزءًا كبيرًا من زمن البطريرك تاودروس، وهو البابا رقم 45 في تاريخ الكنيسة، في مواصلة سياسة العنف والشدة حيث «كان عبيد الله الملك بمصر ينزل عذابًا وبلايا وخسارات على أهل مصر، وأضاف على كل دينار من الخراج ثُمن دينار وكان يحدث أمورًا على الناس حتى إن الدينار قل وعز. ولما تمادى على ذلك لم يصبر الله عليه لكن أثار عليه قومًا من مقدمي المسلمين مضوا إلى هشام وعرفوه الشرور التي يفعلها وما أحدثه من البلاء في مصر فامتلأ عليه غيظًا وكتب للوقت بعزله »(295).

ويجب ألا نتمادى في حسن الظن ونعتقد أن عزل عبيد الله عن خراج مصر جاء سهلًا هكذا بمجرد شكوى بعض مقدمي المسلمين أو رؤسائهم منه للخليفة، فهو الذي جعل البقرة تحلب لهذا

الخليفة كما لم تحلب من قبل، ولذلك كان من السهل عليه التضحية بالآخرين حتى لا يعكروا على جابي الخراج انطلاقه في عمليات الحلب التعسفي . فنحن نفهم من الكندي أن الخليفة هشام بن عبد الملك ضحى بالحر بن يوسف والي مصر حينما دب النزاع بينه وبين عبيد الله، «وفي سنة ثمانٍ ومائة تباعد ما بين الحر بن يوسف وعبيد الله بن الحبحاب صاحب الخراج، وكتب عبيد الله إلى هشام يشتكي الحر. وكتب الحر يستعفي من ولايتها، فصرفه هشام في ذي القعدة سنة ثمانٍ ومائة»، وبهذا ذهب الوالي وبقي متولي الخراج .

ثم اعترض عبيد الله على الوالي الجديد حفص بن الوليد، فلم يمكث سوى جمعتين على كرسي الولاية وعزل هو الآخر، بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج إلى الخليفة قائلًا: «إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصًا ».

واستجاب الخليفة لرغبة متولي الخراج للمرة الثانية وعزل حفصًا أيضًا، بل زاد الخليفة في إطلاق يد جابي الخراج وتدعيم سطوته على مصر بأن فوضه لاختيار والٍ جديد لمصر، فاختار عبد الملك بن رفاعة الذي انسحب من ميدان الصراع على السلطة بعد فترة قصيرة من الولاية لم تتعدَ الخمسة عشر يومًا حيث وافته المنية، فتولى بعده الوليد بن رفاعة أمور الولاية، وظل عبيد الله بن الحبحاب على الخراج ليهلك بذلك أكثر من ثلاثة ولاة من المسلمين، وثلاثة بطاركة من القبط، وشعبًا بأكمله من المصريين ظل يصرخ من كثرة المظالم وشدة القمع .

وظل عبيد الله يخطط وينفذ السياسة المالية، وتعدى نفوذه ذلك إلى رسم السياسات العامة لولاية مصر، وربما نلاحظ أن ساويروس يسميه عبيد الله الملك، وليس مجرد مسؤول الخراج، أو صاحبه كما كان يسمي السابقين عليه .

وقد رأى عبيد الله بدهائه السياسي أن أفضل وسائل القضاء على الثورات القبطية في مهدها وقبل اندلاعها هو إحلال القبائل العربية الموالية للخليفة في مناطق الخطر لتسكن وتعمل وتستقر وتغير طبيعة المكان والسكان من مناطق ثورات قبطية إلى مناطق نفوذ عربي، فهو صاحب فكرة نقل قبيلة قيس إلى مصر وخصوصًا في منطقة الحوف الشرقي التي اندلعت فيها ثورة القبط بهدف كسر شوكة القبط في مواطنهم الأصلية، وكتب بذلك رسالة إلى هشام بن عبد الملك يشرح له فيها حال المنطقة من وجهة نظره فيقول: «وفيها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا، وهي بلبيس »(296).

والنقطتان الجديرتان بالانتباه هنا هما قوله بأن المنطقة ليس فيها أحد، إشارة إلى خلوها من العرب فقط وليس من البشر جميعًا والمصريين خصوصًا. ثانيًا: إن نزول قيس بها لن يضر بالخراج.

وهكذا، «وفد ابن الحبحاب على هشام فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتًا، فأذن له هشام في إلحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن لا ينزلهم الفسطاط »(297).

وبعث ـ عبيد الله ـ إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيت من أفناء هوازن، ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلًا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم. وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل. ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهرًا حتى يركب وليس عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمس مائة أهل بيت من البادية،

فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة. وأتاهم نحو من خمس مائة أهل بيت. فمات هشام وبلبيس ألف وخمس مائة أهل بيت من قيس (298).
وسنذهب الآن مع ساويروس لنرى نوع التماس الذي حدث بين عرب القيسية النازحين إلى المكان وبين القبط المقيمين فيه من قبل، فيقول :
وكانت قبيلة في الجبل الشرقي لمصر من بلبيس إلى القلزم والبحر من المسلمين يسمون العرب، وكان فيهم أكثر من ثلاثين ألف فارس منتشرين في تلك البراري والبلاد، ومنهم أمراء مقدمون عليهم، فولى عليهم زمامًا يسمى أبا جراح وكانت خيامه عند دير على اسم السيدة مريم قريب من تنيس وفيه جماعة من الرهبان وكهنة مزينين بأفعال حسنة، وكان للزمام أخوان فأخذهما وصعد إلى الدير ودخل البيعة وطرد الرهبان من البيعة ونهبوها وأخذوا كل ما في الدير من قماش وغلة وأثاث (299).
لكن العربيين أعادا جميع ما أخذاه بعد ذلك بسبب نزول المرض بأحدهما فظننا أن ذلك بسبب كرامات رهبان الدير وخافا خوفًا عظيمًا .
ويذكر ساويروس أن واقعة نهب الدير هذه حدثت زمن تولي القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب مكان أبيه على خراج مصر، وأن القاسم كان أشد قسوة من أبيه وأنه قد «صار فيه الشر أكثر من أبيه»، وأنه كان صبيًّا محبًّا للشر ومحبًّا للنساء وقد «جعل له سراري من كل جنس ليس لهن عدد، وكان قلبه ملتهبًا بهن جدًّا»، «وأنه لم يتخلَ عن طريقة السوء ومحبته جمع الذهب »(300). ثم يذكر قصة دخول هذا القاسم مع خليلته إلى الدير .
وفي الحقيقة إننا لا نجد ذكرًا لهذا القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب لدى الكندي أو المقريزي أو حتى لدى ابن تغري بردي الأتابكي صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة».
مما يدل على أنه لم يكن يتولى أمر جباية الخراج رسميًّا بقرار من الخليفة أو من والي مصر، وإنما كان يعمل تحت مظلة نفوذ أبيه الممتدة في ربوع الأراضي المصرية. تلك المظلة التي حدت بساويروس وبالرهبان الذين استقى منهم تاريخه إلى الظن بأنه كان مسؤولًا عن كل خراج مصر حيث يقول: «وكان القاسم سالكًا في طريق الجهل كل حين، تضاعف الظلم في أيامه على الناس، وولي ولاة في كور مصر أشر منه، قومًا يجمعون أموال الغرباء من أسوان إلى الإسكندرية، وألقى على الناس بلاءً عظيمًا في كل البلاد والكور، الكبار والصغار، وكان الكبير يأكل الصغير والقوي يأكل الضعيف مثل سمك البحر، وبعد ذلك عمر مراكب مثل قصور الملوك وزينها، وكان يركب فيها نساءه وعبيده ويخرج في بلاد مصر ويمضي بهن إلى الإسكندرية معه وتنيس ودمياط فيأخذ أموال التجار والناس والمقيمين في تلك المواضع ويصعد إلى صعيد مصر وينتهي إلى أسوان يفعل ذلك، وكان يسير صحبته من الجند والعسكر ويدخلون إلى ملعب أنصنا »(301).
وربما كان هذا القاسم مسؤولًا عن خراج منطقة الحوف الشرقي فقط وليس على عامة خراج مصر، وزاد نفوذه وبدأ في ممارسة أعمال الإغارات على المناطق الأخرى حتى «أنفذ إليه الخليفة من قبض عليه وحمله إليه تحت الحوطة والضيق، ولما سار على بلبيس مع الموكلين والسائرين به إلى الخليفة لحقوه الأساقفة وجماعة من النصارى إلى بلبيس. ثم سيروه الموكلون به ولم يعد إلى مصر بل أخذ جميع ماله وهو في العذاب والاعتقال وأنفذ إلى مصر وأخذ عبيده وسراريه ومضوا بهم إلى الخليفة »(302).

والكندي لا يذكر ما يخص رجلًا يسمى القاسم بن عبيد الله، ولكنه يهتم بالحديث عن الولاة حسب ترتيبهم الرسمي، حيث تولى عبد الرحمن بن خالد ولاية مصر بعد وفاة الوليد بن رفاعة، ثم تولى حنظلة بن صفوان، وفي عهده «انتفض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم في سنة إحدى وعشرين ومائة فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسًا كثيرًا، وظفر بهم »(303).

ويقول ابن تغري بردي إن: «حنظلة بن صفوان دام بها إلى سنة إحدى وعشرين ومائة، وفيها انتفض عليه قبط مصر، فحاربهم حنظلة المذكور حتى هزمهم »(304) ، ولا يذكر ساويروس تلك الثورة المهمة في سلسلة الثورات القبطية لانشغاله بتتبع الخلافات بين رجال الكنيسة قبل تولي البابا خائيل وهو البابا رقم 46، وهو حينما يذكر أن والي مصر بعد القاسم هو إنسان اسمه حفص بن الوليد الحضرمي، فإنه يخالف بذلك المؤرخين العرب الذين ذكروا أن السابق على حفص كان حنظلة بن صفوان الذي حدثت ثورة القبط في زمنه، فهل كان بأوراق ساويروس بعض الخلط في تلك الفترة الزمنية؟ أم أن القاسم كان مجرد مسؤول خراج في منطقة الحوف الشرقي في أثناء ولاية حنظلة بن صفوان .

المهم أنه بعد اختيار البابا خائيل قام رجال الكنيسة وكهنتها «ومضوا إلى القصر وعرفوا حفصًا الذي جرى وما كانوا فيه، وسألوه كتب كتاب إلى شيوخ وكهنة وادي هبيب ليسلموا لهم أنبا خائيل المذكور وكتب لهم الكتب وأخذوها وخرجوا من عنده »(305).

ويختلف الكندي وساويروس في موقف كل منهما من حفص بن الوليد، فعلى حين يمدحه الكندي لأنه أعاد أرزاق المسلمين إلى مقدار الاثني عشر إردبًا لكل رجل، فإن ساويروس يذمه بسبب الإحصاء الذي أجراه رؤساء القبط في ذلك الحين واكتشافهم أن حوالي أربعة وعشرين ألف إنسان قد انتقلوا إلى الإسلام في عهده، وربما كانت هناك أسباب أخرى للكراهية مثل أن حفص قد «أمر بقسم مواريث أهل الذمة على قسم مواريث المسلمين، وكانوا قبل حفص يقسمون مواريثهم بقسم أهل دينهم »(306).

وبعد أن كان البنون والبنات   لا فرق بينهم بل هن مساويات

والزوج إن مات بلا أولاد   للزوجة النصف بلا عناد

والزوج والزوجة في الحكم سوى والنصف للأهل فدع عنك الهوى

والأم إن كانت مع الأعمام   تحوز ثلثيه بلا كلام

كما تقول أرجوزة الأسعد أبي الفرج هبة الله .

وبذلك نزع الوالي المسلم حفص بن الوليد اختصاص دعاوى المواريث من القضاء الذمي وأسندها إلى القضاء الإسلامي الذي يخسف حق المرأة إلى نصف منزلة الرجل عمومًا .

كما أعلن حفص بن الوليد أن «كل من يتخلى عن دينه ويكون مسلمًا لا تؤخذ منه بعد جزية »(307).

وبالفعل فقد جاء رؤساء القبط يشكون للبطريرك بقولهم : «يا أبانا صلِّ علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى دين الإسلام من إخوتنا من بني المعمودية من مصر وأعمالها على يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان »(308).

وبرغم هذا المدح العربي لحفص إلا أننا نجد أنه عُزل ثلاث مرات : كانت المرة الأولى التي عُزل فيها بعد أسبوعين فقط من الحكم بفضل رفض عبيد الله بن الحبحاب له، والمرة الثانية التي أعاد

فيها أرزاق المسلمين إلى نصابها القديم وتصادف في أثنائها موت الخليفة هشام بن عبد الملك وتولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده، ولم يلبث أن قتل وتولى ابنه مقاليد الخلافة ثم توفي أيضًا وبويع إبراهيم بن الوليد، ثم جاء مروان بن محمد فخلع الخليفة إبراهيم . وهنا كتب حفص بن الوليد والي مصر للخليفة الخامس في فترة ولايته الثانية أن يستعفيه فأعفاه من الولاية التي استمرت ثلاث سنين إلا شهرًا، ولكنه لم يلبث أن عاد إليها كرهًا بناء على إصرار قواد القروض حتى عزله الخليفة مروان وأرسل الحوثرة بن سهيل الذي سارع بقتل حفص بن الوليد سنة ثمانٍ وعشرين ومائة، وبذلك تنقضي ولاية رجل شهد حكم خمسة خلفاء، وتولى هو نفسه الولاية ثلاث مرات حدث في أثنائها كثير من الفتن العربية .

ويذكر الكندي ثورة قبطية أخرى حدثت في زمن الوالي عبد الملك بن مروان بن نصير حيث «خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري، فقتل يحنس في كثير من أصحابه »(309).

وليس هناك ذكر لهذه الثورة القبطية أيضًا في كتاب ساويروس بن المقفع، مع أن ساويروس يذكر عن الوالي ابن نصير هذا أنه «كان يبغض النصارى جدًّا ومعه تكبر عظيم وأنزل تعبًا عظيمًا على أهل مصر وأظهر أمورًا عظيمة بمصر وأخذ لمروان الذهب والفضة والنحاس والحديد وكل شيء يجده وكان يفعل ذلك بمشورة رجل سوء تعلم هذه الأفعال من الشيطان، وكان رئيسًا على جميع صنائع مصر وأمور المملكة، اسمه عبد الرحيم »(310).

فهل هناك علاقة بين عبد الرحيم المذموم لدى ساويروس، وعبد الرحمن بن عتبة المعافري قاهر ثورة القبط في سمنود؟ وربما يكونان شخصًا واحدًا خصوصًا أن الخلاف اللفظي بين عبد الرحيم وعبد الرحمن ليس كبيرًا بالإضافة إلى ربط الاسمين بحدث واحد .

وربما لم يدقق ساويروس في الاسم بسبب اهتمامه هنا بذكر تفاصيل الخلاف بين بطريرك الكنيسة اليعقوبية (القبطية) وبطريرك الكنيسة الخلقيدونية (الملكانية) وتنازعهما على ملكية كنيسة أبي مينا بمريوط، وتصعيدها أمر الخلاف إلى الولاة والقضاة .

على أية حال فساويروس الذي جمع مادة كتابه وصاغها لتسجيل تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية لا يلتفت في كثير من الأحيان إلى تفاصيل حياة الشعب القبطي وعذاباته وثوراته ولذلك تسقط منه تواريخ بعض الثورات كما سقطت ثورة يحنس السمنودي . ولولا حديث الكندي عن ثورتي سنة 121هـ، 132هـ القبطيتين لضاع تاريخ مقاومة الشعب القبطي في تلك الفترة وطوته السنون. وقد ذكر الكندي بالتوازي مع ثورة القبط الأولى عام اثنين وثلاثين ومائة (311) ، ثورة أخرى قام بها العرب في منطقة الحوف الشرقي حينما «خالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان أمير المؤمنين وتابعه على ذلك الرماحس بن عبد العزى الكناني في جمع من قيس، فنزلوا الحوف الشرقي وأظهروا الفساد، فبدر عبد الملك بن مروان أهل الديوان إليهم، وجعل على جماعتهم موسى بن المهند بن داود بن نصير . فساروا في سبعة آلاف إلى بلبيس، فلما التقوا دعوا إلى الصلح، على أنهم يخرجون عمرو بن سهيل والرماحس إلى أي أرض شاءا، فأجابهم موسى بن المهند إلى الصلح وانصرفوا. ثم ظفر بعد ذلك بعمرو بن سهيل فحُبس بالفسطاط »(312).

أما ثورة القبط الثانية لعام 132هـ والموازية لأحداث سقوط الدولة الأموية فيذكرها الكندي باختصار قائلًا: «وخالفت القبط برشيد، فبعث إليهم عثمان بن أبي نسعة في المصصة فهزمهم »(313).

أما ساويروس بن المقفع بعد أن نسي ذكر أحداث الثورة الأولى فيقول: «عصى على عبد الملك قوم من البشمور ومقدمهم مينا بن بقيرة وقوم آخرون من شبرا بسنباط، ومسكوا تلك الكورة ولم يعطوه خراجًا، ولا لصاحب ديوان مصر إلى أن افتقدهم الرب وكان يعطيهم الظفر فخرج إليهم عبد الملك بعسكر فهزموه بقوة الله وقتلوهم، ولما وصل مروان إلى مصر عرفوه جميع ذلك فكتب لهم كتابًا وأمانًا فلم يقبلوه، فأنفذ لهم عسكرًا كثيرًا من مسلمي مصر ومن وصل في صحبته من الشام فلم يقدر العسكر أن يصل إليهم بالجملة لأنهم تحصنوا في مواضع الوحلات التي لا يقدر أن يصل إليها سوى رجل رجل، فإذا زلت رجله عن الطريق غطس في اللوث وهلك، وكانوا العساكر يحرسونهم من برا فيخرجون لهم في الليل البشامرة من طرق يعرفونها يتلصصون عليهم ويقتلون من قدروا على قتله ويسرقون أموالهم وخيلهم فيطول عليهم الأمر فيرحلون عنهم »(314).

وقد انتصر البشموريون على جيش الوالي الأموي عبد الملك بن مروان عدة مرات في نفس الوقت الذي خرج فيه ملك النوبة بجيش جرار ليحارب الوالي بعد أن سمع عن سجن البطريرك القبطي في سجن مصر ومعه طائفة من رهبان الكنيسة لذلك، «سار الملك من بلاد النوبة يريد ديار مصر في عسكر عظيم فيه مائة ألف فارس بمائة ألف فرس ومائة ألف جمل»، وكان ملك النوبة قد بعث رسولًا يطلب من الوالي إطلاق سراح البطريرك فقبض الوالي على رسول ملك النوبة وحبسه هو الآخر مع البطريرك، لكنه اضطر إلى إطلاق سراح الجميع حينما «علم مجيء الملك ووصوله إلى مصر ولم تكن له قدرة على محاربته »(315).

ثم لم يلبث أن جاء مروان بن محمد الخليفة الأموي فارًا أمام جيوش العباسيين و«كان يطرح النار في كل موضع يصله وهو منهزم»، وقد وصل مروان مصر وثورة البشموريين ما زالت مشتعلة فكتب الرسائل لتهدئة البشموريين حتى يجد سبيلًا للخروج من محنته وحتى لا يتعقد الموقف أكثر من تمرد المصريين من ناحية ومطاردة العباسيين له من ناحية أخرى .

لكن البشموريين رفضوا عرضه واستمروا في ثورتهم، فاستمرت بالتالي حروب مروان في اتجاهات عديدة. وبعد دخول جيش مروان الإسكندرية بقيادة الحوثرة بن سهيل الباهلي والذي يسميه ساويروس «كوزارا» ويصفه بأنه «كان يشبه الوحش في خلقه وخلقه ».

«ودخل عسكر مروان المدينة مع كوزارا وملكها وقتل منها جماعة ونهب أراخنتها واستأسر أولادهم ونساءهم وأخذ كل مالهم وأخذ الأب أنبا خائيل وقال له كيف مكنت أولادك النصارى - يعني البشامرة - أن يقاتلوا ».

وكما قبض على الأنبا خائيل، بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية، قبض على بطريرك الملكانية أيضًا «وجعل رجليه مع رجلي أبينا البطرك في الحديد، فبعد خمسة أيام أحضر قسما، بطريرك الملكية، من شعبه وبيعته ألف دينار ودفعها لكوزارا فخلاه، وأنفذ إلى أبينا وقال له افعل هكذا وأخليك، فأجابه أن ما في بيعتي شيء وأنا أجعل نفسي عوض المال »(316).

وإزاء رفض البطريرك القبطي دفع الألف دينار للقائد العسكري كوزارا أسوة بالبطريرك الملكاني استمر حبسه تسعة أيام وحينما هم بإعدامه فكر في استخدامه كواسطة لتهدئة ثورة البشامرة بدلًا من قتله، وكان تفكيره مع نفسه هكذا :

نحمله معنا إلى رشيد وندعه أيضًا أن يكتب لهم ويقول إن كل ما حل بي لأجلكم، فأمر بتخليته. فلما بلغ الخبر البشامرة، خرجوا لأولئك الذين كانوا يحاصرونهم فقتلوهم وطردوهم وهم على

مسيرة يومين، والذي خلص من الموت مضى إلى مروان وعرفه الذي جرى عليهم ووصل الخبر إلى مروان بأن أعداءه قد قربوا منه (317).
وانتصر البشامرة على جيوش الخليفة الأموي عدة مرات، وكان مروان بن محمد في أسوأ أوضاعه ويفر هاربًا أمام جيوش العباسيين من الناحية الأخرى ولا يجد أمامه سبيلًا للنجاة، ومن شدة يأسه يحرق كل ما يقابله: مخازن الغلال والسلاح ويحرق الفسطاط. وقد «عزم مروان الحمار على تعدية النيل فعدى إلى الجيزة وأحرق الجسرين والدار المذهبة، وبعث بجيش إلى الإسكندرية فاقتتلوا مع من كان بها بالكريون، وبينما هو في ذلك خالفت القبط، فبعث إليهم مروان من قاتلهم أيضًا وهزمهم »(318).
وهذه الثورات القبطية والضعف الواضح في صفوف الخليفة الذي يفقد عرشه تدريجيًّا ويخسر مواقعه واحدًا إثر الآخر أمام الجيوش العباسية يجعلنا نحار في شأن البطريرك القبطي الذي لا يفضل سبيل الاستمرار في المقاومة ويكتب لشعبه البشموري الثائر والمنتصر في ثورته، عدة مرات ينصحه بأن يلقي سلاحه ويسلم لجيش مروان المهزوم، مع أن مروان هذا اضطهد القبط اضطهادًا كبيرًا وخاض في دمائهم ـ بعد أن ذبح أكثر من مائة راهب ذبح النعاج في دير المحرق ـ واضطهد البطريرك نفسه وبعض الرهبان المصاحبين له حينما اعتقلهم ورمى في رجليه خشبة عظيمة وطوق حديد ثقيل في رقبته حتى يوفي خراجه كاملًا ثم أطلقه إلى الصعيد يجمع له المال من القبط، «وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج »(319).
ومعظم عرب مصر يتخلون عن الدولة الأموية ويعلنون موالاتهم للجيوش العباسية. كل ذلك وأبو الكنيسة المصرية ماضٍ في سياسته القديمة المتوارثة والقاضية بعدم المقاومة، وإن شئنا الدقة فلنسمها المقاومة السلبية والانتظار في صمت مع تحمل كل أصناف التعذيب البدني والمادي والمعنوي حتى تتغير الظروف وتنقشع سحابة الشدة بفعل عوامل أخرى لا تكون لهم فيها أيادٍ ظاهرة. وقد كان البطريرك ورجال كنيسته يضعون آمالهم على ركائب خيل العباسيين القادمة من الشرق ويتمنون خلاص البلاد والعباد على أيديهم، لكنهم لا يظهرون الانحياز مع أن لحظة سقوط الدولة الأموية لم تكن سهلة وخصوصًا حينما «أمر مروان أن يضرب البوق بمصر الفداء ثلاثة أيام، ويقول إنه بعد ثلاثة أيام إن وجدت بمصر إنسانًا أو دابة متخلفة قتلته لأني أضرب جميع الفسطاط بالنار، وعدوا الناس كلهم إلى الجيزة والجزيرة وغيرها، وهرب جميع الناس في المراكب حتى البنات المخدرات اللاتي لم يخرجن قَطُّ خرجن إليها مع أهاليهن وترك الناس جميع أموالهم وضرب النار من قبلي مصر إلى بحريها حتى انتهت إلى الجامع الكبير الذي للمسلمين ـ يقصد جامع عمرو ـ ووقع في البحر من الناس والبهائم ما لا يحصى عدده بحسب أنهم لم يجدوا من يعدو بهم لما هربوا من النار وكان الأخ يهرب من أخيه والصديق من صديقه والأعمى لا يوجد من يقوده والمقعد والمفلوج والضعيف والشيخ الفاني والعجوز التي لا نهضة لها، جميع هؤلاء احترقوا بالنار وكانوا الناس مطروحين في الشوارع والأزقة والغيطان في أعمال الجيزة كالأموات مما حل بهم تحت شقاء عظيم وجوع وعطش ولا يجدون ما يقتاتون به من كثرة الخلق وكانت الغلات التي بمصر قد أحرقها مروان »(320).
وبينما الفسطاط تحترق كان الخليفة الأموي ينتف ذقن البابا شعرة شعرة والبابا لا ينطق ولكن صوته الداخلي يردد في صمت: «هذه المملكة تبيد وجميع جيوشها، وتكون بعدهما مملكة جديدة ».

وشمل التعذيب بعضًا من الأساقفة المصاحبين للبابا حتى إن سياف مروان بن محمد «طرح الأب أنبا مويسيس على ركبته ورفعوا رجليه إلى فوق وضربوه بدبابيس نحاس على أجنابه وعلى رقبته وكانوا يقولون له أعطنا برطيلًا ونخليك»، وكان الأنبا مويسيس لا يعرف اللغة العربية ولا يفهم ما يقوله هؤلاء المتوحشون بينما تلميذه يترجم له «كلمة بعد كلمة». وكان العباسيون على الضفة الأخرى للنيل يشاهدون وقائع التعذيب ومعهم من انضم إليهم من نصارى مصر وقد قالوا للعباسيين: «هنا أبونا البطرك عند مروان الكافر وما ندري ما يصنع به. وكانوا البشامرة قد لقوهم من الفرما وقالوا للخرسانيين: إن بطركنا قد أخذه مروان ليقتله بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم ».

ولم ينشغل الخليفة الأموي المهزوم المحاصر عن إنزال مزيد من العقاب برجال الكنيسة، بل أمر جنوده بالإبقاء على بطريرك الكنيسة القبطية ورجاله في الأسر والتعذيب تحت الشمس، «حتى ظننت أن أبي ما يعيش إلى مغيب الشمس من شدة العذاب»، كما يقول أحدهم .

وفي اليوم التالي أمر مروان بن محمد حراسًا آخرين أن يتولوا مهمة حراسة البطريرك ورجاله العشرة، «فجعل مع كل واحد منا ثلاثة من الجند، وضيقوا علينا جدًّا فلما حميت الشمس أعد لنا ذلك الأمير آلات العذاب مختلفات لأنهم لم يتفقوا على قتلة يقتلوننا بها ».

واستطاع العباسيون في ذلك الوقت أن يدبروا مراكب يعبروا بها النيل إلى ناحية مروان. وكان مروان يرتب أموره ليهرب إلى صعيد مصر، فنصحه أحد أبنائه أن يفك أسر البطريرك ورجاله حتى يستطيع المروانيون أن يهربوا إلى بلاد النوبة والسودان ويطلبوا الأمان هناك من ملك النوبة الذي يتبع الكنيسة القبطية، وقال لأبيه: «إن قتلته ـ البطريرك ـ فما يقبلوننا بل يقومون علينا هم أيضًا ويقتلوننا»، فتراجع مروان عن فكرة قتل البطريرك ولكن مع إبقائه في الحبس مع رجاله العشرة وفي «رجل كل واحد منا طوبة حديد ثقيلة جدًّا يكون وزنها نصف خنجور وجعلونا خلف ثلاثة أبواب خشبية ليس ضوء ولا هواء ولا راحة ».

وتذكر بعض الدراسات القبطية الحديثة كراهية مروان الشديدة للمسيحيين مشوبة ببعض الأخطاء التاريخية فيقول الأنبا غريغوريوس أسقف عام الدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية والبحث العلمي في كتاب عن الدير المحرق: «جاء عهد محمد بن مروان آخر خلفاء بني أمية (742-750م) وكان شديد الكره للمسيحيين فأحرق عددًا من الأديرة وقتل الكثير من الرهبان، فهرب عدد منهم إلى دير المحرق، فتبعهم إلى هناك وذبح أكثر من مائة راهب منهم، حتى لقد قال المؤرخون إن البابا مرقس الثاني، وهو التاسع والأربعون من باباوات الإسكندرية (799-819م)، مات متأثرًا بهول هذا الخراب الذي حل بالأديرة والكنائس »(321).

وهكذا يذكر أسقف البحث العلمي اسم الخليفة مقلوبًا فاسمه مروان بن محمد وليس العكس، كما أن بابا الكنيسة القبطية كان في ذلك الحين البابا خائيل وهو البطريرك السادس والأربعون في تاريخ بطاركة الكنيسة وليس التاسع والأربعين كما يقول. لكن الثابت والمحفور في أذهان المصريين هو الكراهية غير المسبوقة التي جسدها آخر الخلفاء الأمويين تجاه القبط ليس فقط بسبب ثوراتهم ضده، بل لأن هذه الثورات العنيفة كانت إحدى علامات انهيار دولته وزوالها إلى الأبد .

فقد كان مروان خليفة الانهيار الذي اعتلى عرش الخلافة لحظة تقوض دعائمها، فأخذها وتهاوى بها إلى السقوط الرهيب . وقبل رحيله أشعل الحرائق في كل مكان، ولذلك كان الاضطهاد عامًّا للمسلمين وغير المسلمين، للعرب وغير العرب، الأحرار والموالي وأهل الذمة، للرجال والنساء،

للشباب والشيوخ والأطفال، الجميع، الجميع كانوا أعداءه الذين انتقم منهم لأنهم شهود سقوطه العظيم. في حين كان العباسيون يبنون أسس دولتهم الجديدة فقسموا جيوشهم إلى أربعة أقسام: الأول بقيادة صالح بن علي، والثاني بقيادة أبي الحكم، والثالث توجه إلى أسفل شطنوف ونواحيها، والرابع بقيادة أبي عون، وكانوا يسيطرون على نواحي مصر ويطاردون مروان وأبناءه .
أما من بقي في الجيزة ـ في النزهات ـ من أهلها فأطفأوا النار التي أشعلها ابن مروان قبل هروبه وفكوا وثاق البطريرك «الله يشهد أن قومًا من المسلمين كانوا ركاب خيلهم نزلوا من عليها وفكوا الحديد عنا وأخذونا نحن ومضوا بنا إلى ماري بطرس في الجيزة، وكان يمشي معنا قوم مؤمنون وكانت ليلة الأحد الأول من مسرى ».
وأمام انتصار العباسيين الذين امتد جيشهم من الجبل إلى البحر طلب حوثرة أمانًا فلم يقبلوه وطالبوا بتسليم مروان، ومضى حوثرة إلى مروان يحتال عليه، فبادر مروان إلى حوثرة وقتله. لكن عسكر صالح بن علي العباسي ما لبثت أن أدركت آخر الخلفاء الأمويين وقتلته .
وأظهر العباسيون سياسة اجتذاب القبط بأن نادوا في البلاد: «من كان نصرانيًّا يعلق مثال الصليب من الذهب والفضة والنحاس على جبهته وعلى ثوبه وعلى بيته ومن لم يعمل ذلك فلا ذنب علينا منه، وكانوا إذا وجدوا قومًا عليهم علامة الصليب يخففون عنهم الخراج ويرفقون بهم ويعملون معهم الخير في جميع البلاد ».
كما أطلقوا سراح أنبا خائيل «وأكرموه كرامة عظيمة»، «ولما التمس الأب أنبا خائيل من الملك رزق البيع في جميع الكور فعل له ما طلبه منه». «وأما البشامرة فإنه سامحهم بالخراج ودفع لهم خراجًا آخر ».
لكن فرحة القبط لم تدم كثيرًا، فبعد أن استتبت الأمور للعباسيين ودانت البلاد وخضعت «ومضى كل واحد منا إلى موضعه وأبو عون تولى مصر»، بعث الخليفة العباسي رجلين من أصحاب الدواوين هما: عطاء بن شرحبيل والآخر سفر، فأعادا الخراج إلى ما كان عليه وكل الضرائب السابقة وكشفا عن «بغضهما لنا نحن النصارى ومحبتهما للفضة ».
وفي السنة الثالثة لحكم العباسيين «أضعفوا الخراج وأكملوه على النصارى... ولم يوافوا لهم بما وعدوهم ».
ورأى كثير من الأقباط التحول إلى الإسلام حلًّا وحيدًا للتخلص من عبء الجزية. ويمضي الأنبا خائيل إلى أبي عون مناشدًا إياه رفع الخراج عن بيع الإسكندرية. وهنا ينشغل ساويروس بذكر ما يخص البطريرك والكنيسة كعادته دائمًا وينسى ما يخص الشعب القبطي .
لكن الكندي يسجل في كتابه أنه في أثناء ولاية أبي عون، ثاني الولاة العباسيين، وبعد حدوث الوباء في مصر سنة خمس وثلاثين ومائة لم يترفق مسؤول الخراج ـ عطاء بن شرحبيل مولى مراد ـ بالناس فخرج أبو مينا القبطي بسمنود ثائرًا، وبعث إليه الوالي بجيش بقيادة عبد الرحمن بن عقبة، فقتل أبا مينا وخمدت ثورة القبط (322).
وطلب الخليفة من أبي عون التفرغ لقيادة جيوش المغرب وترك ولاية مصر لصالح بن علي .
ولم تكد تمر عدة أعوام حتى هبت ثورة قبطية جديدة عام 150هـ في أثناء ولاية يزيد بن حاتم وفي خلافة أبي جعفر المنصور حيث «خرج القبط على يزيد بن حاتم بسخا ونابذوا العمال وأخرجوهم. وكان أميرها عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، وذلك في سنة خمسين ومائة وصاروا إلى شبرا سنباط، فقاتلوا ابن عبد الرحمن . وانضم إليهم أهل البشرود والأوسية والبجوم.

فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه أهل مصر.
فخرجوا إليهم فبيَّتهم القبط. فطُعن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج حتى سقط، وطُعن نصر بن حبيب طعنتين، وقُتل عبد الجبار بن عبد الرحمن، وألقى توبة الخولاني النار في عسكر القبط. وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين »(323).
ولا يذكر لنا الكندي كيف انتهت ثورة القبط هذه بعد أن حققوا تلك الانتصارات على جيش الوالي العربي وقتلوا عيون رجاله وقادته وقتلوا والي سخا نفسه مما اضطر الجيش العربي للعودة إلى الفسطاط مهزومًا، ويستمر الكندي في تتبع سلسلة الولاة دون أن يذكر شيئًا عن نهاية تلك الثورة وكيف خمدت ومن الذي قام بإخمادها، لكنه يذكر ـ بعد قليل ـ نشوب ثورة جديدة في أثناء ولاية موسى بن علي بن رباح اللخمي عام 156هـ، فيقول: «خرج القبط ببلهيب في سنة ست وخمسين فعقد موسى لعبد الله بن المهاجر بن علي، حليف ابن عامر بن عدي بن تجيب، فخرج في الجند إلى بلهيب فهزم القبط »(324).
ونجد في كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي ذكرًا لهذه الثورة حين يقول عن ولاية موسى بن علي «وفي ولايته خرج عليه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى هذا بعسكر فقاتلوهم حتى هزموهم وقتل منهم جماعة وعفا عن جماعة، ومهد أمور مصر»، وبعد كل ذلك يقول: «وكان فيه رفق بالرعية وتواضع »(325).
ولا يذكر ساويروس بن المقفع ثورة عام 156هـ وخروج القبط ببلهيب، كما أنه يقع في خطأ يخص ولاية ابن عبد الرحمن، حيث تولى مصر واليان يدعيان ابن عبد الرحمن، وكانا أخوين أولهما عبد الله بن عبد الرحمن وقد توفي في أثناء ولايته في صفر عام 155هـ، والآخر هو محمد بن عبد الرحمن الذي توفي وهو والٍ عليها أيضًا في شوال 155هـ، أي بعد أخيه بحوالي ثمانية أشهر ونصف، فأيهما كان يقصد ساويروس وهو يقول: «عزل الوالي ابن عبد الرحمن عن مصر وأنفذ غيره إلى مصر»؟
وإذا دققنا النظر في تفاصيل الثورات السابقة سنلاحظ تغييرًا واضحًا في طريقة إعلان القبط عن غضبهم في القرن الثاني للهجرة حيث أصبحت ثوراتهم أكثر تنظيمًا عن ذي قبل، فالكندي يحدثنا عن عسكر القبط الذين هزموا عسكر الوالي المنظمين والمتفرغين للقتال والتدريب والإعداد، كما سنلاحظ نشوب ثورات مشتركة فيما بعد يتعاون فيها عرب وأقباط بعض المناطق ضد جيش الوالي والخليفة. وخصوصًا بعد انقضاء عهد الخليفة هارون الرشيد واندلاع ثورات عربية في الحوف والصعيد، فقد ثار أهل نتو وتمي ضد الوالي حاتم بن هرثمة بن أعين في عهد الأمين، وكما نعلم أن منطقتي نتو وتمي كانتا منطقتي ثورات قبطية متتالية. وفي ولاية السري بن الحكم الثانية عام 203هـ، حينما اندلعت ثورة القبط بسخا ضد قوات عبد العزيز الجروي، نجد قبيلة بني مدلج وهي نحو الثمانين ألفًا تناصر قبط سخا، فخرج إليهم الجروي فهزمهم وهربت بنو مدلج .
وسنجد إشارة عارضة لطلب الجروي مقابلة البابا يعقوب. وبينما لا يذكر ساويروس شيئًا عن خروج القبط في سخا ـ ثورة قبط سخا ـ فإنه ينشغل بتتبع محنة البابا يعقوب وموته وتولي الأنبا سيمون ثم البابا يوساب رقم 52 في كرسي البطريركية .
وهنا نتوقف كثيرًا، حيث اندلعت في عهده أحداث الثورة الكبرى عام 216هـ في ربوع مصر كلها واشترك فيها قبط مصر وعربها ـ جميعًا ـ المضطهدون. وربما تكون أسباب الاضطهاد مختلفة لدى الطرفين: فالعرب كانوا يثأرون لعنجهيتهم القبلية المهدرة بعد أن فضل عليهم العباسيون

أجناس الفرس والديلم والأتراك وأكثروا من شرائهم وجعلهم دعامة الجيش والحكم؛ فنزلت بذلك مرتبة العرب من أصحاب الديوان ومقاتلي الدولة الذين يفوزون بالغنائم والأموال ويتحكمون في البلاد والعباد إلى مجرد رعايا يقطنون الأرض حينًا. أما القبط فقد كان يزداد اضطهادهم كلما زاد شره الولاة ومسؤولي الخراج لجمع مزيد من المال، «وكان متوليا الخراج في ذلك الزمان رجلين، أحدهما اسمه أحمد بن الأسبط والآخر إبراهيم بن تميم، هذان مع ما كانوا الناس عليه من البلايا لا يراعيان طلب الخراج بغير رحمة، وكانوا الناس في ضيق زايد لا يحصى وأصعب ما عليهم ما يطلبه منهم متولو الخراج، وطلب ما لا يقدرون عليه، وبعد هذا أنزل الله الكريم بأحكامه الحق غلاء عظيمًا على كورة مصر، حتى إن القمح بلغ خمس ويبات بدينار، ومات بالجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان، ومن جميع الناس ما لا يحصى عدده من شدة الجوع »(326).

فالغلاء والموت جوعًا من جهة، وقسوة جامعي الخراج من جهة أخرى، كانا سبب انفجار الثورات القبطية. والضغط يأتي من أعلى إلى أسفل، فيرتد ثورة من أسفل إلى أعلى .

وخزائن الخليفة المأمون تطالب واليه أبا إسحاق المعتصم بحقها في أموال الجباية، وخزائن المعتصم تلح على نائبه في مصر للإسراع في توريد المال اللازم، ونائب الوالي يشتد على رجاله، ورجاله يؤججون نار قسوتهم ضد الشعب القبطي، دافع الجزية والخراج. حتى كان عام 216هـ فانفجر أتون الغضب في مصر كلها شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، واشترك في إشعاله عربها وقبطها، ولأول مرة منذ الفتح العربي لمصر يجتمع العرب والقبط في عمل مشترك كبير في بداية القرن الثالث الهجري، بعد أن جرى الدهر على العرب، وتغيرت أحوالهم وهبطوا من منزلة الحكام الظالمين إلى أرض المحكومين المظلومين. لا أقول إن الرؤوس قد تساوت تمامًا، ولكن اقتربت المسافات وتزامنت الأحداث، وإن لم تنصهر العناصر تمامًا. وربما كانت أحداث تلك الثورة قد شكلت لبنة أساسية على طريق انصهار قبط وعرب ذلك الزمان .

ويقدم ابن إياس صورة للتحالف المشترك بين العرب والقبط بقوله :

وانضم الأقباط عليهم ـ يقصد على عرب أسفل الأرض أو عرب الوجه البحري ـ وذلك في جمادى الأولى، وحشدوا وجمعوا فكثر عددهم، وساروا نحو الديار المصرية، فتجهز عيسى وجمع العساكر والجند لقتالهم، فضعف عن لقائهم وتقهقر بمن معه، فدخلت الأقباط وأهل الغربية مصر، وأخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجه لسوء سيرته، وخرج معه أيضًا متولي خراج مصر، وخلعوا الطاعة (327).

وهكذا لم يكتفِ قبط مصر بالثورة في مواطنهم الطبيعية بالقرى كما كانوا يفعلون من قبل، بل خرجوا وساروا إلى العاصمة في تحالف مسلح مع العرب الثائرين ضد الحاكم الرسمي المعين من قبل الخلافة العباسية ويدعى عيسى بن منصور الرافقي، ولما عجزت قوات الوالي عن صد الثورات الزاحفة إليها في عقر دارها فضلًا عن فشلها في حفظ الاستقرار السياسي للبلاد، استنجدت بالخليفة في بغداد الذي أمر الأفشين بالتوجه على رأس جيوشه من برقة إلى مصر على وجه السرعة، فقدم الأفشين حيدر بن كاوس الصفدي تحت الراية السوداء للعباسيين ليؤدب أهل مصر ويقمع ثورتهم .

ووصل الأفشين في أوان الفيضان حينما تكون قرى مصر ومدنها كالنجوم السابحة من شدة إحاطة الماء بها، فيتعذر الانتقال من بلدة إلى أخرى إلا بالسفن، ووصل الأفشين بجيشه إلى الفسطاط في

جمادى الآخرة وعسكر بها حتى انتهاء الفيضان الذي يأتي بالخير حينًا وبالدمار أحيانًا أخرى .
وهكذا، تزامن فيضان النيل مع فيضان ثورة الشعب بينما الجيش الفاتك القادم تحت الراية السوداء للخليفة يقيم «بالفسطاط لأن النيل في مده قد حال بينه وبينهم، ثم خرج الأفشين وعيسى بن منصور جميعًا، فعسكروا في شوال سنة ست عشرة، فحاربه أهل نتو وتمي، وقد اجتمعوا بأشليم، وعقدوا عليهم لابن عبيدس الفهري من ولد عقبة بن نافع، فواقعهم الأفشين بأشليم، فهزمهم وأسر منهم كثيرًا فقتلهم. ورجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط ومضى الأفشين إلى الحوف ففلَّ جماعتهم، وبعث الأفشين عبد الله بن يزيد إلى الغربية، فانهزم إلى الإسكندرية، واستجاشت عليه بنو مدلج فحصروه في حصن الإسكندرية، وذلك في شوال سنة ست عشرة. ومضى الأفشين إلى شرقيون، فلقي من هناك بمحلة أبي الهيثم، فاقتتلوا. فظفر بهم الأفشين وقتل صاحبهم أبا ثور اللخمي ومضى الأفشين أيضًا إلى دميرة فحاربهم في ذي القعدة سنة ست عشرة، فظفر بهم، وخرج عيسى بن منصور من الفسطاط إلى تمي، فقاتل أهلها، فانهزم أهل تمي. وأقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية فلقيه طائفة من بني مدلج بخربتا، فهزمهم، وأتوه أيضًا بمحلة الخلفاء، فهزمهم وأسر أكثرهم، فنزل بهم قرطسا، فضرب أعناقهم بها. وأتى الإسكندرية، فدخلها وهرب منه رؤساؤهم، وهم بحر بن علي اللخمي، وابن عقاب اللخمي. وكان رئيس جماعتهم معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج. وكان دخول الأفشين الإسكندرية لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة، ومضى الأفشين بعد فتح الإسكندرية إلى أهل البشرود، فكان موافقًا لهم وقد امتنعوا حتى قدم المأمون »(328).
ونلاحظ أن نتائج معارك الأفشين لم تكن نهائية وحاسمة منذ الجولة الأولى في القضاء على ثورات كثير من المناطق، ففي منطقة تمي اندلعت الثورة عدة مرات؛ ففي المرة الأولى خرج فيها أهل نتو وتمي من بلادهم وعسكروا بإشليم حيث قاتلهم الأفشين وبدا هناك منتصرًا. ويبدو أنه وثق بقوة جيشه حينما كسب تلك الجولة فأعاد عيسى بن منصور إلى الفسطاط خوفًا على أمن العاصمة، واقتطع جزءًا من جيشه وبعثه إلى الغربية ومضى هو إلى الشرقية، لكن العرب الثائرة من بني مدلج هزموا رجله عبد الله بن يزيد وطاردوه حتى اضطر للفرار إلى الإسكندرية والاحتماء بحصونها، وظل محاصرًا هناك .
وبينما جيش الأفشين يتجول في الناحية الشرقية ويقاتل من موقع إلى آخر «من محلة أبي الهيثم إلى دميرة قرب دمياط»، عادت ثورة تمي مرة أخرى فخرج إليهم جيش الوالي عيسى بن منصور من الفسطاط وهزمهم الهزيمة الثانية. ولم تسلم منطقة الحوف الشرقي للخلافة العباسية بسهولة، وخصوصًا زمن الخليفة المأمون، فسنجد ثورات عقب ثورات، وحروبًا تلي حروبًا بسبب زيادة الخراج ورفض العرب القيسية واليمانية لهذه الزيادات كما حدث في ثورة 194هـ، فقدم حاتم بن هرثمة والي مصر على رأس ألف رجل ونزل ببلبيس، «فصالحه أهل الحوف على أداء الخراج ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا صلحهم وثاروا عليه واجتمعوا على قتاله. فبعث إليهم جيشًا قاتلهم وأخمد ثورتهم. وانتقل حاتم من بلبيس إلى الفسطاط في شوال 194هـ ومعه مائة من الرهائن من أهل الحوف. وولى أبا إسحاق بن هارون الرشيد «المعتصم» ـ الذي ولاه أخوه الخليفة المأمون على الشام ومصر ـ صالح بن شيرزاد الخراج، فظلم الناس وزاد وعسف فانتفض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعزموا على قتاله فبعث عيسى بن يزيد الجلودي والي مصر ابنه في جيش لنصرة صاحب الخراج، فلقيه أهل الحوف ببلبيس في صفر 214هـ، فهزموه وقتلوا أصحابه،

ونجا هو هاربًا، فلما بلغ الخبر المعتصم عظم عليه وعزل الوالي وولى عوضه عمير بن الوليد التميمي فاستعد عمير للحرب، وأراد التفريق بين القيسية واليمنية من أهل الحوف فأرسل إلى القيسية عبد الله بن حليس الهلالي ليردهم إلى الطاعة ويبعدهم عن اليمانيين. ولكن ابن حليس انضم إليهم وزادهم تحريضًا على الوالي حتى جعلوه رئيسًا عليهم. فسار إليهم عمير في جيوشه لليمنية ينصحانهم ويرغبانهم. فلم ينههم ذلك عن الحرب وزحفوا إلى عمير ».

وهكذا كان الحوف الشرقي في ثورات متتالية، فبعد ثورة 194هـ التي أخمدها الوالي حاتم بن هرثمة، سنجد ثورة صفر 214هـ، ثم ثورة ثالثة في شعبان 214هـ في أثناء ولاية عيسى بن يزيد الجلودي الثانية، مما اضطر المعتصم إلى المجيء بنفسه «فقتلهم وقتل أكابرهم ووضع السيف في القيسية واليمنية حتى أفناهم »(329).

وأخيرًا، كانت ثورة 216هـ التي اضطرت الخليفة المأمون إلى المجيء بنفسه «فسخط على عيسى بن منصور، وأمر بحل لوائه بلباس البياض، وقال: لم يكن هذا الحدث العظيم ـ يقصد أحداث الثورة ـ إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد »(330).

فهل كان المأمون لا يعلم بأوضاع مصر غير المستقرة وهو الذي غير ولاتها حوالي عشر مرات في مدة قصيرة؟! وإذا كان لا يعلم، أفلم يسمع عن جيوشه التي جاءت لتحارب الثوار عدة مرات؟ أم أن الأمر لا يتعدى كون الخليفة كان يريد كبش فداء يضحي به أمام محكوميه، صحيح أن الخليفة المأمون كان قد ولى أخاه أبا إسحاق «المعتصم» الشام ومصر، وأن أبا إسحاق هو الذي كان يعين ولاة مصر بعد أن أصبحت إقطاعة المهدي إليه من الخليفة، ولذلك ربما يرى البعض أن الخليفة قد قطع وشائج اهتمامه بالأمور الداخلية لولاية مصر بعد أن أعطاها لأخيه طعمة، ولكن ضخامة الأحداث واتساع حجم الثورات ومجيء الجيوش من الشرق عدة مرات لإخمادها ينفي أن تكون ثورة 216هـ مفاجئة للخليفة الذي ادعى أنهم كتموا عنه الأخبار حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد، فكيف لا يعلم الخليفة أن والي مصر قد تغير عشر مرات وأن الثورة اندلعت في ربوعها أكثر من خمس مرات، وأنها شملت الحوف الشرقي وعمت الإسكندرية في الشمال وزحفت إلى الصعيد في الجنوب .

وهكذا تصدت ثلاثة جيوش لثورات مصر؛ فكان جيش المأمون يقاتل أهل الحوف، وجيش الأفشين يحاصر أهل البشرود، وجيش موسى بن إبراهيم ابن عم الخليفة يقاتل أهل الصعيد. ونجحت الجيوش الثلاثة في إخماد الثورات المصرية، وكان حكم المأمون في القبط يقضي «بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وسبي أكثرهم »(331).

ويقال إن المأمون كان قد استفتى في قبط مصر فقيهًا يقال له الحارث بن مسكين، وهو على مذهب الإمام مالك: «فقال: إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا تحل دماؤهم وأموالهم، فقال المأمون: أنت تيس ومالك أتيس منك، هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظُلموا تظلموا إلى الإمام، وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم. وأخرج المأمون رؤساءهم، فحملهم إلى بغداد »(332).

ويقول ابن إياس: «سبوا القبط وقتلوا مقاتلتهم وأبادوهم وقمعوا أهل الفساد من سائر أراضي مصر بعد أن قتلوا مقتلة عظيمة »(333).

وسياسة المأمون القاضية بضرورة قتل كل الخارجين على حكمه دون هوادة كانت عامة وشاملة؛ فبعد أن حكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال من الأقباط، وبعد أن انتصر جيشه الذي كان قد أرسله إلى الصعيد بقيادة ابن عمه موسى بن إبراهيم، أمر بأن يأتوا له بقائد ثورة الصعيد ابن عبيدس الفهري من طحا بصعيد مصر إلى سخا في أسفل الأرض وقتله هناك «وتتبع كل من يومئ إليه بخلاف، فقتله، فقتل ناسًا كثيرًا »(334).

ويروي الكوفي في «كتاب الفتوح» لحظة القبض على عبيدس الفهري بقوله: «أحدقت به الخيل من كل جانب، واشتعلت النار حواليه، فلما نظر إلى ذلك خرج هاربًا هو وأصحابه، فأُخذ أسيرًا ومعه أصحابه ».

وعوملت البشرود معاملة البلاد المفتوحة عنوة، حتى إن الطبري يتحدث عنها كما لو كانت من بلاد الأعاجم التي يدخلها جيش المسلمين للمرة الأولى فيقول: «قرئ كتاب فتحها لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر »(335).

ويبدو أن رياح الفتن قد انتقلت إلى حاشية الخليفة نفسه، حيث وشى محمد بن أبي العباس الطوسي وأحمد بن أبي داود بيحيى بن أكثم قاضي الخليفة ومفتيه، وبعد أن استمع المأمون إلى وشاية الواشين وأدرك مدى غضب أخيه أبي إسحاق المعتصم على هذا القاضي «فسخط عليه المأمون وأمر بنفيه من عسكره ونزع السواد عنه وأخرجه إلى بغداد وأمره أن لا يخرج من منزله فأخرج من مصر وأرسل موكلين به، وسخط أيضًا على عيسى بن منصور القائد الرافقي وأخرجه من عسكره، وكان السخط عليهما في يوم واحد. وكان مقام المأمون بمصر سبعة وأربعين يومًا، قدم لعشر خلون من المحرم، وخرج لثلاث بقين من صفر سنة 217هـ »(336).

وسكنت مصر على بحيرة الدم التي أريقت طوال هذه المدة، ولم يعد بها من مناوئ أو معارض «فلما خمدت هذه الفتنة، سرح المأمون في ضواحي مصر، فكان يقيم في كل قرية يومًا وليلة، ثم يرحل عنها، فكان إذا نزل بقرية، يضرب له سرادق من حرير، ويجلس على دكة من الأبنوس مطعمة بفضة، وينصب له عليها لواء من حرير أسود مرقوم بالذهب وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب »(337).

مارية الثانية: حقيقة أم خيال؟

بعد كل هذه الثورات الناتجة عن قسوة الجباة في جمع الضرائب والفاقة والبؤس الشديدين المحيطين بالفلاح المصري، تحدثنا بعض كتب التاريخ عن مارية أخرى، قبطية أيضًا، عاصرت وقت نزول الخليفة المأمون مصر في بداية القرن الثالث الهجري، وكان لها ولقريتها الصغيرة، المسماة طاء النمل أو طاه أنمل حكاية معه. وربما لا نجد لهذه القرية أثرًا في خرائط الجغرافيين المهتمة بالأقاليم والمدن والقرى الكبيرة فقط، كما لا نجد لها ذكرًا لدى ياقوت الحموي في «معجم البلدان» القديم، أو عند محمد رمزي في «قاموس البلدان المصرية» الحديث، ولضآلة هذا الشأن مر بها الخليفة المأمون، «فلم يدخلها لحقارتها»، كما يقول المقريزي في كتاب «المواعظ والاعتبار»: «فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها ».

ولأنه لا يعرف لغتها فلم يفهم سبب صياحها، إنها تتحدث باللغة القبطية على الرغم من كونها تعيش في القرن الثالث الهجري، والخليفة العربي ورجال دولته يعرفون أن شعب مصر القبطي وخصوصًا في القرى ما يزال متمسكًا بلسانه القبطي، ولذلك فقد كان المأمون يحتاط للأمر «ولا يمشي أبدًا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا له أن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين، نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف والعقبى ولا تشمت الأعداء بي، وبكت بكاءً كثيرًا؛ فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه إليها ونزل »(338).

عاد المأمون أدراجه ودخل قريتها هو ورجال دولته، ولكن هل تقدر تلك العجوز القبطية على استضافة الخليفة والجموع المصاحبة له؟ هذا ما لمح به المأمون لحاشيته حينما قال: «إن قريتها صغيرة لا تحمل العسكر، ولا تطيق هذه العجوز كلفتنا »(339).

وكانت القرى المصرية تضج قبل ذلك من كلفة الضيافة الإجبارية للجنود العرب، فما بالنا بكلفة استضافة الخليفة وحاشيته ورجال دولته وعساكره وهو الذي يبني له «بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله وكان يقيم في القرية يومًا وليلة»، كما يقول المقريزي، أو حسب تفصيل ابن إياس بأنه «كان إذا نزل بقرية يضرب له سرادق من حرير، ويجلس على دكة من الأبنوس مطعمة، وينصب له عليها لواء من حرير أسود، مرقوم بالذهب وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب ».

وبرغم هذه الحشود الرسمية وضآلة حجم القرية بالنسبة لها فقد أصرت العجوز على التمسك بالدعوة قائلة: «لا سبيل أن يتجاوز أمير المؤمنين قريتي، فعند ذلك ثنى المأمون عنان فرسه ونزل بقريتها، وضرب بها خيامه »(340).

فهل تستطيع أن تقوم بواجب الضيافة وتوفر له ما كانت تقدمه القرى الأخرى «من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة، وغير ذلك »(341).

وكالعادة تقدم رواية ابن إياس تفاصيل أكثر، فيقول :

فلما استقر بها ومن معه من المعسكر، جاء ولد تلك العجوز إلى صاحب المطبخ وقال له: اذكر لي ما تحتاج إليه من غنم، وبقر، ودجاج، وأفراخ السمك، وأوز، وسكر وعسل، وفستق، ولوز

وفاكهة، وحلوى، ومسك، وماورد، وشمع، وبقولات وغير ذلك مما جرت به عادة الخلفاء .
فلما ذكر له صاحب المطبخ ما تحتاج إليه فغاب ساعة يسيرة وأحضر له جميع ما يحتاج من تلك الأصناف التي ذكرها له، ثم أحضر لأقارب المأمون لكل واحد منهم ما يخص به على انفراده (342).
وأقارب المأمون المصاحبون له في تلك الجولة هم: «أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكثم ـ قبل أن يغضب عليه الخليفة ويبعده ـ والقاضي أحمد بن داود »(343) ، ومع كل واحد من هؤلاء حاشيته وأتباعه الكثيرون .
ومارية العجوز القبطية أحضرت لكل فيلق «ما يخصه على انفراد، ولم تكل أحدًا منهم ولا من القواد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئًا كثيرًا حتى إنه استعظم ذلك.
فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق، فلما عاينها المأمون من بُعد قال لمن حضر: قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناه والصبر.
فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته، فقالت: لا والله لا أفعل، فتأمل الذهب، فإذا به ضرب عام واحد كله، فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك. فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا، فقال: إن في بعض ما صنعت لكفاية، ولا نحب التثقيل عليك، فردي مالك بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين، هذا، وأشارت إلى الذهب، من هذا، وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا شيء كثير، فأمر به فأخذ منها، وأقطعها عدة ضياع، وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج، وانصرف متعجبًا من كبر مروءتها وسعة حالها »(344).
تلك هي قصة مارية القرن الثالث الهجري التي ذكرها المقريزي ونقلها عنه ابن إياس بتفصيل أكبر في بعض المواضع. أما المؤرخون الأقرب عهدًا من زمن حدوث الحكاية والمهتمون بالإشارة إلى ما يخص ثورات الأقباط وخصوصًا أحداث عام 216هـ وزيارة المأمون لمصر، مثل الكندي المتوفى عام 350هـ، فلا نجد لديه أي أثر عن هذه الحكاية الشبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة، كما لا نجد لها أثرًا أيضًا لدى المتأخرين من المؤرخين مثل السيوطي في كتابيه «تاريخ الخلفاء» و«حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» أو لدى ابن تغري بردي الأتابكي في كتابه المهم «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ».
وفي الحقيقة إن القصة التي ذكرها المقريزي وأفاض فيها ابن إياس تحتاج إلى بعض التأمل.
فحكاية مارية القبطية التي لم تخرج من قريتها، ولم تذهب إلى الحكام بل جاء إليها الخليفة تجعلنا نتساءل: كيف يعقل أن تمتلك كل هذا القدر من المال والذهب والمؤن في نفس الوقت الذي كانت كل القرى الأخرى تشكو الجوع والفاقة وفداحة استنزاف الجباة لثرواتها أولًا بأول؟ هل كانت قريتها قطعة منتزعة من خريطة العذاب والواقع على القرى الأخرى؟ أم أن العجوز وجدت كنزًا قررت بذله لرجال الدولة عن طيب خاطر؟ ولكنها تقرر في النص السابق أن هذا ـ مشيرة إلى الذهب ـ من هذا ـ مشيرة إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ـ مما ينفي فكرة العثور على كنز مفاجئ .
فهل أخرجت مدخراتها وخبيئة زمانها؟ وأنى لها الادخار في ظروف جعلت أقرانها يبيعون أولادهم نظير ما عليهم من خراج. ويكفي أن نقرأ وصف البطريرك ديونيسيوس بطريرك كنيسة

إنطاكية والذي كان يحظى بمنزلة عالية لدى الخليفة المأمون فاصطحبه معه في رحلته إلى مصر وليساعده في التقرب إلى أقباط مصر وتهدئة ثورتهم .
ويحكي ديونيسيوس عن مدينة تنيس وهي مدينة كبيرة نسبيًّا فيقول :
ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس فإني لم أرَ من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني :
إن مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعًا ولا تربية ماشية، والماء الذي نشربه يُجلب لنا من بعيد، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه، ونعطى على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة، ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، ومع ذلك نُضرب ونُسجن ونُلزم بإعطاء آبائنا وبناتنا رهائن، فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولدت عندهم امرأة طفلًا فإنهم يأخذون قسمنا بألا نطالب به، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء. فأجابهم البطريرك بأنه بحسب قانون العراق عليهم متى طلبت منهم الجزية أن يدفع الغني منهم ثمانية وأربعين درهمًا والمتوسط أربعة وعشرين والفقير اثني عشر درهمًا. وكانت الجزية تؤخذ مقسطة على ستة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين (345).
ومأساة مدينة تنيس تكررت في البلاد المصرية الأخرى مما دفع إلى الثورة العارمة، فكيف تُستثنى قرية مارية القبطية من تلك الظروف العامة، وحتى إذا سلمنا بملكيتها لتلال الذهب في الحكاية، لأسباب خارجة عن منطقنا المحدود أو بمقتضى التسليم بمبالغات المؤرخين فكيف تبذل ما تملك بتلك السهولة لملوك أبادوا إخوتها القبط في مواضع ثوراتهم، فليس سرًّا أن الخليفة المأمون لم يكن يتنزه هو وعساكره ورجال دولته في ربوع مصر من أجل التمتع بالخضرة الوارفة وتنسم الهواء العليل، ولم يكن في رحلة صيد كالتي نسمع عنها في حكايات ألف ليلة وليلة، وإنما كان في جولة تأديب للقطر المنشق عن طاعته في ثورات متتالية فشلت جيوش قواده في إخمادها فاضطر إلى أن يأتي بنفسه على رأس جيش كبير، بل ثلاثة جيوش بعث بأحدها إلى الصعيد والآخر إلى البشرود وتزعم الثالث بنفسه للقضاء على ثائري سخا .
وتفاصيل حكاية مارية وخلفياتها غير المنطقية تدفعنا إلى التساؤل :
هل كان كرمًا من مارية؟ أم هي الحيلة والدهاء؟
هل هي مبالغات المؤرخين وما أكثرها؟
أم هو عدم صحة الحكاية من الأصل؟
وأيًّا كانت الإجابة فغرابة القصة تأتي من مفارقتها للواقع القبطي العام في ذلك الحين وابتعادها عنه كل الابتعاد .

الكنيسة مع من؟ وضد من؟

ويظل موقف الكنيسة القبطية من ثورة الشعب القبطي يشكل علامة استفهام كبرى بلغت ذروتها في عام 216هـ مع ثورة البشموريين حيث لم يكتفِ البابا يوساب بأن «كتب إليهم كتبًا مملوءة خوفًا ويذكر لهم ما يحل بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم ويدعوا مقاومة السلطان فلم يرجعوا، فلم يفتر من مكاتبتهم كل يوم وكان يكتب إليهم فصولًا من الكتب ويقول: قال لسان العطر بولس كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله والذي يقاومه يدان »(346).

ولم يكتفِ البابا بهذه المكاتيب المحطمة لروح الشعب بل كان في طليعة المستقبلين للخليفة المأمون وجيش التأديب الوافد تحت إمرته، فيقول ساويروس بن المقفع :

لما علم الأب البطرك أنبا يوساب بوصول المأمون وصحبته بطرك أنطاكية جمع الأساقفة وسار إلى فسطاط مصر ليسلم عليه كما يجب للملوك. فلما عرفوه بوصول أنبا يوساب تقدم بدخوله إليه فلما حضر عنده قبله بفرح بنعمة الله الهالة عليه، ثم عرفه أنبا ديونوسيوس ـ بطرك أنطاكيا المقرب إلى المأمون والقادم معه من بغداد ـ إن أبانا لم يتأخر عن مكاتبته البشموريين وأردعهم أن لا يقاوموا أمرك، ففرح المأمون بهذا الأمر، ثم قال للبطرك أنبا يوساب: هو ذا أمرك أنت ورفيقك البطرك ديونوسيوس أن تمضيا إلى هؤلاء القوم وتردعاهم كما يجب في ناموسكما ليرجعوا عن خلافهم ويطيعوا أمري، فإن أجابوا فأنا أفعل معهم الخير في كل ما يطلبونه مني وإذا تمادوا على الخلاف فنحن بريئون من دمائهم .

ففعل أبوانا البطركان وسارا إلى البشموريين وسألاهم ثم نصحاهم ووبخاهم ليتخلوا عن أفعالهم، فلم يجيبوا ولا قبلوا سؤالهما، فعادا وأعلما المأمون بذلك، فأمر حينئذ المأمون الأفشين الأمير بأن يسير إليهم بعسكره وأن يقاتل البشموريين .

ومن الغريب ألا يسجل لنا التاريخ أي دفاع يفهم منه من قريب أو بعيد شبهة انحياز البابا يوساب إلى شعبه البشموري، بل إننا نجد دفاعًا صريحًا عنهم يأتي على لسان بطريرك الكنيسة الأنطاكية، وصمتًا مطبقًا من بابا الكنيسة المصرية، حينما تجرأ وذكر أمام المأمون بأن ثورة البشموريين كانت بسبب «ظلم متوليي الخراج وعنتهما وأعتابهما». فلما سمع منه المأمون هذا الكلام قال له: «اعفِ نفسك ولا تقم بمصر بعد هذه الساعة، إن سمع أخي إبراهيم فهو يقتلك ».

فالمأمون لم يبعثهما للتفاوض مع الشعب، وسماع شكواه ومظالمه لنقلها إليه، وإنما بعثهما بهدف استخدام سطوتهما الدينية لإخراس الناس، وحينما تجرأ بطريرك أنطاكية، وذكر سبب الظلم الواقع عليهم، غضب عليه ونفاه من فوره خارج مصر دفاعًا عن أخيه إبراهيم المسؤول عن تعيين جباة الخراج الظالمين. ولم تكد ثورة البشموريين أن تخمد والمأمون يرحل عن مصر، حتى انقلب الحكام على البطريرك برغم تعاونه، بعد أن جرد «أخو الأفشين سيفه ليأخذ رأس البطرك، فعند ذلك مالت يده فوقع السيف في عمود رخام وانكسر »(347).

ونجا البابا يوساب بالصدفة من محاولة القتل، ولكن أخا الأفشين «أخذه ليمضي به إلى أخيه كما أمره، وفيما هم يجذبونه ليخرجوه والشعب متعلق به، قال لهم: لا تمسكوني فما نحن مقاومون للسلطان. فخرج والشعب يتبعونه باكين يسجدون على رجليه ويديه ويظنون أنه يقتل، فلما نظرهم أخو الأمير يمسكونه غضب جدًّا ورفع يده وضربه بمقرعة على رأسه؛ فانجرحت عيناه، ودخل إلى الأفشين فخاطبه بما ينبغي. ولما علم المأمون الخبر من الواردين عليه أمر أن يكتب له سجل

بكرامته ورعايته أن لا يعترضه أحد في أحكامه ولا في من يرسمه أو يقطعه. ثم بعد ذلك أمر المأمون أن يطلب من بقي من البشموريين بكورة مصر وأن يسيروا إلى بغداد، فسيروا وأقاموا في الحبوس مدة كبيرة حتى أراد الله خلاصهم من يد إبراهيم الملك بعد أخيه. فمنهم من رجع إلى بلده ومنهم من بقي هناك ببغداد وأنشأوا بساتين وأقاموا هناك إلى اليوم وهم إلى اليوم ـ يقصد يوم كتابة تلك السطور من كتاب ساويروس ـ يسمون أهل البشروديين »(348). وربما كانت تلك الحادثة السبب في جعل ساويروس يفكر بأن المأمون «كان رجلًا حكيمًا في فعله ويبحث عن مذهبنا ويجلس عنده قوم حكماء يفسرون له كتبنا، وبهذا الحكم كان محبًّا للنصارى »(349).
لأننا إذا بحثنا عن سبب القول بحب المأمون للنصارى فلن نجد له أصلًا في حوادث البشموريين الذين لاقوا العذاب على يديه من قتل وبيع وسجن حتى إن بقاياهم لم تنعتق من السجن إلا بعد موت المأمون. وفي تاريخه لم يكن هناك تكريم لقبط مصر إلا حين أمر والي مصر بالإفراج عن البابا يوساب وأن «يكتب له سجل بكرامته ورعايته ».
وظل البابا يوساب يدعو شعبه في المواقع الأخرى بطاعة الخليفة حتى يأمن عقابه وبطشه، فحينما بدأ يهتم بأمر النوبة والحبشة كتب إليهم كتبًا تقول :
كانت خطيئتي تمنعني ألا أكاتبكم لأجل الحروب التي كانت بأرض مصر ومخالفة أهل البشروديين لأوامر الملك إلى أن قتلهم وأخرب مواضعهم وهدم بيعهم فوجدنا الوسيلة بهذه المكاتبة أن نعلمكم ما جرى ويجب الآن يا أحبائي أن تتموا ما يجب عليكم لهؤلاء الملوك، وإن كان لا يجب أن نأمركم بشيء من هذا فقد قاسيت عذابًا من إخوتي كما قاسى يوسف بن يعقوب من إخوته (350).
ومن المفارقات الطريفة أن اسم البابا يوساب الأصلي قبل دخوله الدير واندراجه في سلك الرهبنة كان يوسف، وهو نفس اسم المثال الذي شبه به نفسه في رسالته إلى ملك الحبشة، ولكن أي عذاب هذا الذي سببه له إخوته من القبط؟ بينما معذبوه كانوا من الحكام العرب الذين يطالب أبناءه بطاعتهم .
والتمثيل يكون أصدق لو رأى أن الشعب القبطي كله يوسف، وخصوصًا في حالة «يوسف» ملك النوبة المطلوب منه أداء خراج أربع عشرة سنة للخليفة الجديد، وهو المعتصم الآن بعد وفاة المأمون، وقد احتار ملك النوبة حينما وصلته رسالة البابا التي يطالبه فيها بإعطاء المعتصم ما يريد .
وجعل يتساءل: «ما الذي أصنع في ما التمس مني الملك، من يجمع لي بقط أربع عشرة سنة أنفسًا أنفذهم إليه ولا أتمكن من مفارقة كرسي لئلا يهلكوا البربر المخالفون لي »(351).
وظل الملك مهمومًا يفكر كيف يجمع بقط أربع عشرة سنة؟ ومن أين له بخمسة آلاف وأربعين رأسًا بشرية، عن كل سنة ثلاثمائة وستين حسب الاتفاق المفروض على ملك النوبة؟ واهتدى الملك الحيران إلى أن يبعث ابنه لمقابلة الخليفة الجديد في بغداد مرورًا بمصر والمسؤولين فيها أولًا لإيجاد وسيلة تخفف من حدة تلك الشروط .
وبعد انتهاء تلك المشكلة ظهرت مشكلة أخرى في عقر دار البابا حينما «أنفذ الملك إبراهيم أخا سلمويه بن بنان ـ طبيب المعتصم المقرب إليه ـ إلى مصر أن تؤخذ من البيع في كل مكان العمد والرخام »(352).
وكان الرجل القادم للقيام بهذه المهمة مسيحيًّا على مذهب النسطورية الخلقيدونية، فحسن له أتباع مذهبه المقيمون بمصر، أعمدة كنائس الإسكندرية وكنيسة ماري مينا بمريوط، «فلما نظر إليها

وإلى زينتها رأى حُسن ما فيها من العمد والرخام الملون، تعجب وبُهِت وقال هذا الذي يحتاج إليه الملك»، وبدأ فعلًا في تجريد الكنيسة من رخامها الملون وبلاطها النادر، «لأنه قائم من كل لون وليس له نظير ولا يعرف له ثمن »(353).
ولم يستطع الأنبا يوساب منع عملية تجريد الكنيسة من حليها، وكل ما فعله هو الحزن والبكاء، ثم إعادة تزيينها من جديد بحلي مستعار و«أحضر صفائح مزوقة من مصر والإسكندرية وبدأ يعمر المواضع التي قلع منها البلاط بكل زينة حسنة حتى إن كل من يشاهدها ما يعلم أن قد مضى منها شيء ».
ولم تكد تنتهي محنة تجريد الكنائس من زينتها حتى تصادف حدوث وباء عظيم على البهائم بمصر، «ولا يقدر أحد أن يمشي في الأزقة إلا بعد أن يسد أنفه من كثرة جيف الدواب، حتى إن الزرع انقطع وقلت الثمرة وكانت أرض مصر في حزن عظيم، ثم عاد الوباء على الناس وفنوا مثل البهائم »(354).
وليس أمام البابا إلا أن يبكي على شعبه .
وكان في مصر في ذلك الوقت والٍ اسمه علي بن يحيى الأرمني من قبل أبي إسحاق المعتصم بن هارون الرشيد أخي المأمون. و«بدأ يهدم بيع فسطاط مصر، فأول مبتدأ جاء إلى البيعة التي في قصر الشمع التي تسمى المعلقة فهدموا أعلاها حتى وصلوا إلى الأسطون ».
والبابا يبكي بيعته بدموع مرة، لكن الدموع لا تفيد شيئًا. بل كان غضب الوالي يتزايد وتهديده للبابا يوساب يتزايد أيضًا فيقول له : «ما أرفع الهدم عن البيع إلا بثلاثة آلاف دينار؛ فقلق الشعب والأساقفة الحاضرون معه وقالوا: يا أبانا لا يضيق صدرك نحن نقوم بهذا المال، فقسطه علينا لتسلم البيع ولا يلحقها شيء، فتقدموا الأراخنة إلى الوالي وضمنوا له القيام بثلاثة آلاف دينار فهدأ غضبه »(355).
ولم تكد تنتهي تلك المشكلة حتى ظهرت مشكلة جديدة أثارها القاضي المسلم ضد البابا يوساب بسبب ثمانية من الغلمان والعبيد قبلهم البابا كهدية من ملك الحبشة، وأدخلهم أحد كتاتيب الكنيسة ليتعلموا، فعلم القاضي بذلك وأخذهم ودارت مشادة كلامية طويلة بين القاضي والبابا بشأنهم لأنهم مسلمون في رأي القاضي ونصارى في اعتقاد البابا، وفي كل مناسبة كان يوساب يؤكد للقاضي: «أنا ما أقاوم أمر الملك ولا أقاوم كلمة صالحة»، وانتهى الأمر لصالح القاضي الذي أمر بقسمة الغلمان فاقتسمهم المسلمون. وكان لذلك القاضي رجل ينوب عنه بالإسكندرية وأعمالها، وكان أشر منه، وكان اسمه محمد بن بشير، فأنفذ القاضي قاضي الإسكندرية أن يحضر الأب القديس أنبا يوساب البطريرك ويحضر معه المطرانيين، فقال له لما حضر عنده: «قد أعلموني أن لك غلمانًا، الذين أمرك القاضي أن لا تقبلهم إليك دفعة أخرى، بعضهم عندك، وقد أعدتهم إلى ذمتك، فأجاب القديس وقال له: ما عندي شيء مما ذكر به، وإني لم أشاهد وجه واحد منهم من ذلك اليوم ».
ثم ظهرت محنة جديدة في السنة الثامنة عشرة من بطريركيته حينما «ولي على مدينة الإسكندرية أمير اسمه مالك بن ناصر الحدر، وكان إنسان سوء ظالمًا، فلما دخل المدينة بدأ أن يفعل سوءًا بكثير من الناس أكثر من الوالي الذي كان قبله فاعترض أصحاب الصنائع والتجار الكبار والبزازون والباعة، وتقدم إلى التجار الكبار والبزازين أن لا يبيعوا ويشتروا إلا حدًّا يحد لهم وعمل قياسًا كبيرًا »(356). وقد دخل هذا الأمير الظالم بيعة البطريرك مع سراريه، بل ودخل

مخدعه الذي ينام فيه البطاركة كل زمان، فطرد الأب منه وأدخل سراريه إليه وأكل معهن وشرب هناك ونام معهن فيه، ولم يكن أمام البابا إلا أن يبكي .
ثم أمر الأمير باعتقال البطريرك على إثر وشاية به أنه يكاتب ملوك الروم، وأنهم يبعثون إليه أموالًا كثيرة، وعول على عقوبته إلى أن يدفع له ألف دينار وهو صابر ولم يزل يهدده إلى أن استقر الحال على أربعمائة دينار، وفي اليوم السابع لحبسه حينما كان يزن الدنانير ليدفع الأربعمائة المطلوبة مات الوالي .
ولم يلبث أن اعتل البطريرك بعد ذلك بحمى، وفي اليوم السابع من مرضه تنيح؛ أي مات، بعد سلسلة طويلة من التسليم بإرادة الولاة وقواد الجيوش والخلفاء، حيث عاصر البابا يوساب أربعة خلفاء هم: المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل خلال مدة إقامته على الكرسي البابوي، وهي حوالي سبعة عشر عامًا وأحد عشر شهرًا، كان طوالها مثال البابا الخاضع لأوامر الحكام وسطوتهم، فهل كان فريدًا في ذلك، أم أنه سار على نفس سياسة سابقيه من بابوات الكنيسة المصرية منذ الفتح الإسلامي لمصر؟
وللإجابة عن ذلك سنعود إلى جذب طرف الخيط الأول مرة أخرى، وربما قبل ذلك بكثير .
فقد كانت الكنيسة منذ القرن الرابع الميلادي تملك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية التابعة للأديرة والبيع المختلفة، وعلى سبيل المثال كانت تمتلك غالبية أراضي أفروديتو ومساحات واسعة من أراضي أكسير نخوس وأنطونيوبوليس، وقد ذكر المؤرخون أكثر من عشرين ديرًا وكنيسة بأنطونيوبوليس فقط .
ويقال إن أكبر الأديرة بمصر دير أنطانيوس، «وهو يقع شرقي إطفيح من قبلي مصر، وهو على جبل عال، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة، وعليه حصن دائر، وداخل الحصن بستان كبير وفيه نخل مثمر، وأشجار تفاح وكمثرى ورمان وغير ذلك، وأرضه مزروعة بالبقول، وله ثلاث عيون ماء تجري دائمًا ويسقى منها البستان، ومن جملة البستان فدان وسدس كرم عنب، وقيل إن عدد نخيله ألف رأس نخل، وبه جوسق كبير وقلال للرهبان مطلة على البستان، وله بإطفيح أيضًا أملاك وبساتين »(357).
هذا بخلاف ما كانت تملكه الكنيسة في أسفل الأرض أو بحري البلاد، وفي الإسكندرية مقر الكرسي البابوي. وقد ظلت الكنيسة حريصة على أملاكها وأوقافها، في نفس الوقت الذي كانت هذه الأملاك محط أطماع الرومان والكنيسة الملكانية ومحل تنازع مستمر فيما بينهما .
ويذكر بعض الباحثين أن الكنيسة تمتعت «في القرن السادس بحق الجباية الذاتية فقامت بجمع الضرائب من مؤجري أرضها »(358).
وحينما دخلت الكنيسة القبطية في محنتها الكبرى أثناء اضطهاد قيرس الروماني لها، فر البابا بنيامين إلى أديرة الصعيد وكنائسها واختفى هناك، حيث كانت سلطة الكنيسة القبطية واسعة .
ثم جاء الفتح العربي لمصر، وتعاون بعض أغنياء القبط مع عمرو بن العاص وجيشه، ولعبوا دور همزة الوصل بين عمرو من جهة والكنيسة القبطية من جهة أخرى. ومن المعروف أن «الدوقس سنوتيوس» أو الرئيس شنودة كان من بين قواد الأسطول الروماني، وكان من أنصار الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وكان مخلصًا للبابا بنيامين. وتقرب الدوقس سنوتيوس أو الرئيس شنودة من عمرو بن العاص بتقديم خدمات كثيرة له ولجيشه من إصلاح الطرق والجسور وإمدادهم بالمراكب اللازمة للعبور وتعريفهم بأسرار الخريطة المصرية .

فلما استقر الحكم العربي في الإسكندرية قربه القائد عمرو إلى مجلسه فانتهز سنوتيوس الفرصة وأخذ بتمهيد السبيل لإعادة البابا بنيامين إلى كرسيه، ولما أطلع عمرو على جلية الأمر كتب أمانًا للبابا بنيامين وأقر عودته ليكون حر التصرف مطلق اليد في جميع بيعه وأديرته وأوقافه بل أعطاه إلى جانب ذلك حق التصرف في كثير من أملاك الكنيسة الملكانية وأوقافها بعد خروج الرومان من مصر .

وقد أحدث عمرو بن العاص معيارًا مزدوجًا في المعاملة واستخدمه استخدامًا سياسيًّا موفقًا حين أعطى للكنيسة امتيازات لم تكن تنتظرها أو تحلم بها في نفس الوقت الذي طبق فيه قانون جباية الجزية والخراج من جموع الشعب القبطي دون هوادة .

بل إن القبضة التي استخدمها عمرو في تشديد سيطرته على الشعب كانت قبطية بالدرجة الأولى بعد أن قرب أغنياء القبط إليه، وترك لهم أعمالهم على جاري عاداتهم، فظلوا الأعيان وسماهم «مقدمي القبط» واستخدم موازيت القرى أو المشرفين على جباية ضرائبها من القبط، وبذلك خلقت تلك الازدواجية التي قسمت الشعب القبطي ورسخت انقسامه .

الأراخنة... الأراخنة... سامحهم اللـه

وظل أغنياء القبط حلفاء للحكام العرب يلعبون دور التهدئة وتمرير السياسات. وإذا ما تتبعنا تجليات هذه العلاقة المعقدة بين الثالوث المقدس: الحكام العرب والكنيسة وأغنياء القبط من خلال كتابات ساويروس بن المقفع، فلن يصيبنا الحزن إلا على فقراء الشعب القبطي وقود الثورات وضحاياها في نفس الوقت. فمقدمو القبط عملوا في الدواوين والموازيت تحت عباءة الحكم العربي ورايته .

والكنيسة ظلت بحكمتها الأزلية القائلة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». وحكمة القديس بولس القائلة: «أعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الخوف لمن له الخوف، الإكرام لمن له الإكرام ».

وكل تعاليم الرسل القاضية بضرورة الصلاة «لأجل الملوك والذين لهم منصب». وفي أوقات تأزم العلاقة بين الكنيسة والحكام العرب يتدخل أغنياء القبط لحل الأزمة، ولما كانت محنة البابا ألكسندروس الثاني مع قرة بن شريك و«نهبه جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يدفع فيهن الدم الزكي جعلنا عوضًا من الذهب والفضة كاسات زجاج والدسقاب خشبًا »(359).

ولحل هذه المشكلة تقدم أرخن ذلك الزمان واسمه يؤنس وهو أحد أغنياء القبط و«رزقه الله قبولًا عند الولاة»، وطلب يؤنس من قرة أن يوليه أمر النصارى ليستخرج منهم الخراج فولاه على الأساقفة والرهبان. وعمل هذا الأرخن على قمع الاتجاهات المذهبية المخالفة للكنيسة القبطية .

وكان اختلاف الآراء الدينية شائعًا في أوساط بعض الرهبان فانتصر لرأي الكنيسة القبطية «وجمع كورة مصر جعلها إحادًا واحدًا وأمانة واحدة وأبطل سائر المقالات النجسات» كما يقول ساويروس بن المقفع .

وما لبث أن تلاشى الهدوء بتلاشي المال المدفوع إلى قرة بن شريك، وزادت شراهته فأحدث بدعة الاستيلاء على ميراث الأراخنة فكان «كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله، وكان قد مات صاحب ديوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتبًا من تنيس وجماعة لا يحصون من مصر. وأخذ مالهم حتى الأساقفة، أخذ ميراث الجميع »(360). والأكثر من ذلك هو صدور أمر نهب الثروات المعمارية للكنيسة «بأن تقلع من البيع العمد الملونة والرخام الذي في البيع ويحمل جميعه »(361) ، وكان الأب البطريرك حزينًا لأجل بيعته لأنها صارت خرابًا لأجل ما فعلوه معه وهو مع هذا يشكر الله ويصبر بشجاعة .

وحينما تولى أسامة بن زيد التنوخي بعد قرة أمر بتفتيش الأديرة ومراجعة كشوفها «فوجد فيها جماعة من الرهبان بغير حلق في أيديهم، فمنهم من ضربت رقبته، ومنهم من مات تحت السياط، ثم إنه سمر باب البيعة بالحديد وطلب منهم ألف دينار وجمع مقدمي الرهبان وعذبهم والتمس منهم عن كل واحد منهم دينارًا، وقال: متى لم تقوموا بذلك هدمت البيع وأخربتها وجعلتكم في مراكب الأسطول، فقلقوا الشيوخ الرهبان وتمنوا الموت »(362).

ولم تخرج الكنيسة القبطية من هذا المأزق إلا بموت الخليفة سليمان بن عبد الملك، وتولي عمر بن عبد العزيز الذي عزل والي مصر أسامة بن يزيد التنوخي و«أمر أن لا يكون على أواسي البيعة والأساقفة خراج، وبدأ أن يجعل البيع بغير خراج والأساقفة وأبطل الجبايات». في نفس الوقت الذي أمر فيه بأن «تؤخذ الجزية عن سائر الناس الذين لا يسلمون »(363).

ثم تولى عبيد الله بن الحبحاب ولاية مصر فبادر إلى وسم جميع الأقباط حتى إنه قبض على البطريرك نفسه ليسمه .
وكان البطريرك شديد الحزن رافضًا كل الرفض لوسمه بتلك العلامة ومات من شدة غمه. وقبض الوالي على مساعده الذي حاول الفرار معه من الوسم وطالبه بألف دينار نظير إطلاق سراحه، وجعل عسكره يعذبونه على مرأى من الناس أمام كنيسة ماري جرجس حتى جمع له الناس ثلاثمائة دينار وتوسط له رؤساء النصارى .
وفي ولاية حفص بن الوليد ذهب أراخنة مصر إلى البطريرك ينعون إليه نتيجة آخر إحصاء توصلوا إليه لعدد القبط المتحولين إلى الإسلام لقد «حضروا عنده وهم حزانى وقالوا له: يا أبانا صلِّ علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى الإسلام من إخوتنا من بني المعمودية من مصر وأعمالها على يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان، فقال لهم الأب: يا أولادي آمنوا أن في هذا الشهر تنظرون بأعينكم هذا الوالي الكافر حفصًا يحرق جسده بالنار في وسط فسطاط مصر ويقتل رجا بالسيف، فتمت نبوءة هذا الأب بسرعة »(364).
وكما نعلم من أحداث التاريخ فقد بعث الخليفة جيشًا بقيادة حوثرة وانتصر على المتمردين وأحرق حفص وقتل رجاء بالسيف .
وفي نفس زمن البابا خائيل تحايل بعض التجار الخلقيدونيين ودفعوا للخليفة مروان مالًا ليستردوا كنيسة أبي مينا بمريوط بحجة أنها كنيسة ملكانية وقد انتزعتها منهم الكنيسة القبطية. وأرسل الخليفة مروان بن محمد إلى والي مصر عبد الملك بن موسى بن نصير ليحقق في الأمر ويرى لمن تكون ملكية الكنيسة محل النزاع، فجمع الوالي ممثلي الطرفين ليناظرهم في الأمر .
فكان زحام شديد. أناس من كل مكان؛ قبط وملكانيون، قسس ورهبان، كتاب وأراخنة، «سادة ومسؤولون ورؤساء عائلات» من الصعيد ومن بحري، جموع كبيرة يحيط بهم عسكر وموالٍ، وهناك في المقدمة على سرير الملك جلس والي مصر عبد الملك بن موسى بن نصير وحوله حجابه وعساكره ورجال دولته وكتابه وقضاته وبعض أعيان العرب في مصر. أزياء مختلفة، ووجوه مختلفة، ضجيج عظيم ولا أحد يسمع شيئًا من كثرة الأصوات وتداخلها .
وقد دعا الوالي رجال الكنيستين في هذا المحفل أو تلك المناظرة ليحل مشكلة قديمة تعود إلى بداية الفتح العربي لمصر، وقد سبق هذا الجمع تحقيق استمر حوالي الأربعين يومًا، أوكل خلالها الوالي إلى صاحب ديوانه ويدعى عيسى بن عامر أمر النظر في تلك القضية الشائكة، وحاول الملكانيون رشوة عيسى بن عامر وحملوا إليه الهدايا ليساعدهم فيما يلتمسونه، أما البطريرك القبطي البابا خائيل فكتب رسالة تثبت حق كنيسته في بيعة أبي مينا بمريوط وسلمها لعيسى، وقد مال عيسى هذا مع الملكانيين بسبب ما قدموه له من هدايا، ورفض البطريرك القبطي دفع رشوة، وما لبث عيسى بن عامر أن عُزل عن أمور الديوان وتولى مكانه رجل يدعى أبا الحسين، فأنصف البطريرك القبطي وحكم له. لكن الحكم لم يعجب الملكانيين فرفعوا أمرهم مرة أخرى للوالي الذي دعا الجميع إلى ذلك المحفل في قصره. ويقول ساويروس :
حضرنا جميعًا بعد هذا عند الملك وكان قد كتب ذلك اليوم كتابًا إلى مصر وأعمالها يأمر أن يجمع إليه الكتاب والأراخنة من كل بلد، وأحضرهم، وكان القصر مشحونًا بالناس حفلًا، حتى لم يكن أحد يسمع شيئًا من كثرة الأصوات، فدخلنا نحن أيضًا وحولنا خلق كثير فلما جلسنا انفرد قسطنطين الأسقف عنهم ـ يقصد عن الجانب الملكاني ـ وجلس مع أساقفتنا وسألهم أن يقبلوه ويشركوه معهم

ويعطوه كرسيه، وكانت الجموع وأهل البلاد حولنا متطلعين لمعرفة ما يستقر وينظرون أساقفة الأرثوذكسيين والخلقيدونيين فوثبوا قوم من الصعيديين ـ قبط الصعيد ـ على قسطنطين لما علموا أنه خلقيدوني ليطردوه حتى رموا الأساقفة الأرثوذكس شيئًا من لباسهم وأخلطوه معهم وإلا كادوا الصعيديون يقتلونه، ثم صرخوا الصعيديون قائلين أبعدوا الذئاب من وسط الخراف، اهربوا من السباع الضارية المفترسة للنفوس، اطردوا الثعالب الذين يهلكون كرم رب صبآووت، أبعدوا يودس من وسط تلاميذ المسيح لا تجعلوا ثيابكم تخلط بهؤلاء الأنجاس يا عبيد المسيح، فعند ذلك اختفى قسما إلى أن زال غضبهم .

ثم حضر للوقت الأرخن متولي الإسكندرية إبراهيم الماحكي لأنه كان جالسًا في ناحية من القصر ومعه جماعة من الهراطقة، فجروا وأرادوا الهرب، وأن رجلًا من أهل دمياط كان شريرًا جدًّا فخاطبته أنا الخاطئ بكلمة سمعتها فوثب في وسط الجماعة ووقف وشتمني وجدف على الثالوث المقدس، فحينئذ شاهدته وكل الحاضرين قد انشق الثوب الذي عليه من فوق إلى أسفل على ثلاث قطع فصرخ كل من في القصر المسلمون والنصارى : لا أمانة إلا أمانة الأب أنبا خائيل، وكان صراخًا عظيمًا في القصر، وسعوا الناس لينظروا ما قد كان حتى إن الناس والعسكرية من كثرة زحامهم نالهم جراح وقتال؛ فأمر عبد الملك بإخراج كل من في القصر (365).

وهكذا فشلت المناظرة وكادت أن تنقلب إلى حرب ضروس بين الطرفين لولا سيطرة عسكر الوالي على الموقف وإخراجهم لكل من في القصر .

وقد قصدت تقديم نص ساويروس لتوضيح صورة أول مؤتمر يجمع بين المذاهب المتصارعة على ملكيتها للكنائس، ومن خلف كل جانب أغنياء يدفعون الصراع ويؤججونه، وحينما أعلن أحد القساوسة الملكانيين رغبته في الدخول تحت عباءة الكنيسة القبطية، أراد إبراهيم الماحكي الانسحاب ومعه فريق من الملكانيين الذين يسميهم ساويروس الهراطقة. وينفض المؤتمر دون حل وتعود القضية على قاضي البلاد المسلم لينظر في دعاوى الجانبين بعد أن أمره الوالي «أن يفصل النوبة، وقال أنجز حالهم ودعهم أن يمضوا ».

وبعد سماع الطرفين واستقصاء مدى صحة كلامهما سلم البيعة للأنبا خائيل فعادت كنيسة أبي مينا بمريوط إلى الرعايا القبطية. ولم تكد تمضي فترة قصيرة حتى قبض الوالي على الأنبا خائيل بطريرك القبط حتى يوفي بالخراج الواجب على كنائسه، وتوالت أحداث سقوط الدولة الأموية ونزل الستار على آخر فصولها والخليفة ينتف شعر البابا ويعذبه على مرأى ومشهد من الجيش العباسي الوافد على الضفة الأخرى من النهر وبصحبته أراخنة القبط ومقدموهم يفتحون لهم الطريق ويمدونهم بالسفن ويعرفونهم أسرار الخريطة المصرية أيضًا .

ملحق 1

تصحيح خطأ في رواية «البشموري »

للكاتبة سلوى بكر

في رواية «البشموري» تخلط سلوى بكر بين ثورة البشموريين، التي حدثت في زمن البابا خائيل، وهو البابا رقم 46 في الكنيسة المصرية، وقد جلس على كرسي البطريركية منذ 14 سبتمبر 743م وحتى وفاته في 12 مارس 767م، فكانت مدة إقامته على الكرسي حوالي ثلاثة وعشرين عامًا ونصف العام، عاصر خلالها من الخلفاء: هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وزيد بن الوليد وإبراهيم ومروان وعبد الله أبي العباس السفاح وأبا جعفر المنصور ـ وبين ثورة البشامرة التي

حدثت في زمن البابا يوساب، وهو البابا رقم 52 في تاريخ الكنيسة القبطية، وقد تولى منذ 18 نوفمبر 831م حتى 20 أكتوبر 849م. وكانت مدة إقامته على الكرسي سبعة عشر عامًا وأحد عشر شهرًا عاصر خلالها من الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .
وقد اختلطت ثورة البشموريين على الكثير من الباحثين بسبب اشتعالها عدة مرات في نفس المنطقة والمناطق المحيطة بها .
وقد وقعت سلوى بكر في نفس الخطأ حينما جعلت مينا بن بقيرة زعيم ثورة البشموريين في أثناء ولاية البابا خائيل على كرسي البطريركية، هو نفسه زعيمًا لثورة البشموريين في عهد البابا يوساب .
ولا يخفى علينا أن الأولى قد تزامنت مع أحداث سقوط الدولة الأموية وبداية تأسيس الدولة العباسية. بينما ثورة البشموريين المعاصرة للبابا يوساب لم يكن يتزعمها بشموري بهذا الاسم. كما اختلفت أحداثها عن الأحداث الأخرى المعاصرة للبابا خائيل .
فبينما كانت ثورة البشموريين بقيادة مينا بن بقيرة في عهد البابا خائيل ضد الدولة الأموية، وخليفتها مروان بن محمد، وقائد جيوشه المدعو كوزارا أو الحوثرة الذي قبض على الأب خائيل وقال له: «كيف مكنت أولادك النصارى ـ يعني البشامرة ـ أن يقاتلوا » وحمله نتيجة الثورة فسجنه وطالبه بالأموال وعذبه بأن جعل رجليه في طوبة حديد. ثم فكر الحوثرة بعد ذلك في استخدام البابا خائيل لمكاتبة البشموريين وإقناعهم بالتراجع عن الثورة، فحمله معه إلى رشيد وأمره بأن يكتب لهم ويقول: إن كل ما حل به من سجن وتعذيب كان بسبب ثورتهم. فاستشاط البشامرة وضاعفوا ثورتهم ضد آخر جيش أموي، في نفس الوقت الذي كانت انهيارات الدولة الأموية تتوالى بسرعة مذهلة، وتنتهي بفرار الخليفة مروان بن محمد إلى مصر وإحراق الفسطاط كما رأينا .
واندفع البشامرة في مساعدة الجيش العباسي فأمدوهم بالمراكب وبالمعونة ليتمكنوا من القضاء على الخليفة الأموي القابض على البطريرك خائيل... «وكانوا البشامرة قد لقوهم من الفرما وقالوا للخراسانيين: إن بطركنا قد أخذه مروان ليقتله بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم ».

ملحق 2

الموقع الجغرافي لبلاد البشموريين

حينما نذكر البشموريين يجب أن نسأل أين تقع بلاد البشموريين على وجه التحديد؟ خصوصًا وقد اختلف المؤرخون والباحثون وتضاربوا بشأن موقعها واسم سكانها. فعلى حين يسميهم اليعقوبي ـ المتوفى بعد سنة 292هـ ـ أهل البشرود في موضع، وفي موضع آخر يقول إن البيما هم قبط البشرود، ثم يذكر البشرود ضمن كفور أسفل الأرض. يذكر ابن عبد الحكم صاحب «فتوح مصر» أن الخيس من البيما ظلوا يقاتلون الناس سنين بعد ما فتحت مصر. الكندي أيضًا يسميهم أهل البشرود كما يتفق معه المقريزي في استخدام الاسم نفسه، وكذلك ساويروس بن المقفع حيث يقول «البشموريون وهم إلى اليوم يسمون البشروديين ».
ويحدد ياقوت الحموي موقع البشمور على كورة دمياط وأن فيها قرى وريفًا وغياضًا وفيها كباشًا ليس في الدنيا مثلها عظمًا وحسنًا. ويعود في موضع آخر ليذكرها باسم البشرود قائلًا إنها كورة من كور بطن الريف بمصر، كذلك يفعل القزويني صاحب كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد»، حينما يقول: البشمور هي كورة بمصر بها قرى وريف وغياض، وبها كباش ليس في جميع البلاد مثلها عظمًا وحسنًا. ويذكرها البكري الأندلسي دون تحديد مكان لها على وجه التحديد ولكنه ينسب إليها

قول أبي تمام، الشاعر العباسي المشهور، في هجاء بعض الناس وتذكيرهم بأصل يبدو في رأيه وضيعًا حيث يقول :

ونسيت سوء فعالكم نسيانكم أساسكم في كورة البشرود

ويضعها القلقشندي في الجزيرة الواقعة بين فرقتي النيل الشرقية والغربية، والحاوية خمس كور: فهي تجاور كورة دمسيس ومنوف وكورة طوة ومنوف وكورة سخا وكورة نقيرة وديصا وهي الكورة الخامسة إلى جوارها ثم يذكر أنها من الأسماء التي جهلت، أما أبو الفدا في كتاب «تقويم البلدان » فيحدد موقعها فيما بين نيل أشموم طناح وهو الشرقي، ونيل دمياط وهو الغربي، وما بين هذين النيلين جزيرة يقال لها البشمور، وفي موضع آخر يحدد عاصمة البشمور بأنها أشموم طناح أو أشموم الرما، ويسميها العامة الآن أشمون الرمان، التي هي قصبة ـ أي عاصمة ـ كورة الدقهلية وقصبة البشمور أيضًا .
ويشاركه الأسعد بن مماتي في كتاب «قوانين الدواوين» تحديد موقع البشمور في الدقهلية.
وساويروس يقول إنها على مسيرة يومين من رشيد، ويذكر أهلها حينًا باسم البشموريين وحينًا باسم البشروديين. وكذلك المقريزي يسميهم أهل البشرود .
فالقدماء يجمعهم الميل إلى ذكرها ضمن الحوف الشرقي بالقرب من بحيرة المنزلة ودمياط وتنيس عمومًا والدقهلة خصوصًا، أما الباحثون المحدثون فيرون مكانها بوضوح أحيانًا وتغيب عنهم الرؤية أحيانًا أخرى، فيذكر علي باشا مبارك في كتاب «نخبة الفكر في تدبير نيل مصر » بلادًا تعرف بالبشمور عند بحرويش وفي قبليه بقليل مدينة سمنود، وكان يمر بأسفل بلاد الغربية في بلاد تعرف بالبشمور ويصب في المالح عند مدينة بوطو القديمة، وفي موضع آخر يقول إن بحرويش هذا الذي تقع عليه البشمور يستمر إلى المنصورة أو قربها، فينقسم إلى البحر الصغير وبحر دمياط.
أما محمد رمزي فيقول في «القاموس الجغرافي» إنه بعد بحثه عن موقع البشرود تبين له أنها كانت كفر الشيخ بمديرية الغربية ويدل عليها حوض البشرود رقم 11 المحرف عن البشرود بأراضي الناحية المذكورة، ثم يقول إن البشمور كان يطلق قديمًا على إقليم من أخصب الأقاليم في شمال مصر شرقي الدلتا ويسميه اليونان Bucolies(366) ، وورد في «معجم البلدان»: «البشمور كورة بمصر قرب دمياط». وفي «الانتصار»: «البشمور من نواحي أعمال الدقهلية»، وفي «تاج العروس» نفسها: «البشمور قرية بالدقهلية ».
وبالبحث عن موقع هذا الإقليم تبين لي ـ محمد رمزي ـ أنه كان يشمل منطقة الأراضي الزراعية التي تقع اليوم بين فرع النيل الشرقي وهو فرع دمياط، وبين البحر الصغير بمديرية الدقهلية، وذلك في المسافة الواقعة على فرع دمياط بين قرية محلة أنشاق وقرية السرو بمركز فارسكور، وفي المسافة الواقعة على البحر الصغير بين قرية القباب الكبرى وقرية برمبال القديمة بمركز دكرنس، وفي عهد دولة المماليك كان البشمور يطلق على أرض زراعية ذات وحدة مالية وقد ألغيت هذه الوحدة وأضيف زمامها إلى أراضي ناحية دكرنس بمديرية الدقهلية، ويدل على موقع هذه الوحدة حوض البشمور رقم 322 بأراضي ناحية دكرنس المذكورة (367).
وبذلك يفرق محمد رمزي بين البشرود ويضعها في كفر الشيخ، والبشمور ويتركها في الدقهلية قرب دمياط، بعكس ما اتفق عليه القدماء من أنهما شيء واحد .
وقد استقى بعض المحدثين معلوماتهم من «القاموس الجغرافي» لمحمد رمزي دون تحقيق تلك المعلومات، فيذكر الدكتور حسين نصار، على سبيل المثال، في هامش كتاب «ولاة مصر» الذي

قام بتحقيقه للكندي، أن البشرود: كورة كانت في أراضي ناحية سيدي غازي (الكفر الغربي سابقًا) بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ويدل عليها حوض البشرود، وبذلك يضع البشرود في الغرب مع من وضعوها غربًا. أما الدكتور حسين مؤنس فيذكر في «أطلس تاريخ الإسلام» أن أهل البشرود هم أهل منطقة المنزلة في الشرق ـ لكننا نجد ضمن خرائط الأطلس خريطة بها حوض البشمور واقعًا بين رشيد وإسكندرية غربًا متفقًا في ذلك مع خريطة وردت في كتاب: «تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي» لأبي المكارم الذي يُنسب خطأ لأبي صالح الأرمني ـ ويقع جاك تاجر (368) في خطأ أكبر حينما يعرف أراضي البشموريين بأنها «أرض واقعة على مستنقعات يزرع فيها الغاب بين الإسكندرية ورشيد بالقرب من بحيرة إدكو» وربما يعود مصدر خطئه إلى الاعتماد على كلام سعيد بن البطريق (369) الذي يمعن في الخطأ في حديث عن أصل البشموريين بأنهم «سلالة أربعين يونانيًّا بقوا في مصر بعد انتصار العرب ثم نما عددهم بالتزاوج»، وسوف يسقط هذا الزعم عن الأصل التاريخي حينما نستعرض تاريخ ثورات المنطقة .

ويحاول بعض الباحثين التخلص من مأزق تحديد موقع البشموريين في شرق مصر أو غربها بتوسيع القاعدة حتى تشمل كلا الأرضين، فيقول حجاجي إبراهيم محمد في كتاب «مقدمة في العمارة القبطية الدفاعية»: «آثار أهل البشمور بين دمياط ورشيد»، وبذلك يجعلها تشمل كل المساحة الواقعة بين بحيرتي المنزلة شرقًا والبرلس غربًا .

وكذلك الأمر لدى الدكتور عبد المنعم ماجد (370) حيث يقول «البشمور قرب دمياط على ساحل الدلتا بين فرعي رشيد ودمياط»، فيحدها بحدود الساحل بين البحيرتين . وصحيح الأمر هو الإجماع التاريخي الأول لساويروس بن المقفع الذي يرى أنها إلى الشرق من رشيد بمسافة يومين، وهو الزمن نفسه الذي حدده الإدريسي للمسافة بين دمياط ورشيد في السفر : يومين. والأسعد بن مماتي الذي فاق الجميع في تحديد عاصمتها بأشمون الرمان فيتأكد بذلك أن البشمور هي أراضي الدقهلية وما جاورها من الجمالية والمطرية .

وهي منطقة ثورات قديمة بدأت قبل دخول العرب مصر ـ كما ذكر الدكتور مصطفى العبادي في بحثه عن الأرض والفلاح في مصر الرومانية ـ حينما «لجأ آلاف من سكان الريف إلى الاعتصام في مستنقعات شمال الدلتا وأحراشها، وذلك في سنة 172م في عصر الإمبراطور ماركوس أوريليوس، واضطرت الإدارة الرومانية إلى الاستعانة بالجيش من أجل القضاء على الثورة التي أوشكت أن تستولي على الإسكندرية ذاتها »(371).

ونجد في كتاب «فتوح مصر وأخبارها» لابن عبد الحكم أن البيما ـ وهو اسم ثالث يطلق على قبط البشرود ـ ظلوا يقاتلون الجيش العربي سبع سنين بعد فتح مصر وسيطرة عمرو بن العاص عليها وعلى عاصمتها. فيقول: «وأقامت الخيس من البيما يقاتلون الناس سبع سنين بعد ما فتحت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض ».

ملحق 3

جدول ولاة مصر في الدولة العباسية

حسب كتاب الكندي

اسم الوالي	الخليفة / الوالي	تاريخ الولاية

صالح بن علي	من قبل أبي العباس السفاح	133هـ
أبو عون عبد الملك بن يزيد	باستخلاف صالح بن علي	133هـ
صالح بن علي / الثانية	من قبل أبي العباس السفاح	136هـ
أبو عون عبد الله بن يزيد / الثانية	باستخلاف صالح بن علي	137هـ
موسى بن كعب	من قبل أبي جعفر المنصور	141هـ
محمد بن الأشعث	من قبل أبي جعفر المنصور	141هـ
حميد بن قحطبة	من قبل أبي جعفر المنصور	143هـ
يزيد بن حاتم	من قبل أبي جعفر المنصور	144هـ
عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	من قبل أبي جعفر المنصور	152هـ
محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	باستخلاف أخيه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، فأقره أبو جعفر المنصور	155هـ
موسى بن علي بن رباح اللخمي	باستخلاف محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، فأقره أبو جعفر المنصور	155هـ
عيسى بن لقمان الجمحي	من قبل المهدي	161هـ
واضح مولى أبي جعفر	من قبل المهدي	162هـ
منصور بن يزيد بن منصور الرعيني	من قبل المهدي	162هـ
يحيى بن داود الخرسي	من قبل المهدي	162هـ
سالم بن سوادة التميمي	من قبل المهدي	164هـ
إبراهيم بن صالح العباسي	من قبل المهدي	165هـ
موسى بن مصعب الخثعمي	من قبل المهدي	167هـ
عسامة بن عمرو المعافري	باستخلاف موسى بن مصعب الخثعمي	168هـ
الفضل بن علي العباسي	من قبل المهدي	169هـ
علي بن سليمان العباسي	من قبل موسى الهادي	169هـ
موسى بن عيسى العباسي	من قبل هارون الرشيد	171هـ
مسلمة بن يحيى البجلي	من قبل هارون الرشيد	172هـ
محمد بن زهير الأزدي	من قبل هارون الرشيد	173هـ
داود بن يزيد المهلبي	من قبل هارون الرشيد	174هـ
موسى بن عيسى العباسي / الثانية	من قبل هارون الرشيد	175هـ

إبراهيم بن صالح العباسي / الثانية	من قبل هارون الرشيد	176هـ
عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي	من قبل هارون الرشيد	176هـ
إسحق بن سليمان	من قبل هارون الرشيد	177هـ
هرثمة بن أعين	من قبل هارون الرشيد	178هـ
عبد الملك بن صالح بن علي العباسي	من قبل هارون الرشيد	178هـ
عبيد الله بن المهدي العباسي	من قبل هارون الرشيد	179هـ
موسى بن عيسى العباسي / الثالثة	من قبل هارون الرشيد	180هـ
عبيد الله بن المهدي العباسي / الثانية	من قبل هارون الرشيد	180هـ
إسماعيل بن صالح العباسي	من قبل هارون الرشيد	181هـ
إسماعيل بن عيسى العباسي	من قبل هارون الرشيد	182هـ
الليث بن الفضل	من قبل هارون الرشيد	182هـ
أحمد بن إسماعيل العباسي	من قبل هارون الرشيد	187هـ
عبد الله بن محمد العباسي	من قبل هارون الرشيد	189هـ
الحسين بن جميل	من قبل هارون الرشيد	190هـ
مالك بن دلهم الكلبي	من قبل هارون الرشيد	192هـ
الحسن بن التختاخ	من قبل هارون الرشيد	193هـ
حاتم بن هرثمة بن أعين	من قبل الأمين	194هـ
جابر بن الأشعث الطائي	من قبل الأمين	195هـ
عباد بن محمد بن حيان	من قبل المأمون	196هـ
المطلب بن عبد الله الخزاعي	من قبل المأمون	198هـ
العباس بن موسى بن عيسى العباسي	من قبل المأمون	198هـ
المطلب بن عبد الله الخزاعي / الثانية	بإجماع الجند عليه	199هـ
السري بن الحكم	بإجماع الجند عليه	200هـ
سليمان بن غالب بن جبريل البجلي	بايعه الجند	201هـ

السري بن الحكم / الثانية	من قبل المأمون	201هـ
أبو النصر بن السري	بايعه الجند	205هـ
عبيد الله بن السري	بايعه الجند	206هـ
عبد الله بن طاهر	من قبل المأمون	210هـ
عيسى بن يزيد الجلودي	باستخلاف عبد الله بن طاهر، ثم من قبل أبي إسحاق بن الرشيد	213هـ
عمير بن الوليد	باستخلاف أبي إسحاق بن الرشيد	214هـ
عيسى بن يزيد الجلودي / الثانية	باستخلاف أبي إسحاق بن الرشيد	214هـ
عبدوية بن حبلة	من قبل أبي إسحاق بن الرشيد	215هـ
عيسى بن منصور	من قبل أبي إسحاق بن الرشيد	216هـ

ملحق 4

جدول قضاة مصر في الدولة العباسية

حسب كتاب الكندي

اسم القاضي	في عهد الوالي / الخليفة	تاريخ الولاية
خير بن نعيم / الثانية	من قبل أبي عون عبد الملك بن يزيد	133هـ
غوث بن سليمان الحضرمي	من قبل أبي عون عبد الملك بن يزيد	135هـ
يزيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن بلال	خلف غوث على القضاء خلال مدة غيابه للصائفة	140هـ
غوث بن سليمان الحضرمي / الثانية	عاد بعد موت ابن بلال	140هـ
أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد	من قبل يزيد بن حاتم	144هـ
عبد الله بن لهيعة الحضرمي	من قبل أبو جعفر المنصور	155هـ
إسماعيل بن اليسع الكندي	من قبل المهدي	164هـ
غوث بن سليمان الحضرمي / الثالثة	من قبل المهدي	167هـ
المفضل بن فضالة	من قبل موسى بن مصعب	168هـ
أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الأنصاري الأعرج	من قبل الهادي	170هـ
المفضل بن فضالة / الثانية	من قبل داود بن يزيد بن حاتم المهلبي	174هـ
محمد بن مسروق الكندي	من قبل هارون الرشيد	177هـ
إسحاق بن الفرات	استخلفه محمد بن مسروق الكندي حتى سنة 185هـ	184هـ

عبد الرحمن العمري	من قبل هارون الرشيد	185هـ
هاشم بن أبي بكر البكري	من قبل الأمير	194هـ
إبراهيم بن البكاء	من قبل جابر بن الأشعث	196هـ
لهيعة بن عيسى الحضرمي	من قبل عباد بن محمد	196هـ
الفضل بن غانم	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي	198هـ
لهيعة بن عيسى الحضرمي / الثانية	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي	199هـ
إبراهيم بن إسحاق القاري	من قبل السري بن الحكم	204هـ
إبراهيم بن الجراح	من قبل السري بن الحكم	205هـ
عيسى بن المكندر	من قبل عبد الله بن طاهر	212هـ
هارون بن عبد الله	من قبل المأمون	217هـ

ملحـــــق 5

جدول بطاركة الإسكندرية الذين عاصروا الفتح العربي لمصر حتى الدولة العباسية

(من كتاب تاريخ وجداول بطاركة الإسكندرية القبط وجدول عام جامع بين أقوال المتقدمين)

اسم البابا			تاريخ التقدمة		تاريخ النياحة		مدة خلو الكرسي	مركز الرئاسة	الحكام المعاصرون
رقم البابا	الاسم	اللقب	تاريخ الشهداء	تاريخ الميلاد	تاريخ الشهداء	تاريخ الميلاد	يوم شهر سنة		
38	بنيامين الأول	-	9 طوبة 339	4 يناير 623	8 طوبة 378	3 يناير 663	6 - -	دير متراس بالإسكندرية	هيرقل الأول، هرقل الثاني، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، على بن أبي طالب، الحسن بن علي، معاوية بن أبي سفيان
39	أغاثون	ولد بنيامين	14 طوبة 378	9 يناير 663	16 بابة 397	13 أكتوبر 680	14 1 -	المرقسية بالإسكندرية	معاوية بن أبي سفيان
40	يوحنا	يوحنا	أول	27	أول كيهك	27	7 1 -	المرقسية	معاوية بن

	الثالث	السمنودي	كيهك 397	نوفمبر 680	406	نوفمبر 689		بالإسكندرية	أبي سفيان، يزيد بن معاوية، معاوية بن يزيد، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان
41	إسحق	-	8 طوبة 406	3 يناير 690	9 هاتور 409	5 نوفمبر 692	1 14 -	المرقسية بالإسكندرية	عبد الملك بن مروان
42	سيمون الأول	سيمون السرياني	23 كيهك 409	19 ديسمبر 692	24 أبيب 416	18 يوليو 700	3 9 7	المرقسية بالإسكندرية	عبد الملك بن مروان
43	ألكسندروس الثاني	-	30 برمودة 420	25 أبريل 704	7 أمشير 445	أول فبراير 729	1 23 -	المرقسية بالإسكندرية	عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك
44	قسما الأول	-	30 برمهات 445	26 مارس 729	30 بؤونة 446	24 يونيو 730	- - -	المرقسية بالإسكندرية	هشام بن عبد الملك
45	تاودروس	-	أول أبيب 446	25 يونيو 730	7 أمشير 458	أول فبراير 742	7 13 1	المرقسية بالإسكندرية	هشام بن عبد الملك
46	خائيل الأول	خائيل الأخير	17 توت	14 سبتمبر	16 برمهات	12 مارس	15 - -	دير الزجاج ثم المرقسية	هشام بن عبد الملك،

			460	743	483	767		بالإسكندرية	الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد، أبو العباس السفاح، أبو جعفر المنصور
47	مينا الأول	-	أول برمودة 483	27 مارس 767	30 طوبة 492	26 يناير 776	16 11 -	المرقسية بالإسكندرية	أبو جعفر المنصور، المهدي
48	يوحنا الرابع	-	17 طوبة 493	12 يناير 777	16 طوبة 515	11 يناير 799	15 - -	المرقسية بالإسكندرية	المهدي، الهادي، هارون الرشيد
49	مرقس الثاني	مرقس الجديد	2 أمشير 515	26 يناير 799	22 برمودة 535	17 أبريل 819	12 - -	المرقسية بالإسكندرية	هارون الرشيد، الأمين، المأمون
50	يعقوب	العمود المضيء	4 بشنس 535	29 أبريل 819	14 أمشير 546	8 فبراير 830	7 - -	المرقسية بالإسكندرية	المأمون
51	سيمون الثاني	سيمون السرياني	21 أمشير 546	15 فبراير 830	3 بابة 547	30 سبتمبر 830	17 1 1	المرقسية بالإسكندرية	المأمون، المعتصم (واليًا)
52	يوساب	-	21 هاتور 548	18 نوفمبر 831	23 بابة 566	20 أكتوبر 849	- 1 -	المرقسية بالإسكندرية	المأمون، المعتصم (واليًا ثم خليفة)، الواثق، المتوكل

ثورات القبط

ما جاء في كتاب الكندي

1 ـ سنة 107هـ، زمن ولاية الحر بن يوسف، انتفضت كورة نتو وتمي وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فُقتل منهم بشر كثير، وذلك أول انتقاض القبط بمصر .

2 ـ سنة 121هـ، زمن ولاية حنظلة بن صفوان الثانية، انتقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم، فبعث حنظلة بأهل الديوان فقتلوا من القبط ناسًا كثيرًا، وظفر بهم .

3 ـ سنة 132هـ، زمن ولاية عبد الملك بن مروان، خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود، فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري، فقُتل يحنس في كثير من أصحابه .

4 ـ سنة 132هـ، زمن قدوم مروان بن محمد إلى مصر، خالفت القبط برشيد، فبعث إليهم عثمان بن أبي نسعة في المصصة فهزمهم .

5 ـ سنة 135هـ، زمن ولاية أبي عون، خرج أبو مينا القبطي بسمنود، فبعث إليه بعبد الرحمن بن عقبة، فُقتل أبو مينا .

6 ـ سنة 150هـ، زمن ولاية يزيد بن حاتم، خرج القبط بسخا، ونابذوا العمال وأخرجوهم، وصاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهل البشرود والأوسية والبجوم .

7 ـ سنة 156هـ، زمن ولاية موسى بن علي بن رباح اللخمي، خرج القبط ببلهيب، فعقد موسى لعبد الله بن المهاجر بن علي فخرج في الجند إلى بلهيب فهزم القبط .

8 ـ سنة 203هـ، زمن ولاية السري بن الحكم الثانية، عارضته القبط بسخا .

9 ـ سنة 216هـ، زمن ولاية عيسى بن منصور، ثورة البشرود .

المراجع

مراجع «حكايات الدخول »

المراجع العربية

ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . الجزء الأول. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، 1963 .

ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد . جمهرة أنساب العرب . تحقيق : عبد السلام محمد هارون. القاهرة: دار المعارف، 1934 .

ابن حوقل، أبو القاسم محمد . المسالك والممالك . ليدن: مطبعة بريل، 1873 .

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد . الانتصار لواسطة عقد الأمصار . الجزء الرابع . القاهرة: المطبعة الأميرية الكبرى، الطبعة الأولى، 1309هـ .

ابن سعد، محمد . المعروف بـ«كاتب الواقدي ». كتاب الطبقات الكبير . تحقيق: إدوارد سخو . ليدن: 1322هـ. طبعة أخرى؛ بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر .

ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري . تاريخ المدينة المنورة . تحقيق: فهيم محمد شلتوت. الجزء الأول .

ابن ظهيرة، إبراهيم بن علي بن محمد . الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة . تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس. القاهرة: وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبوعات دار الكتب، 1969 .

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله . فتوح مصر وأخبارها . تحقيق: هنري ماسيه. القاهرة: مطبعة مجلس المعارف الفرنساوي الخاص بالعادات الشرقية، 1332هـ، 1913 .

ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني . مختصر كتاب البلدان . ليدن: مطبعة بريل، 1302هـ .

ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر . البداية والنهاية . د. ن، د. ت .

ابن المأمون، الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي . نصوص من أخبار مصر . تحقيق: أيمن فؤاد سيد. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1983 .

ابن هشام المعافري، محمد عبد الملك . السيرة النبوية لابن هشام . تقديم وتحقيق : طه عبد الرؤوف سعد. الجزء الثالث. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1971.

ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر المظفر بن عمر . تتمة المختصر في أخبار البشر . المعروف بـ«تاريخ ابن الوردي»، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي. بيروت: دار المعرفة .

أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد . كتاب الأغاني . تحقيق: علي النجدي ناصف. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .

الأزرقي، محمد بن عبد الله أحمد . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . تحقيق: رشدي الصالح ملحس. بيروت: دار الأندلس. د. ن، د. ت .

الألوسي، محمود شكري . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . الجزء الأول .

الأندلسي، ابن سعيد . المُغرِب في حُلى المَغرب . الجزء الأول. تحقيق: زكي محمد حسن، شوقي ضيف، سيدة الكاشف. القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1953 .
البغدادي، محمد بن حبيب . المنمق في أخبار قريش . صححه وعلق عليه: خورشيد أحمد فاروق. بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1985 .
البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر . فتوح البلدان . نشره ووضع ملاحقه وفهارسه: صلاح الدين المنجد. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1956 .
الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت . معجم البلدان . تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1990 .
الدميري، كمال الدين بن محمد بن موسى بن عيسى . حياة الحيوان الكبرى . الجزء الأول. د. ن، د. ت .
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان . تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام . تحقيق: محمد عبد الهادي شعيرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973. طبعة أخرى؛ القاهرة: مكتبة المقدسي، 1367هـ .
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان . سير أعلام النبلاء . الجزء الثاني .
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر . تاريخ الخلفاء . تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الرابعة .
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر . حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة .
الشافعي، محمد بن أبي السرور الصديق . القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب .
الشريف الرضي، أبو الحسن، محمد بن الحسين بن موسى . نهج البلاغة .
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير . تاريخ الأمم والملوك . المعروف بـ«تاريخ الطبري ».
العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن حجر . رفع الإصر عن قضاة مصر . القاهرة: وزارة التربية والتعليم، قسم نشر التراث، 1957 .
الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب . المغانم المطابة في معالم طابة . الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1398هـ، 1969 .
القرشي، محمد بن محمد بن أحمد . معالم القربة في أحكام الحسبة . د. ن، د. ت .
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . الجزء السادس. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، سلسلة تراثنا، 1958 .
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف . كتاب الولاة وكتاب القضاة . بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1908 .
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف . فضائل مصر المحروسة . تحقيق: إبراهيم العدوي، علي محمد عمر. القاهرة: مطبعة وهبة. طبعة أخرى؛ بيروت: دار الفكر، 1971 .
مبارك، علي . الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . القاهرة: المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى، 1306هـ .
المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد . الكامل . القاهرة: دار نهضة مصر .

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي . مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق: يوسف أسعد داغر. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر .
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي . التنبيه والإشراف . تصحيح : عبد الله إسماعيل الصاوي. القاهرة: دار الصاوي، المكتبة التاريخية، 1357هـ، 1938 .
المغربي، يوسف . رفع الإصر عن كلام أهل مصر .
المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر . المقفى الكبير . تحقيق: محمد اليعلاوي. أربعة أجزاء. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991 .
المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ«الخطط المقريزية». جزءان. القاهرة: مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، 1931 .
المكي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العاصمي . سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي .
النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب . نهاية الأرب في فنون الأدب . القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 1423هـ .
الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي . فتوح الشام . بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1997 .
الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي . كتاب المغازي . تحقيق: مارسدن جونسن. أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1966 .
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح. المعروف بـ . تاريخ اليعقوبي . النجف: المكتبة المرتضوية، مطبعة العزى، 1358هـ، 1939 .
المراجع القبطية
ابن العسال . المجموع الصفوي . طبعة خاصة لدارسي القانون الكنسي، أعدها للنشر: القس يوسف عوض تادرس. القاهرة، 1990 .
ابن المقفع، ساويروس. أسقف الأشمونين . تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية القبطية . المجلد الأول: من مارمرقس حتى البابا ثاؤنا. أعدها للنشر: صموئيل السرياني .
ابن المقفع، ساويروس. أسقف الأشمونين . كتاب مصباح العقل . تقديم وتحقيق: الأب سمير خليل. القاهرة: التراث العربي المسيحي (1)، 1978 .
الأنبا غريغوريوس . الدير المحرق: تاريخه، ووصفه، وكل مشتملاته .
الأب متى المسكين . الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار . وادي النطرون: مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية، 1984 .
النقيوسي، يوحنا. «مخطوطة». المصدر : مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي . ترجمة ودراسة لغوية وإعداد: عمر صابر عبد الجليل. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1981 .
المراجع الحديثة
أبو رابية، عبد الخالق سيد . عمرو بن العاص بين يدي التاريخ . القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي، 1988 .

بتلر، ألفرد. ج . فتح العرب لمصر . ترجمة: محمد فريد أبو حديد. القاهرة: مكتبة مدبولي، سلسلة «صفحات من تاريخ مصر» (1)، 1990 .
البري، عبد الله خورشيد . القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992 .
بل، هارولد . الهيلينية في مصر: من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي . القاهرة: دار المعارف، مكتبة الدراسات التاريخية، 1948 .
تاجر، جاك . أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1992م . القاهرة: كراسات التاريخ المصري، 1951 .
جروهمان، أدولف . أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية . السفر الرابع. ترجمة: حسن إبراهيم حسن. مراجعة: عبد الحميد حسن. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1967 .
حبيب، رؤوف . تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم . القاهرة: مكتبة المحبة، 1978 .
حسن، حسن إبراهيم . تاريخ عمرو بن العاص . القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1922 .
الباشا، حسن . فن التصوير في مصر الإسلامية . القاهرة: دار النهضة العربية، الطبعة الأولى 1966 .
حسين، طه . الفتنة الكبرى .
حسين، محمد كامل . أدب مصر الإسلامية : عصر الولاة . القاهرة: دار الفكر العربي، 1961 .
حوى، سعيد . الرسول صلى الله عليه وسلم . جزءان معًا. القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت .
سالم، السيد عبد العزيز . تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي . الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1982 .
رمزي، محمد . القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945 . القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1953 .
سحاب، فيكتور . إيلاف قريش : رحلة الشتاء والصيف . بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992 .
الشبول، أحمد. «علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة». الطيب الأنصاري، عبد الرحمن (تحرير). في : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . دراسات تاريخ الجزيرة العربية: الجزء الثاني. الرياض: جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، 1410هـ، 1989 .
شيخو، لويس . شعراء النصرانية بعد الإسلام . بيروت: دار المشرق .
العبادي، مصطفى. «الأرض والفلاح في مصر الرومانية». في : الأرض والفلاح في مصر على مر العصور . القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1974 .
العبادي، مصطفى . «موقع نصتان في ضوء الوثائق البردية قبيل الإسلام وخلال نصف القرن الأول من الحكم العربي». الطيب الأنصاري، عبد الرحمن (تحرير). في : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . دراسات تاريخ الجزيرة العربية: الجزء الثاني. الرياض: جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، 1410هـ، 1989 .

عطا، زبيدة . الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (48)، 1991 .
عطا، زبيدة . إقليم المنيا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982 .
عفيفي، محمد . الأقباط في مصر في العصر العثماني . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (54)، 1992 .
قنواتي، جورج شحاتة . المسيحية والحضارة العربية . القاهرة: دار الثقافة، 1992 .
الكاشف، سيدة إسماعيل. «الأرض والفلاح في مصر الإسلامية». في : الأرض والفلاح في مصر على مر العصور . القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1974 .
الكاشف، سيدة إسماعيل. بالاشتراك مع آخرين . موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الإسلامية . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (63)، 1993 .
كامل، مراد . حضارة مصر في العصر القبطي . القاهرة: مطبعة دار العالم العربي .
كحالة، عمر رضا . أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . دمشق: المطبعة الهاشمية، الطبعة الثانية، 1378هـ، 1959 .
مؤنس، حسين . أطلس تاريخ الإسلام . القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي، 1987 .
ماهر، سعاد . البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية . القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967 .
محمدين، محمد محمود. «الزراعة والري في الحجاز في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين». الطيب الأنصاري، عبد الرحمن (تحرير). في : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . دراسات تاريخ الجزيرة العربية: الجزء الثاني. الرياض: جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، 1410هـ، 1989 .
المصري، إيريس حبيب . قصة الكنيسة المصرية . الجزء الثاني: 435-948م. القاهرة: مكتبة المحبة، 1968 .
نخلة، كامل صالح . البابا بنيامين الأول البطريرك الثامن والثلاثون والفتح العربي لمصر . القاهرة: مكتبة المحبة، 1948 .
نسيم، سليمان . تاريخ التربية القبطية . القاهرة: دار الكرنك للنشر والتوزيع، 1963 .
نصار، حسين . الثورات الشعبية في مصر الإسلامية . بيروت: منشورات اقرأ، الطبعة الثانية، 1400هـ، 1980 .
مراجع «رحلة الانصهار »
المراجع العربية
ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني . الكامل في التاريخ . المجلد السادس. بيروت: دار صادر، 1402هـ، 1982 .
ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي . بدائع الزهور في وقائع الدهور . حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، 1982 .

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله . رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . القاهرة: المطبعة الخيرية، الطبعة الثالثة، 132 3هـ .
ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي . الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . المجلد الأول. بغداد: مكتبة المثنى، 1384هـ .
ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة: دار الكتب، 1929 .
ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن محمد . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992 .
ابن خياط، أبو عمرو خليفة . تاريخ خليفة بن خياط . ت 240هـ-854م رواية بقيِّ بن خالد. تحقيق: سهيل زكار. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، 1968 .
ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين . فضائل مصر وأخبارها وخواصها . تحقيق: علي محمد عمر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1999 .
ابن ظهيرة . الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة . تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس. القاهرة: وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبوعات دار الكتب، 1969 .
ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله . فتوح مصر وأخبارها . القاهرة: مكتبة مدبولي، صفحات من تاريخ مصر (10)، الطبعة الأولى، 1991 .
ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله . فتوح مصر والمغرب . القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ .
ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي . مختصر تاريخ الدول . الجزء الثاني. بيروت، 1958 .
ابن عرنوس، محمود بن محمد . تاريخ القضاء في الإسلام . القاهرة: المطبعة المصرية الأهلية الحديثة، 1352هـ، 1934 .
ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق . الفهرست . القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1929 .
أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم . كتاب الخراج .
الإدريسي، أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الحسيني، المعروف بـ«الشريف الإدريسي ». أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام . حققه وقدم له: ألريش هارمان. بيروت: نصوص ودراسات، سلسلة يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، 1991 .
الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني، المعروف بـ«الشريف الإدريسي ». نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . الجزء الأول. بيروت: عالم الكتب، 1409هـ .
البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر . فتوح البلدان . حققه وشرحه وعلق على حواشيه: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع. بيروت: منشورات مؤسسة المعارف .
الأندلسي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري . معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . الجزء الأول. عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه: مصطفى السقا . القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1364هـ، 1945 .

الأيوبي، أسعد بن مماتي . قوانين الدواوين . جمعه وحققه: عزيز سوريال عطية. القاهرة: الجمعية الزراعية الملكية، مطبعة مصر، 1943 .
الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت . معجم البلدان . الجزء الأول. بيروت: دار صادر .
الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . بيروت: دار الكتب العلمية، 1989 .
الدميري، كمال الدين بن محمد بن موسى بن عيسى . حياة الحيوان الكبرى . الجزء الأول. القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1383هـ، 1969 .
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان . سير أعلام النبلاء .
الزركلي، خير الدين . الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . بيروت: دار العلم للملايين، 1979-1980 .
سهراب . عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة . اعتنى بنسخه وتصحيحه: هانس فون مزيك. فيينا: مطبعة أدولف هولزهورن، 1347هـ، 1929 .
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير . تاريخ الأمم والملوك المعروف بـ«تاريخ الطبري». الجزء السابع. بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات .
القرشي، محمد بن محمد بن أحمد . معالم القربة في أحكام الحسبة . تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976 .
القزويني، زكريا بن محمد بن محمود . آثار البلاد وأخبار العباد . بيروت: دار صادر، 1969 .
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . الجزء الثالث. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، سلسلة تراثنا، 1958 .
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي . نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب . القاهرة، 1955 .
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف . القضاة الذين ولوا قضاء مصر . طُبع بمدينة رومية العظمى، 1908 .
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف . ولاة مصر . تحقيق: حسين نصار. بيروت: دار صادر .
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف . الولاة والقضاة . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، 1977 .
الكوفي، أبو محمد أحمد بن عمر . كتاب الفتوح . المجلد الثامن. بيروت: دار الندوة الجديدة .
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي . أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران . القاهرة: دار الأندلس للطباعة والنشر، 1966 .
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي . مروج الذهب ومعادن الجوهر . القاهرة: المطبعة البهية المصرية، 1346هـ .
المقدسي، محمد بن أحمد. المعروف بـ«البشاري ». أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ليدن: مطبعة بريل، الطبعة الثالثة، 1906. طبعة أخرى؛ القاهرة: مكتبة مدبولي .
المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر . إمتاع الأسماع . القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1945 .

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر . الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك . حققه وعلق على حواشيه: جمال الدين الشيال. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1955 .
المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر . شذور العقود في ذكر النقود . دراسة وتحقيق: محمد عبد الستار عثمان. القاهرة: مطبعة الأمانة، 1410هـ، 1990 .
المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر . المقفى الكبير . أربعة أجزاء. تحقيق: محمد اليعلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991 .
المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ«الخطط المقريزية». القاهرة: مكتبة مدبولي، 1998 .
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح. المعروف بـ . تاريخ اليعقوبي . النجف: المكتبة المرتضوية، مطبعة العزى، 1358هـ، 1939 .
اليعمري، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد. المعروف بـ«ابن سيد الناس ». عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير . جزءان. القاهرة: مكتبة القدس، 1356هـ .
المراجع القبطية
ابن المقفع، ساويروس. أسقف الأشمونين . تاريخ البطاركة . قام بنشره: يس عبد المسيح وأولد برمتي. القاهرة: مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، 1943 .
عبد المسيح، بيشوي . تاريخ أبرشية دمياط . الجزء الأول: محافظة دمياط. تقديم: نيافة الحبر الجليل الأنبا بيشوي .
الأنبا غريغوريوس . الدير المحرق: تاريخه، ووصفه، وكل مشتملاته .
نخلة، كامل صالح . تاريخ وجداول بطاركة الإسكندرية القبط وجدول عام جامع بين أقوال المتقدمين . تاريخ الأمة القبطية، المجلد الرابع. القاهرة: لجنة التاريخ القبطي، 1943 .
النقيوسي، يوحنا . تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قبطية للفتح الإسلامي . إعداد: عمر صابر عبد الجليل. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 2000 .
المراجع الحديثة
أبي الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد . تقويم البلدان .
الباشا، حسن . الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار . القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1957 .
البري، عبد الله خورشيد . القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992 .
بكر، سلوى . البشموري . رواية. القاهرة: دار الهلال، 1998 .
بلال، ثناء عبد الرحمن . الملابس في العصرين القبطي والإسلامي . القاهرة: دار النهضة العربية، 1982-1983 .
تاجر، جاك . أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1992م . القاهرة: كراسات التاريخ المصري، 1951 .
ترتون، ا. س . أهل الذمة في الإسلام . ترجمة وتعليق: حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين (70)، الطبعة الثانية، 1994 .

جروهمان، أدولف . أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية . السفر الرابع. ترجمة: حسن إبراهيم حسن. مراجعة: عبد الحميد حسن. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1943 .
حسين، محمد كامل . أدب مصر الإسلامية : عصر الولاة . القاهرة: دار الفكر العربي .
دينيت، دانيال . الجزية والإسلام . ترجمه وقدم له: فوزي فهيم جاد الله. راجعه: إحسان عباس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1960 .
رفاعي، أحمد فريد . عصر المأمون . المجلد الثالث. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1346هـ، 1927 .
رمزي، محمد . القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م . القسم الأول: البلاد المندرسة. تقديم: عبد العظيم رمضان. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة .
الروبي، آمال محمد . هرموبوليس ماجنا «الأشمونين» في العصر الروماني: بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية حتى سنة 284م . رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم التاريخ، 1971 .
زيادة، محمد مصطفى. وآخرون . دراسات عن المقريزي . مجموعة أبحاث. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971 .
زيود، محمد. «صناعة الورق والوراقة في بلاد الشام في العصر الفاطمي». في : المؤرخ المصري . القاهرة: دراسات وبحوث تاريخية محكمة يصدرها قسم التاريخ، جامعة القاهرة، كلية الآداب، العدد الخامس عشر، يوليو 1995 .
سامي، أمين . تقويم النيل . القاهرة: دار الكتب، 1936 .
سزكين، فؤاد . تاريخ التراث العربي . الجزء الأول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978 .
سليم، محمد صبري محسوب . سواحل مصر: بحوث في الجيومورفولوجيا . القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1994 .
سيد، أيمن فؤاد . الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات . الجزء الأول. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1997 .
السيد، مجدي فتحي . تاريخ الإسلام والمسلمين في أزهى عصور الخلافة العباسية . طنطا: دار الصحافة للتراث بطنطا، سلسلة صحيح التوثيق (6)، الطبعة الأولى، 1999 .
شاروبيم، ميخائيل . الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث .
العبادي، مصطفى. «الأرض والفلاح في مصر الرومانية». في : الأرض والفلاح في مصر على مر العصور . القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1974 .
العدوي، إبراهيم أحمد . مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام . القاهرة: هيئة الآثار المصرية، القاهرة، 1992 .
الكاشف، سيدة إسماعيل. «الأرض والفلاح في مصر الإسلامية». في : الأرض والفلاح في مصر على مر العصور . القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1974 .
الكاشف، سيدة إسماعيل . مصر في فجر الإسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية . القاهرة: دار الفكر العربي، 1974 .

كحالة، عمر رضا . معجم قبائل العرب القديمة والحديثة . دمشق: المكتبة الهاشمية، 1949 .
ماجد، عبد المنعم . العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين . الجزء الأول: التاريخ السياسي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1973 .
مؤنس، حسين . أطلس تاريخ الإسلام . القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي، 1987 .
مبارك، علي . الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عن طبعة بولاق سنة 1305هـ، الطبعة الثانية، 1994 .
مبارك، علي . نخبة الفكر في تدبير نيل مصر . القاهرة: مطبعة وادي النيل العربية والإفرنجية بباب الشعرية، الطبعة الأولى، 1297هـ .
متز، آدم . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام . ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة. المجلد الأول. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، 1967 .
محمد، بدر عبد الرحمن. «شرق الدلتا منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي». في : المؤرخ المصري . القاهرة: دراسات وبحوث تاريخية محكمة يصدرها قسم التاريخ، جامعة القاهرة، كلية الآداب، 4 يوليو 1989 .
محمد، حجاجي إبراهيم . مقدمة في العمارة القبطية الرفاعية . القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1948 .
محمود، عبد الحليم . الليث بن سعد . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الأعلام (13)، 1977 .
محمود، منى حسن. «السكة الإسلامية في مصر 21-154هـ». في : المؤرخ المصري . القاهرة: دراسات وبحوث تاريخية محكمة يصدرها قسم التاريخ، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، العدد الثاني والعشرون، يوليو 1999 .
مغاوري، سعيد . الألقاب والحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية: دراسات أثرية حضارية . رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، 1415هـ، 1994 .
نسيم، سليمان . تاريخ التربية القبطية . القاهرة: دار الثقافة العربية، 1963 .
نصار، حسين . الثورات الشعبية في مصر الإسلامية . بيروت: منشورات اقرأ، الطبعة الثالثة 1986 .

مختارات الكرمة

1. 1. مليم الأكبر ـ عادل كامل
2. 2. دنقلا ـ إدريس علي
3. 3. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي
4. 4. الشبكة ـ شريف حتاتة
5. 5. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف ـ أحمد الشيخ
6. 6. النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم
7. 7. ملك من شعاع ـ عادل كامل
8. 8. إجازة تفرغ ـ بدر الديب
9. 9. رابعة ثالث ـ علي الشوباشي

10. 10. رباعية أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم
11. 11. الرحلة (الجزء الأول) ـ فكري الخولي
12. 12. الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) ـ فكري الخولي
13. 13. حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب
14. 14. الباب المفتوح ـ لطيفة الزيات
15. 15. أوراق شخصية ـ لطيفة الزيات
16. 16. الشمندورة ـ محمد خليل قاسم
17. 17. بيت سري ـ عثمان صبري
18. 18. هوامش الفتح العربي لمصر ـ سناء المصري
19. 19. صدمة طائر غريب ـ كمال القلش

(1) انظر: البغدادي، المنمق في أخبار قريش .
(2) لمزيد من التفاصيل، انظر: فيكتور سحاب، إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف .
(3) المصدر السابق .
(4) مصطفى العبادي، «موقع نصتان في ضوء الوثائق البردية قبيل الإسلام وخلال نصف القرن الأول من الحكم العربي ».
(5) فيكتور سحاب، المصدر نفسه .
(6) انظر: الأزرقي . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .
(7) الكندي، فضائل مصر المحروسة، ص28 .
(8) يقول اليعقوبي في تاريخه إن أبا رافع مولى النبي هو قبطي أهداه المقوقس، والأصح رواية الكندي، لأن المقوقس أهدى قبطًا آخرين للنبي، ليس بينهم أبو رافع . انظر : تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني، ص70 .
(9) زبيدة عطا، إقليم المنيا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي .
(10) ساويروس بن المقفع، تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية القبطية .
(11) زبيدة عطا، المصدر نفسه .
(12) أحمد الشبول، «علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة ».
(13) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص246 .
(14) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني .
(15) سوف نجد أخبارًا بعد ذلك عن خيانة حاطب بن أبي بلتعة للنبي وحزبه، حينما كانوا يعدون العدة لفتح مكة ويحيطون الأمر بسرية شديدة، بغية مفاجأة قريش، فبعث حاطب بتلك الأخبار إلى قريش، وحينما اكتشف أمر خيانته، وأمسك أصحاب النبي بالمرأة التي تخبئ خطاب حاطب في شعرها، فبرر خيانته قائلًا: «كان بمكة قرابتي وولدي وكنت غريبًا فيكم معشر قريش» فعفا عنه النبي لأنه شهد وقعة بدر. لمزيد من التفاصيل، انظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء . وهذا الحادث يلقي ظلال الخيانة على حاطب، ويقلل الثقة فيه كصاحب أمين للنبي. وعاش حاطب حتى عام 30هـ، وترك حين مات أربعة آلاف دينار ودراهم وغير ذلك. انظر: محمد بن سعد، المعروف بـ«كاتب الواقدي » ، كتاب الطبقات الكبير .

(16) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها .
(17) المصدر السابق .
(18) المصدر السابق .
(19) المصدر السابق .
(20) المصدر السابق .
(21) محمد بن سعد، المصدر نفسه، الجزء الرابع، القسم الأول .
(22) لأهل مصر وفلسطين إذا جاوزوا، طريقان إلى المدينة: أحدهما على شغب وبدأ ـ وهما قريتان بالبادية ـ حتى ينتهي إلى المدينة على المروة، وطريق يمضي على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة فيجتمع بهما طريق أهل العراق وفلسطين ومصر، ومن المرجح أن تكون قافلة حاطب ـ مارية ـ سيرين ـ مابور قد قطعت طريق الصحراء الأول .
(23) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك .
(24) ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة .
(25) محمد بن سعد، المصدر نفسه .
(26) ترتيب زوجات النبي: 1 ـ خديجة، 2 ـ سودة بنت زمعة، 3 ـ عائشة بنت أبي بكر، 4 ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب، 5 ـ زينب بنت خزيمة، 6 ـ أم سلمة، 7 ـ زينب بنت جحش، 8 ـ جويرية بنت الحارث، 9 ـ أم حبيبة، زملة بنت أبي سفيان، 10 ـ صفية بنت حيي، 11 ـ ميمونة بنت الحارث العامرية. (عن سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، لابن عبد الملك العاصمي المكي). وقد جاء في «تاريخ اليعقوبي» لأحمد بن أبي يعقوب، الكاتب العباسي المعروف، أن النبي تزوج إحدى وعشرين امرأة، وقيل ثلاثًا وعشرين دخل ببعضهن وطلق بعضًا ولم يدخل ببعض .
(27) الطبري، المصدر نفسه، الجزء الثاني .
(28) زبيدة عطا، المصدر نفسه .
(29) المصدر السابق .
(30) عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام .
(31) محمد بن سعد، المصدر نفسه .
(32) يذكر شمس الدين الذهبي أن عائشة وحفصة كانتا يدًا واحدة، ومع ذلك كانت عائشة تغار من حفصة إذا ما تأخر النبي عندها، ويروي البخاري عن عائشة قولها إن النبي كان «يحب العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر مما كان يحتبس؛ فغرتُ فسألتُ عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي صلى الله عليه وسلم منه شربة، فقلت أما والله لنحتالن له ».
ودبرت عائشة خطة لإبعاد النبي عن حفصة والعسل بأن اتفقت مع سودة بنت زمعة وبقية الزوجات على أن يوحين للنبي إذا اقترب من إحداهن بأن هناك رائحة كريهة للعسل الذي شربه.
فقاطع النبي العسل، ثم قاطع نساءه شهرًا حتى نزلت الآية : «ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ
». انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء السادس عشر .
ولم تتوقف مكائد الزوجات خصوصًا ضد الزوجة الحديثة، فكانت عائشة تقول لها عند تجميلها: «إن أردت أن تحظي عنده فتعوذي بالله إذا دخلت عليه» فتعوذت أسماء بنت النعمان الكندي في

وجه النبي فألحقها بأهلها دون أن يدخل عليها، فزعموا أنها ماتت كمدًا. انظر : تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني .
وقد اشتكت أم سلمة من عائشة وكلمت فاطمة... فقالت فاطمة لأبيها: «إن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر». كما اشتكتها زينب بنت جحش للنبي «فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبتها». وكان النبي «ينظر إلى عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها». انظر : شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء .
وهكذا تمتلئ كتب السيرة بقصص المشاجرات بين حزبي زوجات النبي، وبين أعضاء الحزب الواحد، في غيبة النبي وفي حضرته، ولم يكن لتلك الغيرة ومكائدها نهاية طالما بقيت الزوجات التسع .
(33) المصدر السابق .
(34) ابن العسال، المجموع الصفوي .
(35) الفيروزآبادي، المغانم المطابة في معالم طابة .
(36) الواقدي، كتاب المغازي .
(37) المصدر السابق .
(38) محمد بن سعد، المصدر نفسه .
(39) سعيد حوى، الرسول صلى الله عليه وسلم .
(40) ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء الرابع .
(41) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الأول .
(42) المصدر السابق، ص289 .
(43) محمد بن سعد، المصدر نفسه .
(44) المصدر السابق .
(45) المصدر السابق .
(46) تاريخ اليعقوبي، ص84 .
(47) محمد بن سعد، المصدر نفسه .
(48) محمد محمود محمدين، «الزراعة والري في الحجاز في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين ».
(49) محمد بن سعد، المصدر نفسه .
(50) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص347. وقد أبيحت المدينة ثلاثة أيام للقتل والنهب .
(51) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث. شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الأول، ص332 .
(52) النويري، المصدر نفسه .
(53) روى الطبراني أن أول من مات من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وآخرهن موتًا أم سلمة .
(54) ومنهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء عقبة بن عامر، وأبو ذر الغفاري، ومحمية بن جزء الزبيدي، ونبيه بن صواب المهري، ورافع بن ملك،

وربيعة بن شرحبيل بن حسنة، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم. انظر: الكندي، فضائل مصر المحروسة، ص28 .
(55) عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة .
(56) الواقدي، فتوح الشام .
(57) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص53 .
(58) روت عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها، وكان يحب ألا أفارقه في سفر ولا حضر. فلما أراد غزوة المريسيع، أقرع بيننا فخرج سهمي وسهم أم سلمة، فخرجنا معه». لمزيد من التفاصيل، انظر : السيرة النبوية لابن هشام .
(59) رايطة أسلمت بعد زوجها يوم الفتح، وهي واحدة من الخمس عشرة امرأة اللاتي خرجن لإثارة نار قريش ضد المسلمين، وظلت تجاهر بعداوتها للإسلام حتى يوم الفتح، وهي واحدة من وفد نساء قريش اللاتي أتين بالأبطح وبايعن بشروط معينة .
(60) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه .
(61) الواقدي. المصدر نفسه .
(62) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه .
(63) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(64) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني .
(65) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، الجزء الثامن عشر: أخبار عمارة بن الوليد ونسبه، ص123 .
(66) لمزيد من التفاصيل حول مدى ثروة قريش وإسراف سادتها في التمتع، انظر: المصدر السابق .
(67) المقريزي، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص293 .
(68) البلاذري، فتوح البلدان، ص253 .
(69) المقريزي، المصدر نفسه .
(70) البلاذري، المصدر نفسه .
(71) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه .
(72) عبد الله خورشيد البري، المصدر نفسه، ص214 .
(73) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه .
(74) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص26 .
(75) ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الرابع، ص229 .
(76) عبد الله خورشيد البري، المصدر نفسه .
(77) المقريزي، المصدر نفسه .
(78) المصدر السابق .
(79) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه .
(80) المصدر السابق .
(81) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة .

(82) المصدر السابق .
(83) العقيان: ذهب متكاثف في مناجمه خالص مما يختلط به من الرمال والحجارة .
(84) المصدر السابق .
(85) البلاذري، فتوح البلدان .
(86) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء السادس، ص386 .
(87) المصدر السابق، ص477 .
(88) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص146 .
(89) المصدر السابق .
(90) ابن سعيد الأندلسي، المُغرب في حلى المَغرب، القسم الخاص بمصر، ص48 .
(91) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني .
(92) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(93) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثالث، ص23، «وفاة عمرو بن العاص».
(94) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني .
(95) محمد بن سعد، كتاب الطبقات الكبير، الجزء الرابع، القسم الأول .
(96) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص130 .
(97) هي سلمى بنت حرملة، تلقب بـ«النابغة» من بني عنزة ثم أحد بني جلان، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له .
(98) لمزيد من التفاصيل، انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب . الجزء العشرون، ص297 .
(99) ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء السابع، «ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ففيها مقتل عثمان».
(100) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه، ص178 .
(101) ابن كثير، المصدر نفسه .
(102) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء .
(103) الشريف الرضي، نهج البلاغة، وقد تطورت عقوبة الأمير لمخالفيه بعد ذلك فنجد أنه لما ولي بشر بن أبي مروان الأموي: «زاد فيه فصار يرفع الرجل عن الأرض ويسمرونه في يديه بمسمارين في حائط فربما مات، وربما خرق المسمار يديه»، انظر أيضًا: المقريزي، المقفى الكبير، الجزء الثاني، ص429 .
(104) النويري، المصدر نفسه، الجزء العشرون، ص241 .
(105) لمزيد من التفاصيل، انظر: المقريزي، المقفى الكبير، الجزء الخامس، ص525 .
(106) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الرابع، ص348 .
(107) ينطبق هذا الكلام على حادثة الرجل الذي اشتكى عمرو بن العاص للخليفة ابن الخطاب، لأنه ضربه بعد أن سبق ابنه، فاستدعى ابن الخطاب عمرو وابنه، وقال له اضرب ابن الأكرمين، وأطلق المؤرخون عليه اسم المصري جريًا على ذات عادتهم في تسمية العرب المقيمين

بالمصريين، على الرغم من حداثة وفودهم إلى أرض مصر، فالمقصود هو: الذين امتلكوا أرض مصر .

(108) الشريف الرضي، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص162 .
(109) لمزيد من التفاصيل، انظر: طه حسين، الفتنة الكبرى .
(110) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص24 .
(111) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص264 .
(112) ابن الأثير، الكامل في التاريخ .
(113) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص200 .
(114) الطبري، المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص357 .
(115) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام .
(116) ابن عبد الملك العاصمي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي .
(117) المقريزي، المقفى الكبير، الجزء الثاني .
(118) العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص112 .
(119) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الثاني، ص317 .
(120) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
(121) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص45 .
(122) المصدر السابق .
(123) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص151 .
(124) القلقشندي، المصدر نفسه .
(125) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(126) الطبري، المصدر نفسه، ص106 .
(127) لمزيد من التفاصيل، انظر: المقريزي، وآخرين .
(128) القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، ص99 .
(129) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص263 .
(130) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص27 .
(131) المصدر السابق، ص28 .
(132) طه حسين، الفتنة الكبرى، الجزء الثاني: علي وبنوه .
(133) المبرد، الكامل، ص267 .
(134) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء العشرون، ص243 .
(135) عمر صابر، مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي .
(136) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، ص508 .
(137) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1922م .
(138) يوحنا النقيوسي، المخطوطة .
(139) هارولد بل، الهيلينية في مصر .
(140) يوحنا النقيوسي، المصدر نفسه .
(141) المصدر السابق .

(142) المصدر السابق .
(143) المصدر السابق .
(144) المصدر السابق .
(145) المصدر السابق .
(146) المصدر السابق .
(147) المصدر السابق .
(148) محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية .
(149) يوحنا النقيوسي، المصدر نفسه .
(150) المصدر السابق .
(151) المصدر السابق .
(152) المصدر السابق .
(153) المصدر السابق .
(154) المصدر السابق .
(155) المصدر السابق .
(156) المصدر السابق .
(157) المصدر السابق .
(158) المصدر السابق .
(159) المصدر السابق .
(160) المصدر السابق .
(161) المصدر السابق .
(162) يوحنا النقيوسي، المخطوطة .
(163) المصدر السابق .
(164) يقال إن هرقل كانت تعتريه بين الحين والآخر نوبات من الخمول والانقباض خصوصًا بعد المعارك الضارية التي دخلها مع خسرو إمبراطور الفرس، وغارات جموع الآفار والشعوب السلافية، بالإضافة إلى أنه كان يشك في إخلاص «بريسكوس» القائد العام. كما كانت الإمبراطورية تعاني من ضيق الموارد وخواء الخزينة العامة من جراء كثرة الحروب .
(165) المصدر السابق .
(166) المصدر السابق .
(167) المصدر السابق .
(168) يذكر سير هارولد أن كيرس كان رجلًا قلق المزاج، ولما وجد أنه لا سبيل إلى جعل القبط يعتنقون المذهب الخلقيدوني بدأ حملة عنيفة من الاضطهاد. وأنه عقد معاهدة بابليون بعد الهزائم الأولى، ولما ذهب يعرضها على الإمبراطور رفضها ونفاه، وبعد وفاة هرقل عاد كيرس بأمر زوجة الإمبراطور إلى مصر، وكان بابليون قد سقط وزحف العرب إلى الإسكندرية، ولما رأى أن الإسكندرية قد مزقتها الحزبية، عقد مع العرب معاهدة الإسكندرية في ظل رضا وموافقة الوصية على عرش هرقل الصغير. (هارولد بل، الهيلينية في مصر)
(169) يوحنا النقيوسي، المخطوطة .

(170) المصدر السابق .
(171) المصدر السابق .
(172) المصدر السابق .
(173) المصدر السابق .
(174) المصدر السابق .
(175) ساويروس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، ساويروس بن المقفع: حياته .
(176) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطاركة، الجزء الأول، ص9 .
(177) المصدر السابق، ص106 .
(178) المصدر السابق، ص107 .
(179) المصدر السابق .
(180) المصدر السابق .
(181) المصدر السابق، ص121 .
(182) المصدر السابق، ص145 .
(183) المصدر السابق .
(184) المصدر السابق، ص146 .
(185) المصدر السابق، ص147 .
(186) المصدر السابق، ص148 .
(187) المصدر السابق .
(188) المصدر السابق، ص149 .
(189) المصدر السابق، ص151 .
(190) المصدر السابق، ص177 .
(191) المصدر السابق، ص178 .
(192) المصدر السابق، ص268 .
(193) المصدر السابق .
(194) المصدر السابق، ص191 .
(195) المصدر السابق .
(196) زبيدة عطا، إقليم المنيا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي، نقلًا عن الكتاب المنسوب إلى أبو صالح الأرمني، الكنائس والأديرة في مصر .
(197) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الرابع، ص105 .
(198) البلاذري، فتوح البلدان، القسم الأول، ص253 .
(199) الطبري، المصدر نفسه، ص105 .
(200) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها .
(201) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا .
(202) الطبري، المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص100 .
(203) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، الجزء الأول .
(204) عمر صابر، مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي، ص199 .

(205) المصدر السابق .
(206) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، ص492 .
(207) رؤوف حبيب، تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم .
(208) زبيدة عطا، إقليم المنيا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي، ص37 .
(209) المصدر السابق .
(210) المصدر السابق، ص46 .
(211) المصدر السابق، ص33 .
(212) لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية .
(213) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص74 .
(214) المصدر السابق .
(215) زبيدة عطا، الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، ص128 .
(216) أدولف جروهمان، أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية .
(217) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطاركة، الجزء الأول، ص146 .
(218) المصدر السابق، ص147 .
(219) المصدر السابق، ص148 .
(220) حسن الباشا، فن التصوير في مصر الإسلامية .
(221) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا .
(222) القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة .
(223) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص139 .
(224) انظر: العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر .
(225) أدولف جروهمان، المصدر نفسه .
(226) الكلمات القبطية التي دخلت العربية من أسماء المسميات: برسيم، إردب، يم، أم قويق، حلق، تكيس، بقوطي، كعك، قلة، كحة، لقمة، لبشة، ماجور، تمساح، نبوت، مقطف، ننوس، نونو، بصارة، قاق، مشنة، مسلة، سمان، طورية، ذهبية، تندة، سنط، شرش، شونة، شوطة، شوربة، خن، رمان، شوشة، شبورة، بلح ...
وفي لغة الأطفال كلمات قبطية مثل: تاتا، ومعناها يمشي؛ أمبو، أي ماء، واوا معناها ورم؛ بيبة أي برغوث؛ ومنها أفعال مثل شأشأ، فرفر، هلوس، هوش، لكلك، نكت، نط، فتفت، دمس (دفن)، شلشل، شن، بشبش، هوس (بمعنى تسبيح).
كذلك تعبيرات مثل: الورور للفجل الصغير، ولقلاق، وجب بمعنى الساعة أو الوقت، والكاس بمعنى الألم، وتوت للحاوي بمعنى اجتمع، وليلى بمعنى إفرح، وبح، وكاني وماني. لمزيد من التفاصيل، انظر: مراد كامل، حضارة مصر في العصر القبطي .
(227) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1922م .
(228) سليمان نسيم، تاريخ التربية القبطية، ص97 .
(229) عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص58 .

(230) سنجد بعد ذلك أمثلة قاسية مثلما حدث حينما أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بمنع الحديث باللغة القبطية في البيوت والطرق ومعاقبة كل من يتحدث بها بقطع لسانه، فاضطر القبط إلى وضع الستائر على أجنحة الهياكل وقت صلاة القداس وإجراء الخدمة الإلهية سرًّا خوفًا من الحكام الذين كانوا إذا سمعوا الصلاة بهذه اللغة هجموا على الكنائس، وفتكوا بمن بها بلا رحمة. لمزيد من التفاصيل، انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الأول، ص80 .
(231) محمد كامل حسين، أدب مصر الإسلامية: عصر الولاة، ص25 .
(232) الكندي، المصدر نفسه، ص414 .
(233) المصدر السابق .
(234)(1) محمد حسين كامل، المصدر نفسه، ص169 .
(235) حسن الباشا، المصدر نفسه، ص24 .
(236) المصدر السابق .
(237) سليمان نسيم، المصدر نفسه .
(238) انظر: أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، الجزء العشرون، ص159 .
(239) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة .
(240) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص346 .
(241) المقريزي، المقفى الكبير، ص39 .
(242) كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، الجزء الأول، ص404 .
(243) المقريزي، المقفى الكبير، ص40 .
(244) المسعودي، المصدر نفسه .
(245) المصدر السابق .
(246) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(247) المصدر السابق، ص56 .
(248) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص43 .
(249) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطاركة، ص198 .
(250) المصدر السابق، ص122-139 .
(251) المصدر السابق .
(252) مراد كامل، المصدر نفسه، ص142 .
(253) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(254) المصدر السابق .
(255) المصدر السابق .
(256) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص32 .
(257) المسعودي، المصدر نفسه، ص374 .
(258) ابن تغري بردي، المصدر نفسه .
(259) المصدر السابق .
(260) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص53. فصل في ذكر كور مصر المشهورة .
(261) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص44 .

(262) المصدر السابق .
(263) المصدر السابق .
(264) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص268. في زمن الأنبا يوساب .
(265) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص177 .
(266) المصدر السابق، ص39 .
(267) المصدر السابق، ص49 .
(268) المصدر السابق، ص43 .
(269) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الجزء الأول .
(270) المصدر السابق .
(271) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص130 .
(272) الوثيقة كما ترد في رسالة الدكتور عمر صابر، مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي .
(273) وربما كان لابن عبد الحكم تأثير غير مباشر في حفظ تاريخ ثورات مصر ورواياتها شفاهة دون تدوينها .
(274) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص212 .
(275) محمد مصطفى زيادة، وآخرون، دراسات عن المقريزي .
(276) ميخائيل شاروبيم، الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث .
(277) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص145 .
(278) المصدر السابق .
(279) المصدر السابق .
(280) المصدر السابق .
عن أوراق البردي: «من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنك قد علمت الذي كتبت إليك به من جمع المال والذي قد حضر من عطاء الجند وعيالهم وغزو الناس، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ في جمع المال فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر، ثم عجل إليَّ بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول، ولا أعرفنك ما حسبتنا بما قبلك؛ فإن أهل الأرض قد فرغوا من الحرثة وصلحت أفراطهم ».
(281) المقريزي، المقفى الكبير، الجزء الثاني، ص38 .
(282) المصدر السابق، ص39 .
(283) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(284) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص147 .
(285) المصدر السابق، ص148 .
أما عن مقدار المكوس التي فُرضت في مصر في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز فقد تناول أبو يوسف الكلام على ذلك في «كتاب الخراج»: «وقد فرض على المسلمين دينار واحد عن كل 40 دينارًا واتبعت هذه النسبة في كل مبلغ ».
(286) المصدر السابق .
(287) الكندي، الولاة والقضاة .
(288) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه .

(289) المصدر السابق .
(290) المصدر السابق .
(291) المصدر السابق .
(292) الكندي، المصدر نفسه، ص95 .
(293) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه .
(294) المصدر السابق .
(295) المصدر السابق .
(296) الكندي، المصدر نفسه، ص99 .
(297) المصدر السابق .
(298) المصدر السابق .
(299) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه .
(300) المصدر السابق .
(301) المصدر السابق .
(302) المصدر السابق .
(303) الكندي، المصدر نفسه .
(304) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول، ص281 .
(305) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه .
(306) ابن تغري بردي، المصدر نفسه .
(307) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه .
(308) المصدر السابق، ص168 .
(309) الكندي، المصدر نفسه، ص116 .
(310) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص169 .
(311) الكلام عن ثورة القبط الأولى وثورة القبط الثانية خاص بعام 132هـ، حيث اندلعت ثورتان في نفس ذلك العام، كانت الثانية منهما هي المواكبة لأحداث سقوط الدولة الأموية. (و، أ)
(312) الكندي، المصدر نفسه، ص116 .
(313) المصدر السابق، ص118 .
(314) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه .
(315) المصدر السابق .
(316) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه .
(317) المصدر السابق، ص189 .
(318) ابن تغري بردي، المصدر نفسه .
(319) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص178 .
(320) المصدر السابق، ص191، 192 .
(321) الأنبا غريغوريوس، الدير المحرق: تاريخه، ووصفه، وكل مشتملاته .
(322) الكندي، المصدر نفسه، ص123 .
(323) المصدر السابق، ص137، 138 .

(324) المصدر السابق، ص141 .
(325) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ص26 .
(326) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص267 .
(327) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور .
(328) الكندي، المصدر نفسه، ص214 .
(329) لمزيد من التفاصيل، انظر: حسين نصار، الثورات الشعبية في مصر الإسلامية .
(330) الكندي، المصدر نفسه .
(331) المصدر السابق، ص216 .
(332) تاريخ اليعقوبي، ص192 .
(333) ابن إياس، المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص215 .
(334) الكندي، المصدر نفسه، ص216 .
(335) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص190 .
(336) اليعقوبي، المصدر نفسه .
(337) ابن إياس، المصدر نفسه .
(338) المقريزي، المقفى الكبير .
(339) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور .
(340) المصدر السابق .
(341) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(342) ابن إياس، المصدر نفسه .
(343) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
(344) المصدر السابق .
(345) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ص97 .
(346) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطاركة .
(347) المصدر السابق، ص272 .
(348) المصدر السابق، ص273 .
(349) المصدر السابق، ص270 .
(350) المصدر السابق، ص274 .
(351) المصدر السابق .
(352) المصدر السابق، ص277 .
(353) المصدر السابق، ص278 .
(354) المصدر السابق، ص280 .
(355) المصدر السابق، ص287 .
(356) المصدر السابق، ص289 .
(357) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ص88 .

(358) المصدر السابق، ص86 .
(359) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطاركة، ص144 .
(360) المصدر السابق، ص145 .
(361) المصدر السابق، ص146 .
(362) المصدر السابق، ص148 .
(363) المصدر السابق، ص149 .
(364) المصدر السابق، ص168 .
(365) المصدر السابق، ص174، 175 .
(366) محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، القسم الأول، ص31 .
(367) المصدر السابق .
(368) ربما تقصد المؤلفة كتاب: جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1922م . (و، أ)
(369) سعيد بن البطريق، ولد في الفسطاط سنة 263هـ/876م، وتوفي بالإسكندرية سنة 328هـ/939م، من آثاره كتاب «نظم الجوهر ».
(370) ربما تقصد المؤلفة كتاب: عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين: التاريخ السياسي . (و، أ)
(371) مصطفى العبادي، «الأرض والفلاح في مصر الرومانية»، ص136 .

(٢) سير المعارك الحربية حسب توقعات بعض المؤرخين :

أ. حسب رواية البلاذري في كتاب «فتوح البلدان »:

سار جيش عمرو بن العاص من العريش إلى الفرما إلى اليونه (بابليون) أو الفسطاط، ومنها وجه جيشًا إلى عين شمس بقيادة عبد الله بن حذافة السهمي، وآخر إلى الفيوم والأشمونين بقيادة خارجة بن حذافة العدوي، وثالث إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير بقيادة عمير بن وهب الجمحي، ورابع إلى سائر قرى أسفل الأرض بقيادة عقبة بن الجهني .

ب. حسب رواية ابن تغري بردي الأتابكي، المأخوذة عن ابن عبد الحكم، في كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة »:

فسار جيش عمرو إلى رفح، ومنها إلى العريش، ثم إلى الفرما، وهي أول موضع قاتلته فيه الروم قتالًا شديدًا نحوًا من شهر ـ والفرما هي مدينة عتيقة على ساحل بحر الروم، وهي الآن خراب، وهي على جانب بحيرة تنيس مما يلي الشرق ـ ثم مضى إلى القياصر، ومنها إلى بلبيس وفيها قاتل نحوًا من شهر حتى فتح الله عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين ـ كانت تطلق قبل الإسلام على المقس وكانت واقعة على النيل، ويقع فيها الآن جامع أولاد عناني وشارع كامل وحديقة الأزبكية ـ فقاتلوا من بها قتالًا شديدًا، وأبطأ عليه الفتح فطلب مددًا من الخليفة عمر بن الخطاب... وظل حصار بابليون سبعة أشهر حتى سقط في أيدي الجيش العربي .

ج. في كتاب «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»، لابن ظهيرة، نجد نفس خط سير القتال .

د. في «معجم البلدان» لياقوت الحموي :

الفرما قتال نحو شهرين

بلبيس قتال نحو شهر
أم دنين وهي المقس شهران
حصن بابليون سبعة أشهر
هـ. سير عمرو بن العاص حسب ما ذكر حسن إبراهيم حسن في كتاب «تاريخ عمرو بن العاص »:
من البقعة الريفية بالملح التي تحيط بالفرما مر عمرو على أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التي استحالت إلى رمال حتى وصل إلى مجدل نحو الجنوب والغرب، ومن ثم إلى الجهة المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس، حيث يتغطى سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صلب، وفي خلالها بقع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب، ثم أخذ في السير إلى الصالحية والقصاصين، ومن ثم اتجه منحرفًا نحو الجنوب مجتازًا تلال وادي الطميلات «رأس الوادي» على مقربة من التل الكبير الآن وقريبًا من بلبيس .
وقد اتخذ معظم الفاتحين الأقدمين طريقًا غير هذا مثل قمبيز الذي سار من الفرما متجهًا نحو الغرب إلى سنهور وتنيس «صان » ، ومن ثم إلى بلبيس ولكن في هذا الوقت ـ أي حين الفتح الإسلامي ـ انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره، إذ لم يكن لدى عمرو وجنده من الوسائل ما يكفل لهم إقامة القناطر والجسور .
و. أما سير القتال حسب تصور د. حسين مؤنس في كتاب «أطلس تاريخ الإسلام »:
من غزة إلى رفح وسار في الطريق الشمالي القريب من البحر، فدخل ثم مر بالعريش ومر ببئر المساعيد ورؤوس الأدراب وبئر العبد وقطيا ثم انتهى إلى الفرما، وهي ميناء صغير على البحر يسمى عند الروم «بولوزيوم» وكان يصب بقربها فرع من فروع دلتا النيل يسمى الفرع البلوزي .
ومن الفرما اتجه جنوبًا حتى قرة مجدل قرب الفرما، ثم مر بمكان قرية القنطرة ثم إلى مكان الصالحية ووادي الطميلات. وعندما وصل عمرو بلبيس وجد بها جمعًا من الروم يقودهم قائد يسمى Arteon ، وقد سماه العرب الأرطبون، فاستولى عليها العرب بعد قتال نحو شهر .
ومن بلبيس اتجه عمرو إلى رأس الدلتا، فوصل إلى قرية تسمى تندونياس ويسميها العرب أم دنين واستولى عليها .
أما رأس الدلتا فكان في جنوبها حصن للروم يسمى حصن بابليون أو باب اليون، جعل الروم فيه حامية كبيرة لحكم البلاد وضمان طاعة أهلها وصد أي عادية تكون على مصر من الشرق. وكان الروم قد حصنوا هذا الموقع بعد أن أخرجوا الفرس من مصر والشام، قبل الفتح العربي بقليل. وكانت المنطقة المحيطة بالحصن ومنه إلى رأس الدلتا تسمى كلها مدينة مصر، وهي منطقة مزارع من قرى وحدائق، وحاصر العرب حصن بابليون وبعد مجيء المدد كان اللقاء عند هليوبوليس وانتصر العرب، ولجأ الروم إلى بابليون فتحصنوا به، وعاد المسلمون يحاصرونه، وبعد صلح بابليون قرر عمرو المسير إلى الإسكندرية، قاعدة مصر البيزنطية .
وسار إلى الإسكندرية محاذيًا فرع رشيد، الذي يسمى الفرع البوليتيني، نسبة إلى رشيد، وكان اسمها «بولاتينا»، وفتح عمرو في طريقه طرنوط ثم نقيوس، ثم سلطيس ثم الكريون وكلها كانت مراكز لجاليات رومية حاولت مقاومة العرب. وكان تيودور قائد الحامية الرومية تحصن في

الكريون ثم انهزم إلى الإسكندرية وتحصن بأسوارها وكتب إلى هرقل، واستمر حصار الإسكندرية أربعة أشهر حتى قلق عمر بن الخطاب وكتب إلى عمرو، فقرر عمرو اقتحام أسوار البلد وعهد إلى عبادة بن الصامت في ذلك فنجح فيه واقتحم الإسكندرية بجنده .
وفي أثناء حصار الإسكندرية كانت بعض نواحي مصر قد حاولت الوقوف في وجه المسلمين في الفيوم وأعلى الأرض وشمال وغرب الدلتا، فوجه عمرو خارجة بن حذافة السهمي في قوة إلى شمال غرب الدلتا فحارب البشرودات، أي أهل البشرود وهم أهل منطقة المنزلة ـ مع ملاحظة أن المنزلة شمال شرق الدلتا وليس غربها كما يقول حسين مؤنس .
ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى نواحي تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير فقضى على مقاومتها. وكانت في الفيوم قوة رومية يقودها رجل يسمى «دمنديانوس» فحاول التقدم نحو الفسطاط، ولكن القائد العربي عقبة بن عامر تصدى له وهزمه .
وتولى عقبة بن عامر القضاء على كل مقاومة في الصعيد .
*
وبمقارنة سير المعارك لدى يوحنا النقيوسي والمؤرخين العرب القدامى والمحدثين نلاحظ أن النقيوسي لم يذكر المعارك الشرقية وأن اهتمامه بالتفاصيل ينحصر في الدلتا والشمال الغربي حتى الإسكندرية، وربما تكون بعض الأوراق قد ضاعت من مخطوطة النقيوسي، وربما لم يبدأ اهتمامه بالتفاصيل إلا مع اقتراب الخطر العربي من المناطق المحيطة به والقريبة منه. مع ملاحظة أنه لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر، بل وحدات متفرقة مع الأقاليم بمقتضى سياسة جستنيان القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر، ومنح جميع الحكام سلطة متسقة روعي فيها التطابق، فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط، كما يقول سير هارولد بل في كتاب «الهلينية في مصر ».
(1) المصدر السابق .